

جين ساسون

خيار

فالمهمنا

قصة حقيقية عن الحرب
والاغتصاب والشجاعة
والصراع من أجل البقاء





خيار ياسمينا

جين ساسون

خيار ياسمينا

قصة حقيقية عن الحرب والاعتصاب
والشجاعة والصراع من أجل البقاء



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

للكتابة عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

- مغامرة حب في بلاد ممزقة

القصة الحقيقية لجوانا، وهي امرأة من كردستان ومناضلة من أجل الحرية هربت من العراق

- إنه بن لادن

كل شيء عنه بلسان زوجته وابنه

- سمو الأميرة

وقائع من قلب العائلة المالكة في السعودية خفايا تمكنت من الظهور وأسرار معلنه

- حلقة الأميرة سلطنة

- بنات سمو الأميرة

اعترافات خطيرة وحميمة لأميرة سعودية من العائلة الحاكمة

- لأنك ولدي

امرأة أفغانية تبحث عن طفلها المفقود

- ميادة ابنة العراق

- خيار ياسميننا

قصة حقيقية عن الحرب والاعتصاب والشجاعة والصراع من أجل البقاء

- طفل إستير

لمزيد من المعلومات عن جين ساسون وعن كتبها، زوروا

موقعها الإلكتروني: www.jeansasson.com

مدونة: <http://jeansasson.wordpress.com/>

فيسبوك: <http://www.facebook.com/AuthorJeanSasson>

تويتر: <http://twitter.com/jeansasson>

آسك (ASK): <http://ask.fm/jeansasson>

المحتويات

11	المؤلّفة تتذكّر
15	تحذير للقراء
17	مقدمة: مغلّصة
23	الفصل الأول: ياسميننا
39	الفصل الثاني: الأسر
53	الفصل الثالث: مستعبدة جنسياً
61	الفصل الرابع: لانا
69	الفصل الخامس: الرجل الذئب
73	الفصل السادس: الكابتن
85	الفصل السابع: الانتحار
93	الفصل الثامن: لانا والوحش
103	الفصل التاسع: خيار ياسميننا

- 123 الفصل العاشر: السير على
خيـط رفيع
- 145 الفصل الحادي عشر: النجاة
- 153 الفصل الثاني عشر: لن تعودى
إلى ديارك ثانية
- 163 الفصل الثالث عشر: الوقت
يمر: من منتصف الليل إلى الفجر
- 177 الفصل الرابع عشر: نلتقى
في البصرة!
- 197 الفصل الخامس عشر:
الكابتن الابن!
- 215 الخاتمة: فيلاً الأطفال
- 231 ملاحظة من الكاتبة
- 241 ملحق (أ): جرائم الاغتصاب
إبان الحروب
- 243 ملحق (ب): كلمة من
العراقية ميادة العسكري
- 251 ملحق (ج): حول الكويتي
سعود المطاوع
- 259 ملحق (د): الكويت - جدول
زمني

- 271 ملحق (هـ): العراق -
تسلسل زمني
- 279 ملحق (و): تاريخ ادعاء
العراق امتلاكه للكويت
- 281 ملحق (ز): رحلة الحرية،
رحلة العودة إلى الكويت بعد
حرب الخليج الأولى
- 303 ملحق (ح): مقتطفات من
كتاب (اغتصاب الكويت)

هذا الكتاب (خيار ياسمينا) مُهدى إلى امرأتين شجاعتين
واستثنائيتين:

إلى ياسمينا، أينما كنتِ.

إلى لانا، فلترقد روحكِ بسلام.

المؤلفة تتذكر

العودة إلى الكويت: 13 آذار/مارس 1991

استحوذت الكويت والكويتيون على كل أفكاري خلال جلوسي بهدوء على متن طائرة «رحلة الحرية»، أول رحلة رسمية حكومية كويتية إلى دولة الكويت المحررة حديثاً. كنتُ واحدة من بين مئة وستة وأربعين ضيفاً يقومون بهذه الرحلة تلبيةً لدعوة من الحكومة الكويتية.

مرت سبعة أشهر منذ الثاني من آب/أغسطس 1990 حينما اجتاح الجيش العراقي الكويت، فاحتل هذه الدولة الصغيرة وضمّها إلى العراق في غضون ساعات. مرت ستة أشهر منذ أن سافرت إلى لندن والقاهرة والرياض والطائف حتى أقابل أشخاصاً علقوا في الكويت في ذلك اليوم الحار من شهر آب/أغسطس، وهو يوم مصيري في تحوّل المنطقة بأسرها. تلك المقابلات الشخصية شكّلت الأساس لكتاب «اغتصاب الكويت»، وهو الكتاب الذي ألّفته حول تجارب الكويتيين وغيرهم، والذين علقوا في الكويت في اليوم الأول للغزو. حينما نُشر الكتاب في كانون الثاني/يناير من العام 1991 حقّق على الفور مبيعات عالية، فحل في المرتبة الثانية ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز.

فيما عرض كتاب «اغتصاب الكويت» قصص الكويتيين الذين نجوا من الاجتياح ولجأوا إلى السعودية ومصر وإنكلترا توجّياً للأمن والسلامة، تحول تركيزي اليوم إلى الأشخاص الذين ظلّوا في الكويت خلال الاحتلال الذي دام مئتين وثمانية أيام. ما زلت أفكر فيهم منذ وقت طويل. وفهمت من خلال التقارير الإعلامية والقصص الشخصية أن الجيش العراقي أنزل خلال الاحتلال شر العذاب بالسكان المدنيين

الكويتيين، حيث لجأ الجنود العراقيون، من بين أمور أخرى، إلى السرقة والاعتصاب والتعذيب الجسدي والقتل. وتفيد التقارير بأن البلاد دُمّرت، وهُدّمت البنى التحتية، وأضرمت النيران عن عمد في آبار النفط.

أنا الآن في طريقي لأستكشف بنفسي ما خلفه الاحتلال. وتشمل خطتي الاطلاع على حال البلاد، إلى جانب عقد لقاءات شخصية مع مناضلين ومواطنين عاديين لا يمانعون في الإفصاح عن قصص شخصية تعكس ماهية العيش تحت حكم محتل لا يرحم.

خلال الرحلة مرّ الوقت ببطء، ولكنني نزلت أخيراً من طائرة «رحلة الحرية» وأقلنتني حافلة إلى مدينة الكويت.

منذ اللحظة الأولى التي دخلت فيها البلد المدمّر، وقعت عيناى على مخلفات الحرب وعلى الخسائر. كل ما شاهدته وكل من التقيته دلّني على الدمار القريب العهد الذي سبّبه الجيش العراقي، وانتشرت على طول الطريق شاحنات عسكرية مدمّرة ومحتركة. رحّت أحدّق إلى أطلال متفحّمة لمنزل جميل كان في الأغلب، يؤوي تحت سقفه عائلة سعيدة. لقد انتهت هذه الأيام الخالية من الهموم قبل أشهر، وها هي نيران الوقود المحترق تستعر، وتشتد فتامة الدخان في عنان السماء المعتمة، حتى تكاد تخفي اللون الأزرق تماماً. رحّت أرتجف من برودة الهواء، فأدركت للمرة الأولى بأن نيران الوقود المحترق تولّد برودة خانقة فظيعة وليس حرارة شديدة. لقد نزلت المعاناة في كل مخلوق حي في الكويت، حيث راحت الطيور والحيوانات، التي تلوّث ريشها وفروها بالنفط، تكافح دون جدوى. لم تعد هذه الطيور المرتبكة قادرة على التحليق، فيما أخذت حيوانات بئسة أخرى تسير متهاكّة وهي لا تكاد تقوى على حمل رؤوسها.

في وقت لاحق من ذاك المساء، حينما نزلتُ في فندق، رحّتُ أتفرّج بهدوء على الفندق المتضرّر من الداخل، فأخذني العجب من الأبواب المشطّاة التي كانت توفر أنفاً الخصوصية لضيوف الفندق. لم

تعد هذه الأبواب تؤدي وظيفتها المطلوبة، فوجدتني مجبرة على تكديس الحقائق عند مدخل الباب المكشوف في غرفتي لأحافظ على سلامتي الشخصية.

بعد يومين أجريت أولى مقابلاتي. حيث راح الأهالي الثكالي ذوو الوجوه المجدّدة والذين عُدّ أولادهم المناضلون أمام أعينهم، يعبرون عن كربهم متألّمين. دبّت فيّ الرجفة أمام منظر الأولاد الحزاني الذين فقدوا أحد آبائهم، وهم واقفون في حالة صمت تواقين كي يمسح عنهم أي شخص، مهما يكن، ألم خسارتهم. كان لكل منهم قصة، فحملوني معهم إلى أيام الرعب المروّعة التي شهدوها وشعروا بها وعاشوها.

بعد مرور بضعة أسابيع على زيارتي الكويت، أطلعتني الحكومة الكويتية على قصة أفضع من أغلب القصص، قصة سرية تم إخفاؤها عمداً عن وسائل الإعلام العالمية، قصة تدور حول امرأة بريئة، وقصة كان لها أبعاد الأثر في قلبي.

وسأقصّ عليكم الآن هذه القصة.

تحذير للقراء

هذه القصة الحقيقية التي ستقرأونها لا تناسب أصحاب القلوب الضعيفة. ولكن لإيفاء هذه القصة المهمة جداً حقها، ولتخطي عناوين الصحف العريضة والإحصائيات، بهدف نشر حقيقة ما تتعرض له فعلياً النساء اللواتي يُستعبدن لأغراض جنسية، من المهم سرد التفاصيل الحقيقية المروعة والدقيقة التي سردها عليّ النساء المختطفات.

ولحماية أولئك النساء اللواتي تعرّضن للاختطاف والاعتصاب، من الضروري تغيير أسمائهن وتعديل بعض المعلومات التي تكشف هوياتهن.

تعطي هذه القصة المهمة للنساء اللواتي نجونَ من الاعتصاب والتعذيب الجنسي فرصة لسرد قصصهن أمام العالم.

تعطي هذه القصة المهمة للنساء المغتصابات والمقتولات الفرصة للنهوض من قبورهن وإسماع أصواتهن.

هذه القصة المهمة تعطيك، أيها القارئ، قصة تحملها معك بقية حياتك.

جين ساسون

مقدمة

مغتصبة

«بعد النصر في المعركة، ليس ثمة ما يُخرج الشر من أوكاره
الخفية، بقدر وجود امرأة جميلة»

جين ساسون

ليس ثمة فائزون في الجحيم. حتى لو فزت فأنت خاسر. الأمور
كلها سيان، فأنت في الجحيم. حين اختار الكابتن ياسمينا، أيقنت أنها
لم تغز بجائزة. بل فازت بمكانٍ لها في جحيمٍ من صنع الإنسان.

لحظات طوال، وهي تحدّق بحذر عبر قضبان زنانتها. لم ترَ أحداً،
رغم أنها سمعت دمدمة أصوات نسائية ورجالية مكبوتة. أخيراً توجّهت
للجلوس على حصير النوم الرفيع الموجود على الأرض في زنانتها
الخافتة الإضاءة. راحت تحدّق إلى العدم. تقاسيم وجهها متصلّبة، ولكن
الأفكار تتزاحم في عقلها، وهي تفكّر بطريقة ما تخرجها من الجحيم.
شعرت أنها في حال عجزت عن الهرب ستعاني الأمرين على يديّ
الرجل الذي ادّعى أنها باتت ملكاً له.

فجأة ازداد كابوس ياسمينا رعباً حين حضر الكابتن لأخذ ما ادّعى
أنه ملك له. لم ينظر إليها وهو يفتح قفل باب زنانتها. في الواقع، بدا أن
فكره مشغول بأمور أخرى، ربما بعائلته في العراق أو بفطور مميز
سيحضّره في اليوم التالي.

دقّ هذا الرجل بسلوكه الهادئ ناقوس الخطر في قلب ياسمينا،
فنهضت لتنسحب إلى الزاوية ببطء ورويّة، نظير مدرّب حيوانات يقظ، لا
يريد لفت انتباه الحيوان الذي يعتقد أنه قد ينتقل من حالة الهدوء إلى

حالة الانقباض بطريقة عين.

بعد دخول الزنانة، دسّ الرجل مفتاح الزنانة في جيب بنطاله قبل أن يكافح ليجلس بجسمه الرخو ذي الصرير، فقعد متصالب الرجلين على الحصير الرفيع الذي نهضت عنه ياسمينا.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر IKitab

حين نظر إليها أخيراً، أثار غياب المشاعر الإنسانية في عينيه رعباً شديداً في نفس ياسمينا. أخيراً نطق بصوتٍ خافتٍ وجافٍ يخلو من العاطفة، وإن كان هادئاً: «اخلعي كل ملابسك ودعيني أركّ».

جمدت ياسمينا. رغم أنها كانت تبلغ الثالثة والعشرين من عمرها، إلا أنها كانت عذراء. لم يسبق لها أن قبّلت رجلاً، رغم أنها سمحت ذات مرة لرجل وسيم التفتته في باريس بأمسك يدها.

تكلم الجندي بصوتٍ عميقٍ يمتزج بمقاطعه الهدوء والسكون، بدا أن ذاك الصوت الرقيق يجعل منه إنساناً رقيقاً، ولكن ياسمينا أيقنت أن صوته ليس إلا واجهة كاذبة. راح يسعل ويتنحج، ثم أدار وجهه كي يبصق في إحدى زوايا زنزانتها: إنه رجل لم يُعلّم قط حُسن السلوك. ثم بعث برسالة مخيفة للغاية بصوته الهادئ ذاك: «اخلعي كل ملابسك وإلا سأستدعي رجالي لينزعوها عنك. لن يسرّك هذا الأمر كثيراً، يا عزيزتي».

وجدت ياسمينا قوة لتتكلم، رغم أن قوتها خارت ولم تقوَ على رفع صوتها إلا إلى حد الهمس. «أرجوك لا تفعل هذا. أنا عربية وأنت عربي. أنا مسلمة وأنت مسلم. أرجوك لا تفعل هذا بي».

نظر إليها بكل هدوء وكأنها وحثت إليه كلاماً تافهاً لا وزن له، ربما يضاهاى بتفاهته تفضيلها البيض المسلوق على المقلي، على سبيل المثال. ازدادت نبرة صوته حدة وهو يأمرها قائلاً: «اخلعي ملابسك

كلها، أريد إلقاء نظرة عليك».

«أرجوك، فكّر بأملك أو أختك. ما كنت لترضى أن يجري لهما هذا.
أرجوك لا تفعل».

أخفت كل توسّلاتها في التأثير به. وبقي غير عابئ بالتماساتها
الناعبة من الخوف. بدا وجهه جامداً كحجر الصوّان حينما وقف وقال:
«حسناً إذاً»، ثم اقترب منها. خطا خطوة كبيرة واحدة ثم أمسك بها من
رقبتها بقبضة قوية، وباليد الأخرى جردّها من ملابسها. ولم يكلف
نفسه عناء نزع ملابسها بروية، بل انتزعها عن جسدها بعنف.

أنت ياسمينا. شعرت أن كل جسدها بات مُستنزفاً وضعيفاً.
عجزت عن المقاومة، ولكنها سمعت شهيق اختناق، فحسبت لوهلة
أن ثمة طفلاً في زنانتها إلى أن استوعبت أن الأئين صادر منها.

دفعها الرجل البليد الأحاسيس إلى الحصر وانحنى فوقها،
واستغرق تفحصها وقتاً طويلاً جداً. دعت ياسمينا أن يجد فيها عيباً فلا
يغتصبها، ولكن بعد لحظات طوال من الإذلال، أعلن أنها «مناسبة».

بعد أن نجحت ياسمينا في الاختبار الطبي، راحت تراقب بوجل
الكابتن وهو ينهض وينزع ملابسه.

«أرجوك، أرجوك لا تفعل». ثم خطرت لها فكرة جيدة، فراحت تقول
باستعجال يأساً منها: «لا تفعل، لا تفعل. أنا مصابة بالآيدز، أنا مصابة
بالآيدز».

ضحك مغتصبها وقال بصوته الهادئ إلى حد الجنون: «الفتيات
العربيات لا يُصبن بالآيدز».

دخلها وأذاها، فصرخت ياسمينا بصوت عال، فهذّدها بصوت
خافت: «اصمتي، إن صرخت مجدداً سأمر كل جنودي بالتلذذ بك».

أيقنت ياسمينا أن هذا الرجل القاسي قد ينفذ وعيده. فكبتت
صرخاتها، وراحت تنتحب بصمت فيما استمر يغتصبها بشكل متكرّر

على مدى خمس ساعات.

بعد هذا الاعتداء، شكرها الكابتن بلباقة قائلاً: «لقد حظيتُ بوقت ممتع». طلب منها ألا تقلق، سيحتفظ بها لمدة شهر على الأقل. ثم، وكأنه يقص قصة خيالية عربية، راح يسرد عليها عدداً من الأشياء التي قد تتوفر في مستقبلها. ومن كان ليذري ماذا سيحدث بعد شهر؟ قد يغادر الكويت. وقد يعود الكويتيون. وقد لا يقتلها عند انصرام الشهر. قد يحدث أي شيء.

رسم على وجهه ابتسامة شريرة، وتركها وحدها في الزنزانة، والرعب رفيقها الخفي الوحيد.

الفصل الأول

ياسمينا

منذ ولادتها، حبا الخالق ياسمينا الجمال. وبعد ثلاث وعشرين سنة من ولادتها، كلما شوهد مولود جديد، تنشط الأحاديث العائلية حول الأطفال الظرفاء. لقد أجمعت عائلة ياسمينا على أنها كانت أجمل طفلة وُلدت في لبنان.

وبعكس أغلب الأطفال الذين تكون وجوههم عند الولادة حمراء متوترة، أنعم الخالق على ياسمينا ببشرة عاجية فاتحة تُحسد عليها، فبدت وكأنها أمضت الأشهر التسعة في رحم أمها وهي تُدلك بمراهم للوجه باهظة الثمن. وفيما يُبدي أغلب الأطفال انزعاجاً جراء صدمة الولادة، راح أفراد العائلة والأصدقاء يتضحكون ببهجة فور تذكّرهم أن ياسمينا بدت فاتنة منذ لحظة ولادتها، وراحت تبتسم في وجوه الجميع ببراءة.

لم يبدِ كل أفراد العائلة ابتهاجاً بجمالها، لأن هذه الطفلة الفاتحة الجمال شكّلت مصدر قلق، حسب قول جدة ياسمينا لأمها، والتي أصرت على أن عين الحسود أو «صيبة العين» تشكّل تهديداً حقيقياً. حتى النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) تحدّث عن أثر عين الحسود، وعن قدرة الأفراد على التسبّب بالأذى جراء الحسد. وفي حين كان مقبولاً من المعجبين أن يثنوا على ولادة أي طفل بالسلامة بالقول «ما شاء الله»، كان بعض الزوار عند رؤية الطفلة ياسمينا، يُفتنون بجمالها إلى درجة أنهم ينسون على الفور وجوب عدم إبداء الإعجاب بالأطفال أو امتداحهم. حينما كان بعض الزوار يشرعون بشكل طائش بالإطراء على جمال

ياسمينا، تنبري عاصفة من الأصوات النسائية إلى نكران جمالها.

ولإخفاء جمال ياسمينا، ازدادت حماسة جدة الطفلة لأمرها إلى تقيطها، وهو فعل شائع في تلك المنطقة. حيث تُلف الطفلة ببطانية فتغطي أذنيها الطريتين وتُسدل قطعة قماش شقّافة مربعة على وجهها لتغطي جمالها الاستثنائي. حرّم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) الطلاسم للحماية من عين الحسود؛ فقال إن الله وحده يوفر السلامة. ولكن جدة ياسمينا تناست هذا التحريم وراحت تربط شرائط زرقاء، وأزراراً وحلياً بسبعة أعين بملابس ياسمينا. ولحماية ياسمينا أكثر علّقت صندوقاً ذهبياً صغيراً يضم آيات قرآنية فوق مهدها.

عارض الجميع مسعى جدة ياسمينا لإخفاء مثل هذه الطفلة الفاتنة. وكان والد ياسمينا رجلاً مثقفاً، وفخوراً بمولودته الأولى بشكل استثنائي، على الرغم من أنها أنثى. اغتبط جداً بابنته البديعة فسماها ياسمينا تيمناً بزهرته المفضّلة، الياسمين. ولأنه لا يؤمن بعين الحسود، راح يتباهى بكل فخر بابنته الجميلة التي ساعد في مجيئها إلى هذا العالم. فأثار تصرفه غضب حماته الحذرة وانزعاجها.

أخذت الزائرات يخفين ابتسامات الغبطة لدى رؤيتهن رجلاً مسروراً بمولودته الأنثى، وخصوصاً وأنها البكر. أي رجل في لبنان لا يتوق إلى أن يكون مولوده الأول ذكراً؟ بغض النظر عن الانتماء الديني، سواء أكان الرجل مسيحياً أو مسلماً أو درزياً، يتعرّض إلى سخرية الأصدقاء حينما يكون بكره أنثى، ويلقّب بـ «أبو البنت». تنقبض ملامح هؤلاء الآباء الأنانيون ويعلو العبوس وجوههم شهوراً طوالاً وينكدون حياة كل من يقترب منهم. ولكن للحق، فإن أولئك الأمهات اللواتي عاين والد ياسمينا المبتهج، تمنين في سرهن لو كان أزواجهن يحبون بناتهن الصغيرات بهذا القدر.

وبالتالي ظلت العلاقات العائلية متوتّرة لسنوات. وراح الصهر والحماة يتبادلان الإهانات باستمرار، وهو أمر خارج عن المألوف في المجتمع، حيث يُعامل كبار السن معاملةً طيبة. شكّل والد ياسمينا

مصدر إزعاج بعض الشيء، بحسب رأي حماته، التي كانت تُسِرُّ بامتعاضها منه إلى أي شخص قادر على الجلوس قبالتها، ملتزماً الصمت مدةً كافيةً، لتعرض عليه مشكلتها. لقد كرهت التدخل الذكوري من قبل صهرها. فما أدري الرجال بتربية الأطفال؟ حتى أنه تمتّع بوقاحة، بالتحقيق مع نساء المنزل كل ليلة، مصرّاً أن يسجّلن خطياً كل نمو جسدي وذهني لياسميننا.

أبت جدة ياسميننا أن تدوّن أي نمو لياسميننا في دفتر صهرها، صارخة بصوتٍ عالٍ: «حفيدتي ليست رقماً رياضياً لكي تُدوّن في دفتر سجلات».

من المؤكّد أن أي طفل في لبنان لم يلقَ الحب الذي لقيته ياسميننا. حينما اكتسبت القدرة على المشي قبل أشهر من أبناء أصدقائه، أعلن والد ياسميننا أن ابنته ليست جميلة فحسب، بل وعبقرية أيضاً. ولطالما أثنى على ذكاء ابنته الصغيرة، رغم أن الثقافة اللبنانية تؤثر عموماً الجمال على الذكاء.

بتوالي السنوات، أثبتت ياسميننا حدّة ذكائها وفطنتها. وضع والدها خططاً لها كي تستلم إدارة شركته بعد أن تنال الشهادة الجامعية، وهو أمر غير مسبوق في بلد يندر أن تستلم النساء فيه مناصب إدارية تمدّها بسلطة على الرجل.

لم ينجب والدا ياسميننا أبناء ذكوراً. كانت ياسميننا الابنة البكر بين أربع بنات، وظل تاجها كابنة مفضّلة ثابتاً على رأسها. بمرور السنين، ظل جمال ياسميننا أخّاداً. والأهم أن ذكاءها وتبصّرها ازدادا حدّة. ولحسن الحظ لم يفسدها المديح والإطراء، فظلت متواضعة ولطيفة، وبالتالي لم يثر خليط الجمال والذكاء أي عدائية وحسد من قبل الإناث.

لم يُبدِ والد ياسميننا إلا انتقاداً واحداً بحق ابنته الفاتنة. كانت ياسميننا حسّاسة جداً تجاه الآخرين، فخشي أن يسبب تعاطفها مشكلة لها. فارتأى أنه يجدر بها أن تبدي سلوكاً صارماً، وهو ما يعجبه

لدى أبناء أصدقائه من أصحاب الشركات. لكن ياسمينا عجزت عن السيطرة على طبيعتها العاطفية. فحينما تشهد ظلماً ما، تتقدم لحماية من نزل به الظلم، حتى لو استلزم ذلك الصراخ في وجوه الأطفال الذكور، وهو أمر تُلقن الفتيات اللبنانيات ألا يُقدمن عليه.

ظهرت ميزات أخرى في ياسمينا حينما بلغت مرحلة المراهقة. أذهلت والديها وأخواتها وأصدقاءها حين أعلنت أن فكرة الزواج المبكر لا تستهويها، علماً بأن عادة الزواج المبكر شائعة في البيئة اللبنانية المسلمة. وتمادت ياسمينا أكثر حينما أُسرت إلى صديقتها المفضلة، ناديا، بأنها لا تشاطرها حلمها بأن تصبح زوجة وأماً في سن مبكرة. في الحقيقة، بدأت ياسمينا تلاحظ أن الزواج يحوّل المرأة إلى خادمة لزوجها وأولاده.

دُهِشت ناديا لدى سماع صديقتها المستقلة الرأي وهي تؤكد أن الزواج يروق للرجال فيما يضر بالنساء. دمدمت ياسمينا قائلة: «اسمعيني يا ناديا، تحضير ثلاث وجبات طعام في اليوم، والإشراف على الخدم للحفاظ على نظافة المنزل، والحفاظ على راحة الزوج، كلها أمور تسبب التقدّم المبكر في السن. انظري من حولك إلى صديقاتنا اللواتي ما زلن في العشرينات من أعمارهن. بعد ولادتهن لطفلين فقط، يبدو أغلبهن أكبر بكثير من سنهن الحقيقية.»

في الحقيقة، كانت ياسمينا تستمتع سراً بجمالها وأيقنت أن شكلها سيفتح لها أبواب الفرص. كما، أملت أن يساعدها جمالها في إخراجها من لبنان الصغير حتى تجوب العالم.

علمت أن والديها لن يوافقا، فالتزمت الصمت حينما تقدمت بطلب توظيف لتعمل مضيعة طيران في شركة جوية مهمة في خطوط طيران الشرق الأوسط لها مكاتب في بيروت. مُنحت الوظيفة بعد أول مقابلة لها. واستناداً إلى تصرّفات المدير، فهمت ياسمينا أن مظهرها الفَتان وقوامها الرشيق دفعاه للموافقة على توظيفها. كانت الخطوط الجوية في الشرق الأوسط تقف وراء كل الأفكار المعاصرة في ما

يتعلق بمسألة تحرير المرأة، ولم تعانِ من وجود أي أنظمة تجبر الشركات على الأخذ بالاعتبار مسألة التمييز من ناحيتي العمر أو الوزن لدى توظيف النساء. في الواقع، لم تركز الخطوط الجوية كثيراً على الشهادات العليا أو الإنجاز الأكاديمي، وراحت توظف مضيفات شابات كوسيلة لتعزيز جمال الأجسام داخل الطائرات، وكأنهن مجرد أدوات زينة قادرة على السير والكلام.

في البداية خاب ظن والد ياسمينا لأن ابنته ضيّعت فرصة الحصول على شهادة جامعية من أي جامعة تختارها. ولكن افتتانه الشديد بابنته العزيزة دفعه إلى تبرير قرارها سريعاً بقوله: «من المفيد جداً للمرأة أن تسافر وتكتسب قليلاً من الخبرة قبل تسلمها إدارة شركة ضخمة». كما وافق دون جدال على تأجيلها الزواج، إذ شعر أن ما من رجل يستحق ابنته فعلاً. خشيت والدة ياسمينا أن تعمد ابنتها إلى إيذاء سمعتها بالسفر حول العالم من دون توفر حماية ذكورية لها. ولكن سرعان ما هدأت الأم بعدما استجوبت بناتها الصغيرات واكتشفت أن ياسمينا اعترفت بأنها لم تواعد أي رجل، وأنها على الأغلب لن تفعل، وأنها حين تصبح مستعدة للزواج، ستأتي إلى المنزل وتطلب من والديها تدبير زوج صالح لها. اطمأن والداها حينما رأيا أن ابنتهما المتحررة لا تزال تقيم في منزل العائلة في الأوقات التي لا تسافر فيها بحكم وظيفتها، ولم تزل ياسمينا نفسها التي اعتادا عليها: متواضعة ولطيفة ورائعة.

هكذا عاشت ياسمينا حياتها باستقلالية، وفرحت جداً بزيارتها الأولى إلى باريس، فجابت شوارع المدينة الجميلة لأيام بابتسامة عريضة أضاءت وجهها. كانت أحلامها تتحقق، وازدادت سعادتها حينما راحت تفكر بأختها البالغة تسعة عشر عاماً والموجودة في بيروت، التي تعكس حياتها كل ما تفادته ياسمينا. كانت أخت ياسمينا على وشك ولادة ابنها البكر في أي لحظة، وبطنها منتفخة جداً لدرجة أنها أصبحت تسير كالبطة. وعلى الرغم من أن أختها ادّعت فرحها البالغ

بزواجها المبكر من رجل أعمال ناجح، إلا أنها كانت أحياناً تتذمّر من شعورها بالضيق، خصوصاً حينما أُسرت إلى أمها وياسمينا بأن زوجها يطلب معاشرتها على مدار الساعة، ليلاً ونهاراً دون مراعاة شعورها بالإرهاك بسبب حملها الأول. كانت معاشرة زوجها آخر ما يشغل بالها، وكان يتوقع منها تلبية كل رغباته. لم تتعاطف والدة ياسمينا مع ابنتها كثيراً، ووصّتها بوجوب إرضاء زوجها داخل غرفة النوم وخارجها.

ولكن ياسمينا أخذتها الشفقة على وضع أختها الصغرى مذكّال اليوم. وباتت تلمح في كثير من الأحيان تعابير الحزن مرتسمة على وجه أختها خلال خدمتها لزوجها. وكحال أغلب الأبناء اللبنانيين، لقي زوجها كل الدلال والغنج من أمه، فأمست زوجته اليوم تزرع تحت عبء متطلباته التي لا تنتهي. لكأنه لا يزال طفلاً. لمجرد التفكير بحياة أختها المنهكة، كانت تساور ياسمينا أحياناً الرغبة في القفز فرحاً لأنها نفذت من مثل هذه الحياة.

* * *

غزو الكويت:

عبر الجنود العراقيون الحدود مع الكويت اليوم وتوغّلوا عميقاً داخل العاصمة الكويتية...

أفادت وكالة رويترز أن انفجارات عدة هزّت العاصمة، وناشدت محطة الكويت الإذاعية المواطنين المساعدة في صد الهجوم. أفيد عبر المحطة الإذاعية الكويتية: «يتعرض بلدكم إلى هجوم بربري. حان الوقت للدفاع عنه».

صحيفة نيويورك تايمز، (العالم)

2 آب/أغسطس 1990

تهليل العراقيين المشوب ببعض القلق

أطلق سائقو الدراجات النارية نغيم دراجاتهم وراحوا يومضون

أضواءها هنا اليوم احتفالاً بغزو الجيش العراقي للكويت.

وكالة رويترز، بغداد، العراق.

2 آب/أغسطس 1990

في صيف عام 1990، كان عدد سكان الكويت يقدر بـ 2,155,000 نسمة. وحوالي 60 بالمئة من عدد السكان ليسوا كويتيين، وهم بأغلبهم عمال أجانب. ويُقدّر أن ما لا يقل عن ثلث المواطنين كانوا أثناء الغزو يمضون إجازات في الخارج، فيما ظل الباقون داخل البلد. بيد أنه إبان الاحتلال الذي دام سبعة أشهر هرب كثير من الكويتيين الآخرين إلى السعودية، ومن هناك سافروا إلى لندن أو غيرها من العواصم الأوروبية حيث انتظروا تحرير بلادهم.

أرقام تقديرية من السفارة الكويتية في العاصمة واشنطن.

آب/أغسطس 1990

* * *

تمتعت ياسمينا بسنتين من الاستقلالية المهنية، لكن سعادتها الخالية من الهموم وصلت إلى نهاية مفاجئة في 2 آب/أغسطس 1990. بعد أن عملت مضيعة جوية مدة سنتين، أسّست ياسمينا شبكة من الصداقات. وغالباً ما كانت تبدل أيام العمل مع صديقات لها في الوظيفة نفسها، لذا كان أمراً مألوفاً أن تطلب منها صديقتها، التي أرادت أخذ إجازة مبكرة لتمضية أيام العيد، أن تحل محلها في رحلة الكويت يوم الأربعاء في الأول من آب/أغسطس 1990. وصلت الرحلة في موعدها المحدد عصر ذاك الأربعاء، وتوجه طاقم العمل المتعب إلى العاصمة الكويتية لبيت فيها كما هو محدد له. كان يُفترض بأفراد الطاقم المغادرة عصر اليوم التالي، أي نهار الخميس الواقع في 2 آب/أغسطس 1990 للعودة إلى دبي ومنها إلى بيروت.

بعد أن تناولت ياسمينا شطيرة وطبق حساء في مطعم الفندق،

قامت بما دأبت على القيام به وخلدت للنوم باكراً. كانت نائمة باطمئنان حين أيقظتها أصوات انفجارات مدويّة. حسبت في البداية أن الأصوات صادرة عن حفلة زفاف تقام في الفندق، ولكن حينما فتحت عينيها لتفقد الساعة، ذهلت إذ وجدت الساعة تشير إلى الثالثة فجراً. والفنادق في الكويت نادراً ما تسمح بأن تتواصل الحفلات إلى ما بعد الساعة الواحدة بعد منتصف الليل.

قلبت ياسمينا إلى جنبها ووضعت وسادة فوق رأسها، لكن النوم استحال عليها لأن الصوت ازداد صخباً. راحت تتنهد وهي تنهض من السرير كي تنظر عبر نافذة الفندق. ارتاعت حينما رأت جنوداً مسلّحين يتنقلون من مبنى إلى آخر ويتبادلون إطلاق النار. وراحت الانفجارات باللونين الأبيض والأحمر تضيء السماء الحالكة الظلمة. فركت عينيها من جديد. بدا المكان أشبه بموقع تصوير في فيلم هوليوودي، لكن ليس ثمة أفلام تُصوّر في العاصمة الكويتية.

تعثّرت ياسمينا وهي تتراجع إلى الوراء كي تجلس على حافة سريرها وتفكر. هل هذا انقلاب على الحكومة؟ هل يتم خلع عائلة الصباح الحاكمة؟ بالتأكيد كانت الصحافة الكويتية واحدة من أكثر الأصوات التي تتمتع بحرية التعبير في الشرق الأوسط. وكان بعض الصحفيين يرفعون الشكاوى طوال أشهر، يحثون فيها الكويت على الانتقال من الحكم الملكي إلى الديمقراطية. ثم تذكّرت إلى حد ما المشاكل المتصاعدة في حدّتها بين العراق والكويت، وتساءلت إن كان جيش صدام قد غزا البلد. قطعاً لا. فبعد محاربة إيران لثمانية سنوات طوال، لماذا يشن الطاغية العراقي حرباً ثانية ضد جار آخر؟

عادت لتنظر ثانية من خلف الستائر، ولكنها لم ترَ بوضوح كي تتبيّن من بالضبط يشارك في القتال. راحت دقائق قلبها تتسارع، فهي تعرف ماهية الحرب والعنف حق المعرفة. إذ وُلدت خلال الحرب الأهلية اللبنانية، ورغم صغر سنّها آنذاك، أمكنها تذكّر وحشية ذلك الصراع. ازدادت شراسة الحرب اللبنانية لدرجة أن عائلتها عاشت سنوات في

جزيرة قبرص المجاورة. لقد حالف الحظ عائلتها آنذاك: لم يُقتل أحد من أفراد عائلتها المباشرة، ونجت أغلب ممتلكاتهم. دُمّر عدد من مستودعات والداها حينما أُطلق الموارنة الصواريخ على القرى الشيعية الواقعة خلف تلك المباني مباشرة. وعاد اليوم عمل والداها إلى الازدهار.

حين ازداد صخب أصوات المواجهات خارج نافذتها، أيقنت ياسمينا أن عليها أن تفعل شيئاً ما. ففتحت حقيبتها وأخرجت منها بلوزة وتنورة. وبسرعة نزعت عن جسمها رداء النوم الأزرق الجميل الذي يحمل صورة برج إيفل وبدّلته بسرعة. حينذاك سمعت أصوات نزلاء مهتاجين يتراكضون في الرواق، فانضمت إليهم.

في ردهة الاستقبال رأت كثيراً من زملائها وتواصلت معهم، فتشاوروا سوياً متوترين بانتظار الأخبار. وسرعان ما أرسلت إدارة الفندق موظفين إلى أرجاء الفندق ليعلنوا للنزلاء المصدومين أن الجيش العراقي يجتاح الكويت. بعد بضع ساعات فقط، تم إبلاغ النزلاء بأنه تم اجتياح الدولة الصغيرة وبات الجميع عالقين.

صعق الخبر ياسمينا وأصدقاءها إلى درجة أنهم باتوا مكتوفي الأيدي، لذا لم يفعلوا شيئاً. أخيراً اقترحت ياسمينا أن يتناولوا طعام الفطور ما دامت الفرصة تسنح لهم. فمن يعلم ما قد يحدث؟ قالت بابتسامة بهيجة وكأن السجن هو فكرة سخيفة: «من الأفضل أن تكون المعدة ممتلئة إن تم سوقنا إلى السجن».

بعد تناول فطور متواضع عادوا كمجموعة واحدة إلى غرفة المشرف عليهم، حيث جلسوا بعض الوقت، محاولين إجراء اتصالات دولية عبر هاتف غرفته لإبلاغ عائلاتهم بأنهم لم يتعرضوا لأي أذى. لكن خطوط الهاتف كانت معطلة. في النهاية عادت المجموعة إلى المطعم وتناولت غداءً خفيفاً. لدى تقديم الشاي والحلوى لهم، اقتحم الجنود العراقيون الفندق. راح الجنود المهتاجون يصرون ضجيجاً صاخباً وهم يندفعون راكضين في أرجاء الأروقة الضيقة، ويقرعون أبواب غرف

النزلاء بأقدامهم أو بأعقاب البنادق الثقيلة.

راح نزلاء الفندق المرعوبون يصغون غير مصدقين حينما وجّه الرجال ذوو الوجوه المتوحشة الأسلحة إليهم وصرخوا قائلين إنهم سيصادرون الفندق لمصلحة الجنود العراقيين. أمروا قائلين: «ليخرج الجميع».

لحسن الحظ لم تكن ياسمينا قد أفرغت حقيبتها بالكامل الليلة الفائتة، لذا انتهزت الفرصة وهرعت إلى غرفتها. هربت حاملة مقتنياتها وتجمعت مع زملائها على الأرض المعشوشبة خارج الفندق. وهناك راحوا جميعاً يتكلمون في آن، محاولين تحديد أفضل طريقة للتصرف. قال المشرف على طاقم الرحلة إن العراقيين اجتاحوا البلد فقط لإجبار العائلة المالكة الكويتية على إعطاء صدام بعضاً من ثروات الكويت. ثم قال بثقة: «بمجرد أن يدفع آل الصباح المال سيسحب صدام قواته».

لم تنبس ياسمينا بنت شفة ولكنها تذكّرت مدى عناد صدام خلال الحرب مع إيران التي دامت ثماني سنوات. هو ليس برجل يستسلم بسهولة.

تشوّشت أفكار ياسمينا أكثر لأن الضجيج على الطرقات ازداد صخباً. إذ راح الكويتيون يندفعون وسط الشارع السكني الذي عادة ما يكون ساكناً، مسرعين إلى منازلهم للوصول إلى عائلاتهم، وفق ما افترضته ياسمينا. تذكّرت برنامجاً حوارياً في بيروت شاهده قبل بضعة أسابيع تذكّر فيه المذيع من زحمة السير في بيروت، وتكهّن بأن السيارات سرعان ما ستتمكن من الارتفاع عن الطرقات السريعة والتحليق نظير الطوافات.

تمنّت لو تظهر إحدى هذه السيارات الطائرة حتى تهرب من الكويت وتعود إلى لبنان. وفيما كانت ياسمينا غارقة في أحلام اليقظة وتحلم بطوافة تنقذها، صودف مرور والد إحدى صديقاتها الكويتيات بسيارته من أمام الفندق. تعرّف إلى ياسمينا وسط حشد النزلاء

فأوقف سيارته ثم مد رأسه من النافذة وقال لها: «ياسمينا هل سمعت الأخبار؟ دخل العراقيون إلى البلد. تعالي، تعالي وامكثي مع عائلتي إلى أن تُحل الأمور».

تمنّت ياسمينا لو يدعو جميع أصدقائها كي يذهبوا معها، ولكنها علمت أنها ستُنقِل على الرجل إن طلبت منه تحمل مسؤولية اثني عشر شخصاً. لذا شعرت ياسمينا بالارتياح وقالت لمشرفها: «سأذهب، وعندها لن تضطر إلى تدبير مأوى لي. سألتقي بكم حينما يفتح المطار من جديد».

وافق مشرفها وقال: «نعم هذا أفضل حل. سنراك في المطار».

رمت ياسمينا حقيبتها الصغيرة في السيارة وصعدت إلى المقعد الخلفي. اعتقدت أنها ستكون بأمن أكثر إن سكنت مع عائلة كويتية بارزة. وأيقنت أن زملاءها سيضطرون إلى الاعتماد على غرباء كي يساعدهم.

استقرت ياسمينا بامتنان في منزل صديقتها الكويتية. في بادئ الأمر شعرت بالأمان. وبعد بضعة أيام فحسب، بدا أن الكويت أخضعت بالكامل، رغم أن العراقيين لم يفرضوا بعد قوانين جديدة. آنذاك لم يشعر أغلب الناس بخطر جسدي شخصي. ولكن سرعان ما قبض العراقيون على مقاليد السلطة وبدأوا ينهبون كل الثروات التي وجدوها في المتاجر ومنازل الكويتيين الخاصة. تصرفوا كلصوص فراحوا يصادرون كل ما له قيمة: مجوهرات، ساعات ذهبية، أجهزة تلفاز، أثاث فاخر.

راحت ياسمينا وصديقتها تراقبان برعب الجنود الصاخبين وهم يدخلون إلى الحي ويسرقون كل ما يقدرّون على حمله أو تعبئته في شاحناتهم العسكرية. بعد أن أخذوا كل المال والمجوهرات وأجهزة التلفاز والأثاث الفاخر، بدأ هؤلاء الجنود الأجلاف يقبضون على الحيوانات الأليفة المحبوبة، وغالبيتها من سلالات باهظة الثمن،

وأخذوا يحشرون القطط الخائفة والكلاب النابحة والطيور الفريدة من نوعها في علب أو صناديق، ويهتفون لكل من أمكنه سماعهم بأنهم سيبيعون هذه الحيوانات الأليفة الباهظة الثمن مقابل مبالغ كبيرة في أسواق بغداد.

لم يصعب على المرء استيعاب الحافز الذي دفع الجنود إلى السرقة. فبعد حرب العراق الطويلة مع إيران، غرق جميع العراقيين تقريباً ما عدا عائلة صدام وأنسابه القبليين في الفقر. لقد ترك نظام صدام الوحشي فقراء العراق أكثر فقراً.

في الكويت، لم يشهد الجنود العراقيون العاديون مثل هذه الثروات. كان بعض الجنود المتحمسين يسكرون في الأرجاء وهم يضعون حول معاصمهم أربع أو خمس ساعات رولكس.

تمنّت ياسمينا لو يغادرون حتى يتسنّى لها العودة إلى بيروت، إلى والديها القلقين.

ربما لو أفرغ جنود صدام الكويت من كل شيء قيّم فيها، سيعودون إلى بغداد إلى حيث ينتمون. هذا ما أملته.

الفصل الثاني الأسر

العراق يعيد رسم خريطة الكويت بضمّها إليه واعتبارها المحافظة
التاسعة عشرة:

بغداد، العراق - أعادت هذه الأمة رسم خريطة العالم يوم الثلاثاء،
ماحية الكويت عن وجه الكرة الأرضية ومستعيدة محافظتها السابقة
التي ستكون أغنى محافظاتنا، إنها محافظة أقصى الجنوب. بمرسوم
من الرئيس صدام حسين، بذل العراق كل جهده لإزالة كل ما يرمز إلى
اسم الدولة التي كانت جارتها الجنوبية لأكثر من قرن من الزمن،
مسمى الكويت رسمياً بالمحافظة التاسعة عشرة. أمر المرسوم
نفسه بتغيير اسم العاصمة «مدينة الكويت» ليصبح «الكاظمة»، وهو
اسم عربي قديم للمنطقة.

صحيفة لوس أنجلوس تايمز

29 آب/أغسطس 1990

تخبّط الكويتيون في صدمتهم في أول أسابيع الاحتلال العراقي.
كانت الحكومة الكويتية قد هربت من البلاد في أول يوم للغزو. وراحت
تعمل من مدينة «الطائف» الجبلية، في السعودية. لقد تم التغلب على
الجيش الكويتي بسرعة. وتُرك للمدنيين أمر التعامل مع الجيش
العراقي العدواني من دون وجود خطط مُحكمة في أذهانهم.

الكويتيون بطبيعتهم ليسوا ذوي عقلية حربية. وأولئك الذين تُركوا
ليتعاملوا مع الجيش العراقي كانوا بأغلبهم مواطنين لدولة ثرية صغيرة

لم يعرفوا في حياتهم العنف. كان المواطن الكويتي العادي يُعنى بشؤونه الخاصة ويراكم الثروة، ولا يفكر كثيراً بالاضطرابات المتواترة التي غالباً ما تصيب باقي العالم العربي. على الأقل كان هذا رأي ياسمينا.

ولكن بعد الغزو تغير كل شيء. فالكويتيون الذين اعتبرتهم ياسمينا ذات مرة شعباً لئياً نظراً لامتلاكهم الثروات الطائلة، سرعان ما أثبتوا لها أنهم أصحاب عزم وقوة على الرغم من لطافتهم وعباءاتهم الجميلة. فقد هب الرجال الكويتيون نظير أسود غاضبة للدفاع عن بلادهم.

تنبّهت ياسمينا بعناية إلى نشاطات العائلة التي قدمت لها الملجأ. وسرعان ما لاحظت أن أفراد العائلة أصحاب رأي واحد وأنهم مستعدون للوقوف في وجه الغزاة بأي طريقة ممكنة. كان الابنان، وكلاهما في العشرينات من العمر، منخرطين بعمق في حركة المقاومة الكويتية الجديدة. واجه الشابان المقاتلين العراقيين بكل شجاعة، حتى حينما تم التغلب على الجيش الكويتي.

أما الجنود العراقيون، فبدوا مذهولين لدى اكتشافهم أن الكويتيين لا يرغبون بانضمام بلادهم إلى العراق. أُعيدت تسمية العاصمة الكويتية بالكاظمة وأعلنت المحافظة التاسعة عشرة من العراق، ولكن الكويتيين رفضوا هذا الادعاء ونظّموا مقاومة شجاعة. وولّد عناد الكويتيين في وجه الحكم الأجنبي رد فعل أشرس من قبل الجنود العراقيين.

بعد فترة وجيزة افترض العراقيون أن كل الشبان الكويتيين هم جزء من المقاومة، واستهدفوا كل الكويتيين الذين هم في عمر الشباب. وحينما بات السفر بحرية صعباً على الرجال الكويتيين، جند الرجال أخواتهم أو نسيباتهم لنقل الأسلحة والوثائق المهمة. في خلال الفترة الأولى، لم يشتهب العراقيون بالنساء كمقاتلات في حركة المقاومة، لذا لاقت الخطة نجاحاً باهراً، على الأقل في البداية.

وعلى الرغم من أن المقاومة الكويتية سيطرت على الوضع خلال الليل، إلا أنه عم الصمت في المدن الكويتية في ساعات النهار. ووسط رتابة الأيام المضجرة، سعى الجنود العراقيون إلى التفتيش عما يلهيهم. لم يتوفر كثير من وسائل الترفيه لأن الدولة تعرّضت بكاملها للتخريب، بما في ذلك مدن الملاهي، التي باتت مكدسة كأكوام من المعدن الملون في جميع أرجاء بغداد.

تخيّل الجنود العراقيون أن «الكويتيين الصامتين» الذين لم ينضموا إلى المقاومة قد يقدمون لهم دعوات للعشاء أو الحفلات، ولكنهم كانوا مخطئين. تعامل بعض الفلسطينيين وغيرهم من الجنسيات الأخرى، الذين يعملون في الإمارة مع العراقيين، إلا أن الكويتيين كانوا يمقتون الغزاة. وكان العراقيون الضجرون يشعرون بالمهانة، فيُظهرون مزاجاً حاداً ينفجر في وجه الكويتيين حينما يرفضون عروض صداقاتهم.

أمسى الجنود العراقيون مع مرور الأيام أكثر إيذاءً. وكونهم بعيدين عن الديار، فعلوا ما قام بعد كثير من الجنود المحاربين منذ فجر الحضارة البشرية. بدأوا يغتصبون النساء.

تناهى إلى سمع ياسمينا من حيران كويتيين أخبار بأن الجنود العراقيين يهاجمون النساء في منازلهن. وراحت ياسمينا وسواها من سكان المنزل يصغون بقلق إلى الأحاديث التي تغيد بأن الجنود يدأبون على عادة روتينية، حيث يقتحمون أبواب المنازل، ويكبلون الرجال بالحبال ويضعونهم في أمكنة منفصلة. ثم يجبرون النساء على التعري ويتناوبون على اغتصاب أي أنثى، بل وكل الإناث اللواتي تتراوح أعمارهن بين الثانية عشرة والأربعين سنة... أو حتى خمسين سنة إن كانت هذه المرأة الأكبر سناً تحافظ على مظهر شبابي.

أفادت قصص أخرى أن الجنود أحياناً يعاينون النساء عند مرورهن على الحواجز في الطرقات. فإن وجدوا امرأة أو فتاة ملفتة جسدياً، هدّدوا الرجال الكويتيين بالسلاح وأخذوا نساءهم ليقوموا باغتصابهن.

اندلعت كثير من المواجهات بالأسلحة عند حواجز الطرقات حينما راح الرجال الكويتيون المسلحون يدافعون عن نساءهم. وبسبب هذه القصص، لم تعترض نساء المنزل حينما طلب منهن رب المنزل الاختباء إن سمعن أصواتاً ذكورية غير معروفة.

* * *

بعد غزو العراق، تعرّض الكويتيون للنهب والاعتصاب والتعذيب والإعدام. واستناداً إلى عدد من المقابلات مع اللاجئين، وجدنا صورة مروّعة من الاعتقالات الواسعة، والتعذيب عند التحقيق، والإعدامات بالجملة، والاعتصابات الجماعية، وجرائم القتل الخارجة عن القانون.

منظمة العفو الدولية

أيلول/سبتمبر 1990

* * *

بعد بضعة أسابيع، تراجعت أخبار الاعتداءات الجنسية. فاعتقد الجميع أن الأسوأ قد انقضى حينما سمعوا تقريراً عارياً عن الصحة مفاده أن بغداد أمرت بإيقاف هذه الأعمال الخارجة عن القانون. والحقيقة أن الجنود العراقيين ابتكروا مخططاً مختلفاً للقبض على النساء بهدف اغتصابهن.

بعد أن عاشت ياسمينا بضعة أسابيع مع مضيغها الكويتيين، سألتها أحد الابنين في المنزل إن كان بإمكانها أن توصل بالسيارة حزمة من المناشير إلى ناحية أخرى من المدينة. فوافقت، رغبة منها في دعم العائلة التي استقبلتها في منزلها. أدركت أن المقاومة باتت أقوى، وأن العراقيين يترصدون الأسلحة المخبأة وأدوات المقاومة. ولكن في الوقت عينه اعتقدت أن تركيزهم محصور بالرجال فقط. قبل يوم واحد فحسب، عبّرت ياسمينا وصديقها الكويتي حاجزاً في الطريق، فما كان من العراقيين إلا أن ابتسموا ولوّحوا لهما إيذاناً

بالمرور.

عندما كانت ياسمينا ترتدي ملابسها لتنفيذ المهمة، غمرتها الحماسة. أخيراً سيتسنى لها القيام بشيء ذي قيمة.

* * *

بعد ساعات عدة، فرحت ياسمينا بالقيادة وحدها، وشعرت أنها تقريباً طبيعية وحررة وسعيدة. كانت تدندن أغنية شهيرة هي (يا حباب) للمغنية اللبنانية الصاعدة نجوى كرم. لطالما رفعت الموسيقى معنويات ياسمينا، وهذا اليوم لم تختلف الحال. كما أنها كانت مسرورة لمساعدة أصدقائها في قضية المقاومة المهمة.

لم تكن تدري البتة أن الجنود العراقيين في ذاك اليوم بالتحديد كانوا ينقذون أمراً جديداً صدر من بغداد. تبلّغت القيادة العراقية في الكويت بأن كل البالغين الذين يعيشون في الكويت، بغض النظر عن جنسياتهم أو أعمارهم أو جنسهم، يُشتبه بقيامهم بأعمال إجرامية. وبالتالي ينبغي توقيف الجميع وتفتيش ألياتهم. وليس ثمة استثناءات.

واصلت ياسمينا طريقها بكل ثقة جهلاً منها بالأوامر الجديدة، ولم تشعر بأي خطر. كانت تعرف كل الحواجز في المنطقة، وحضرت وثائقها لتبرزها عند الطلب، رغم أنها شكّت باحتمال احتياجها إليها.

تغيّر مزاجها بسرعة حينما وصلت إلى أول حاجز في شارع الهلال، وهو أحد أهم شوارع العاصمة. ابتسمت في وجه الجندي الشاب الذي وقف قرب نافذة سيارتها. لم يرد عليها الجندي بالابتسام. إذ لم يحركه شبابها ولا جمالها، فبدت تعابير وجهه جامدة حينما راح ينظر إليها ببرودة وحدة. بعد التحديق إليها بشكل عام بضع لحظات، أمرها بالترجّل من السيارة والابتعاد عنها، حتى يقوموا بتفتيشها.

تداعى كل شيء بسرعة. حيث هاجم ثلاثة جنود السيارة وكأنها عدوهم اللدود، فمزّقوا الجلد الذي يغطي المقعد باستخدام آلة حادة.

راحوا يعملون نظير الرجال الآليين، فانتقلوا لتفحص الجزء السفلي من السيارة بواسطة مرآة مثبتة على عصا طويلة أشبه بالقصبة. ثم رفعوا الغطاء الأمامي للسيارة، وتفحصوا محركها وكأنهم لم يروا نظيراً له من قبل.

تحدّر جسم ياسمينا جراء الخوف، لأنها عرفت أن الأخوين أخفيا المناشير في صندوق السيارة. تم إلصاق هذه المناشير بمؤخر عشرة إطارات صور كبيرة، تُظهر كل منها معلماً بارزاً في لندن. بعثر الجنود أغراضاً أخرى في صندوق السيارة، إذ وُضعت فيه لتشتيت انتباه أي جندي يقوم بتفتيشه. كان هناك كثير من الدمى والحيوانات المحشوة، فمزّقوها كلها وبشكل سريع بواسطة سكين حاد. احتوى صندوق السيارة أيضاً على حقيبة تحوي ملابس نسائية، فقاموا بتفتيشها ثم رموها على جانب الطريق بكل فظاظة. في البدء تجاهل الجنود إطارات الصور إلى أن لاحظ جندي منهم حاد النظر بأن الإطارات تفتقر إلى زجاج، وأن صور معالم لندن نافرة من الإطارات.

حبست ياسمينا أنفاسها حين مزّق الجندي الإطار وفتحته فتساقطت منه المناشير. حدّقت ياسمينا بلا حول ولا قوة إلى الأوراق المتطايرة، وراحت تهمس لنفسها: «انتهى أمري، انتهى أمري، ساعدني يا رب. انتهى أمري».

على الرغم من خوفها، حافظت على رباطة جأشها وهي تظهر للجنود أوراق هويتها اللبنانية. قالت: «لست كويتية، وليس بيني وبينكم أنتم العراقيين أي خلاف. لم عساي أخرج أي قانون؟» أشارت إلى السيارة وقالت: «البارحة فقط وجدت هذه السيارة. وكان المفتاح فيها وأبوابها مفتوحة. انتظرت مدة ساعة ولم يطالب بها أحد». تعمّدت النظر في وجه الرجل الأكبر سناً بينهم، الذي تحمل بزته أكبر عدد من الأوسمة، وقالت له: «تعلم أن كثيراً من الكويتيين الحمقى يتركون سياراتهم. لقد أخذت سيارة مهجورة. لم أبحث حتى في صندوق السيارة، صدّقني».

رمقها الجندي الأكبر سناً بنظرة حادة محاولاً أن يتبين إن كانت تقول الحقيقة. أيقن أن ما قالته يأسميننا عن الكويتيين وسياراتهم دقيق. فُبْعِد غزو البلد، أعلن العراقيون أن الكويت لم يعد لها وجود. وبالتالي كل الوثائق وأوراق التسجيل الكويتية لم تعد صالحة، وكل أوراق تسجيل الآليات الكويتية لم تعد صالحة. يجدر بالجميع أن يسجّلوا ممتلكاتهم كمواطنين عراقيين، لأنه لم يعد هناك ما يسمى بالمواطن الكويتي. وفقاً للعراقيين، اختفى الكويتيون عن وجه الأرض، نظير الديناصورات.

ولكن هذا القانون أثار غضب الكويتيين. هم كويتيون وفخورون بذلك. وما كان ليتخلّوا بكل سهولة عن أوراق هوياتهم وأوراق تسجيلهم الكويتية. وعضواً عن الخضوع للأوامر العراقية، خبّأوا آلياتهم، مصمّمين على عدم قيادتها إلى أن يُطرد العراقيون من بلادهم. وفي حال كانوا يعودون سياراتهم وتفاجأوا بوجود حاجز أمامهم، يتوقفون ويتركون آلياتهم ويسبّرون عوضاً عن القيادة. وقد عمد بعض الكويتيين إلى حرق آلياتهم، قائلين إنهم يفضلون القيام بذلك على أن يخضعوا للإملاءات العراقية. لقد توافقوا على أن المشي مفيد لصحتهم.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر IKitab

سرعان ما أدرك الجنود العراقيون أن الكويتي العادي يفوق المواطن العراقي العادي جرأة. إذ إنه منذ أمد طويل قام صدام بكسر معنويات العراقيين. بالطبع، حدث ذلك بعد أن تعلّم العراقيون، بشقّ الأنفس، كيف يتعامل صدام حسين مع العصيان.

ما زال الكويتيون يملكون معنويات عالية وكرامة لا تُمس.

لم تخشَ يأسميننا أن يعرّض انكشاف أمرها مضيغها الكويتيين للخطر. إذ لا يمكن أن تُعرف السيارة إلى أي عائلة تعود. كانت تعلم أن المقاومة تستخدم سيارات هجرها فلسطينيون أو هنود أو أصحاب

جنسيات أخرى فروا من البلد، وذلك كي يتعدّر ربط السيارات بأي عائلة كويتية لا تزال تعيش في الكويت.

شعرت ياسمينا ببارقة أمل بسيطة. لعل الجنود يصدقون كذبتها بأنها وجدت السيارة وقرّرت أخذها. أنّى لها معرفة أن المقاومة دسّت بعض مناشيرها في إطارات الصور؟ علمت أنه لم يُدمغ أي تاريخ على المناشير، لذا يتعدّر تحديد توقيت نقلها.

عجز الجندي الأكبر سنّاً عن حسم الأمر. لو أن اللحظة لم تكن حساسة جداً، لكانت ياسمينا لحظت فكاهة في تردّده. زمّ شفّتيه وحدق إلى ياسمينا، ثم تقاطعت نظراتهما مرتين أو ثلاث مرات، ولم تعرف السبب. ولكن غلب حذره على رغبته بإطلاق سراحها، فأشار أخيراً إلى الجنود بتكبير يديها. ثم دُفعت إلى آلية عسكرية حيث جلست وأصغت إلى أربعة جنود يتجادلون في المكان الذي سيتم اقتيادها إليه.

تجادل الجنود وقتاً قصيراً إلى أن حدّد الرجل الأصغر سنّاً وجهة مستقبلها. بدل تسليمها إلى السجن المخصّص لعناصر المقاومة، قال الجندي إنه يعرف سجناً خاصاً مناسباً لها. بعد وقفة طويلة، وافق الجندي الأكبر سنّاً على أن يأخذها الجندي الأصغر. حدّقت ياسمينا بالرجل، وعيناها تتوسلانه، ولكن الجندي الأكبر سنّاً أشاح بوجهه لاستجواب سائق آخر.

تحدّد مصير ياسمينا منذ تلك اللحظة. كانت مخدّرة لدرجة أنها عجزت عن الاحتجاج أكثر حينما أمرها الجندي بالابتعاد عن تلك الآلية واللحاق به إلى آلية أخرى. كانت ياسمينا تفكّر، وتذكّرت أنها سمعت في الآونة الأخيرة بأن الرجال الكويتيين الذين يُضبطون وهم ينقلون شيئاً للمتمردين يتعرّضون للتعذيب قبل الإعدام. هل يتم سوقها لتعرض للتعذيب والإعدام؟

شعرت بقلة حيلة لم تعرفها في حياتها قط. فقد استحال إنقاذها

لأن أحداً لا يعرف ما يحل بها.

ارتاحت لأن الجندي لم يعصب عينيها، وبالتالي كانت تراقب كل ما هو حولها. كانت الأفكار تتزاحم في رأسها، ويعمل ذهنها بسرعة شديدة نظير المروحة الدائرة بقوة. لعل فرصة ما تسنح أمامها للهرب، وإن فعلت، احتاجت إلى معرفة الاتجاه الذي ستركض فيه. سرعان ما التف الجندي إلى شارع جانبي وتوجّه إلى منطقة غير مألوفة من المدينة. في ذلك الوقت، تأكدت ياسمينا أنها تؤخذ للتعذيب ثم الإعدام. أو لعلمهم يعدمون السجناء في ضواحي المدينة، ربما في الصحراء؟ ولكن قبل مغادرتهما المدينة، توقف الجندي عند مبنى لونه أبيض يصعب تصنيفه وإنما بدا جلياً أنه سجن داخل حي.

أمرت ياسمينا بالترجل من الآلية ودخول المبنى، فامتثلت للأمر. وفيما كانت تتقدم صوب مدخل السجن، كان يغادره جنديان عراقيان. استغرقة مدة من الزمن حتى أيقنت أن الرجلين يجران شابة عربية من شعرها، وهي تنتحب.

شهقت ياسمينا، ودب الوهن في كل جسمها إلى أن خارت رجلاها تماماً لدرجة أنه كاد يستحيل عليها الوقوف. جمدت في محاولة منها لاستجماع قوتها وهي تحاول فهم ما يجري مع الشابة، فصرخ فيها حارسها ودفعها إلى داخل المبنى. وسرعان ما سمعت ياسمينا صوت إطلاق نار، فعلمت أنها تُساق إلى سجن تُنفذ فيه فعلاً أحكام الإعدام.

عند إدراكها لهذا الواقع تمتّ لو تفرّخ ذراعاها جناحين فيتسنى لها التحليق فوق المبنى والطيران نظير طائر بجناحين قويين بعيداً عن أصوات الموت تلك، ولكن جسدها البشري خانها.

حذّرها حارسها المتجهم قائلاً إن الفتيات اللواتي لا يتعاونن يُقضى عليهن. استخدم ذلك الرجل المهذّب إصبعه ومرّره على رقبتة إشارة الذبح. ظهر حارس ثانٍ نظر إلى ياسمينا وارتسمت على وجهه

ابتسامه عريضة، ثم هسهس نظير أفعى مصلصلة، فأعادها بالذاكرة إلى واقعة صادمة في معرض في أحد شوارع بومباي حُملت فيها أفعى مصلصلة حقيقية باستهتار ودُفعت بمحاذاة وجهها. حينما مرت الأفعى بقربها على بُعد إنشآت قليلة، ازداد حجم رأسها وفتحت فمها الغائر وأصدرت فحيحاً عالياً، فكاد يُغمى على ياسمينا لهول المنظر. والآن تسبّب لها هذا الرجل الذي يهسهس بصدمة مماثلة. فوقفت دون حراك إلى أن دفعته يد خفية إلى زنزانة فارغة، وأمرها رجل ذو صوت أجشّ باقتضاب قائلاً: «لا تتحركي».

وقفت في مكانها وعيناها البنيتان يتلأأ فيهما الدمع، وشعرها يلمع، وتقاسيم وجهها جامدة من الرعب. يوجد حوالي عشرة رجال يتحركون جيئةً وذهاباً، وجميعهم ينظرون إليها بعيون متيقظة، ورؤوسهم تتحرك وكأنهم رجال آليون، يدقّون بكل إنش من جسمها، من رأسها إلى أخمص قدميها، بعيون جاحظة تطيل النظر إلى منطقة الصدر.

لأول مرة في حياتها شعرت أن صدرها هو العدو الذي يهدّد حياتها. لقد ورثت ياسمينا عن أمها الصدر العارم، والآن بات هذا الصدر الموروث يحث رجالاً بالغين على تخيل ما يمكن لهم فعله إن تسنى لهم إمساكه بأيديهم أو استخدامه وسادة لرؤوسهم. بدا مشهد الرجال المتلهفين الذين يتآمرون للاعتداء على جسدها أشبه بمشاهدة فيلم إباحي. بالكاد أمكنها التفكير، على الرغم من أن رأسها استوعب فكرة أنها وقعت في أسوأ محنة في حياتها.

سُمع صوت خافت وإنما عميق، فصمت الرجال. وفجأة ظهر أمامها رجل عراقي طويل القامة، له هيئة القيادي الحازم، ونظرته الجامدة مغايرة تماماً لنظرات الرجال الآخرين. بعد بضع لحظات، هز برأسه وقال: «هذه لي». فتفرّق الرجال الآخرون، بعد أن تبدّد اهتمامهم بامرأة أيقنوا أنهم لن يملكوها أبداً. فقد قال قائدهم كلمته.

سار الرجل الذي يسمونه الكابتن في الرواق الطويل، غائباً عن

بصر ياسميناء؁ دون أن يتكلم معها مباشرة على الإطلاق.

الفصل الثالث

مستعبدة جنسياً

بعد عشر ساعات من التعرض للإذلال والاعتصاب المتواصل، جلست ياسمينا دون حراك، تحدق إلى العدم، وجسدها مغطى ببطانية بنية قذرة. لقد تخذّر جسدها جراء الاعتداء، فلم تجرؤ على التحرك. راح كل جسمها يصرخ من الألم، وخصوصاً منطقتها الحساسة. وظل الدم يسيل من بين رجليها وقتاً طويلاً عقب مغادرة الكابتن، ولخشيتها من أن يعاود الدم السيّان، جلست دون حركة. وعلى الرغم من أن الجنود مروا من أمامها، أكّدت نظراتهم الخبيثة أنهم لا يبالون بمحنتها. فهذا السجن يحكمه رجال متحجّرو القلوب وليس هناك من يقدم المساعدة أو فرصة الهرب.

اشمأزت ياسمينا من إقدام رجل مسلم على اغتصابها، إذ يفترض بالرجال المسلمين حماية المسلمات، أو هكذا تعلّمت منذ الطفولة. كحال أغلب النساء المسلمات، ومنذ لحظة ولادتها، عاشت ياسمينا وسط دائرة محميّة. ولم تعرف كثيراً عن الرجال وشهواتهم الجنسية، لأنها أبعّدت عن المسائل الجنسية، وهو موضوع يُمنع التطرق إليه أمام النساء غير المتزوجات. قبل سعيها للحصول على وظيفة مضيّفة طيران، نادراً ما كانت تخرج من دائرتها العائلية. حتى حينما بدأت تسافر بحكم وظيفتها، كانت زميلات المضيفات يعتنين ببعضهن بعض. ونادراً ما كانت ياسمينا وحدها.

والآن هي وحدها بحق للمرة الأولى في حياتها. ولكن مدة الاستراحة ستكون قصيرة، إذ سرعان ما رأت مغتصبها يتقدم ناحية

زنانتها.

جفلت حينما رأيت تعابير وجهه اللامبالية. فبحسب تجربتها السابقة أدركت أن الشر في ذهنه لا يرى في عينيه أو تعابير وجهه. ولكن يبدو جلياً أنه أتى الآن في مهمة. كان يحمل جهازاً إلكترونياً بيد وبالأخرى راح يسوي كرسياً. بدا رجلاً تعوزه البراعة، فتح قفل الباب، تعثر بأرضية الزنزانة، فارتطم الكرسي بالقضبان المعدنية. وضعه في إحدى زوايا زنانتها الصغيرة، ووضع جهاز الراديو/المسجلة على الأرض، ثم جر كرسياً خشبياً بلا ظهر من الزاوية، لم تكن ياسمينا قد لاحظته قبلاً. جلس على الكرسي ووضع قدميه على الكرسي الخالي من الظهر. راح ينفخ نتيجة شعوره بالتعب ولكن نيته ظلت غير واضحة. كحال المساء الفائت، بدا رجلاً لم تؤثر فيه فعلته الشنعاء، وهي اغتصاب فتاة عذراء. حدق إليها لحظات طوال ثم سألها: «هل استمتعت الليلة الفائتة؟».

غصت ياسمينا ولم تجب.

تكلف الابتسام وقال: «أعلم أنك استمتعت، يمكنك الاعتراف

بذلك».

جلست ياسمينا بصمت ولكن فرائصها كانت ترتعد خوفاً، تنتظر من ذاك الرجل الذي تجهله اعتداءً جنسياً آخر.

سألها: «هل تحتاجين إلى شيء؟» ثم جال بنظره في أرجاء الزنزانة ماسحاً موجوداتها، وفق ما افترضته ياسمينا.

كان فمها جافاً جداً فوجدت صعوبة في التكلّم، ثم نطقت أخيراً بكلمتين مهمتين: «طعام وشراب».

تفاجأ المغتصب، وأدرك لأول مرة أنها تركت ساعات عدّة دون طعام وماء. فنادى رجاله، وأمرهم بجلب الطعام والماء ودلوين، واحد للاغتسال والثاني لتستخدمه مرحاضاً.

قال: «سيأتيك رجالي بالطعام والشراب. كُلّي شيئاً واغتسلي». ثم وقف وأضاف: «سأعود».

ارتسمت على وجهه الابتسامة المخيفة ثانية. «سنستمتع جداً بعد قليل. سنستمتع حتى أكثر من الليلة الفائتة».

كانت فرائص ياسمينا ترتعد خشية مما قد ينتظرها، إلا أنها ابتلعت بصعوبة بضع لقمات من البيض المسلوق غير المملح وكسرة من الخبز. شربت كوباً من عصير التفاح الفاتر قبل أن تقضي حاجتها في الدلو. حاولت أن تغسل جسمها، ولكن ألمها الشديد لم يسمح لها إلا بمسح جسمها بقطعة قماش رطبة.

وفى الكابتن بوعد العودة. جلس بعض الوقت، وتصرف وكأنه أتى للقيام بزيارة ودية وتكلم بصوت خافت حول أمور تافهة لدرجة أنه تدمّر من صعوبة إيجاد مصبغة جيدة في العاصمة الكويتية من أجل تنظيف برّته. انزعج لأن عمال المصابغ هربوا من البلد.

جلست ياسمينا، التي لا تزال مصعوقة بفعل صدمة تعرضها للاغتصاب، دون كلام، مجبرة نفسها على إبداء اهتمام بكلامه، متسائلة إن كان الكابتن يحاول إقناع نفسه بأن قسوته أمر طبيعي.

سرعان ما بات جاهزاً للاستمتاع، كما أسماه، ومن جديد أمر ياسمينا بالتعري. أخبرها عن نواياه وهي تخلع ببطء قميصها وتنورتها الممزّقين. قال: «شاهدت فيلماً أميركياً صباح هذا اليوم. أريد منك أن تقومي بأمر مميّز شاهدته».

كانت ياسمينا ترتعد بشدة لدرجة أن أسنانها أخذت تصطك.

نقل مغتصبها الكرسي إلى وراء جدار ممتد يخبي زاوية صغيرة من الزنزانة. افترضت ياسمينا أن هذا الجدار موجود لتوفير خصوصية للسجناء كي يستخدموا المراحيض أو يستحموا.

أملى عليها الكابتن ما ينبغي فعله بدقة متناهية. فشرح لها

بشأن جهاز الراديو/المسجلة: «أحضرت شريط موسيقا لك خصيصاً.
سنسمع الموسيقا وخلال ذلك ستفعلين ما أطلبه منك».

سرعان ما فهمت ياسمينا أنه يفترض بها أن تلعب دور راقصة
التعري، وهو أمر لم تعرف عنه شيئاً. وقفت عارية ترتجف، وغطت
منطقتها الحساسة بيديها لا إرادياً، وما لبثت أن انفجرت بالبكاء. ثم
اعترضت قائلة: «لا أستطيع. لا أستطيع. لا أعرف ما الذي تريده».

زمّ شفّتيه. «سوف تمتعيني أو تمتّعين كل الجنود الذين تحت
إمرتي. الخيار لك يا عزيزتي».

هزت برأسها ولكنها لم تتكلم، إذ أربكتها فكرة اضطرارها لتحمل
عذاب تفادياً لعذاب أكبر. إما أن يغتصبها رجل واحد وإما أن يغتصبها
عشرات من الرجال. إذ ذاك فهمت تماماً الوضع. عليها إرضاء مغتصبها
وإلا ستُجبر على تحمل اغتصاب كثير من الرجال.

خلع الكابتن سريعاً ملابسه وجلس على الكرسي.

تعمّدت تفادي النظر إلى جسده.

ضغط على زر في آلة التسجيل فصدح صوت الموسيقا. أشار لها
بالصعود فوّه وقال: «افعلي كما أمرك».

شعرت ياسمينا بأن جسدها متخشّب تخشّب الكرسي، ولكنها
تذكرت تهديده بدفع رجاله إلى اغتصابها، فحاولت دون نجاح أن تمتثل
لطلبه. لم تقوَ على تحمل رؤية وجهه المتلهف يترقب جسدها لذا
أغمضت عينيها. شعرت بثدييها الثقيلين يتأرجحان، وأحست بمهانة لم
تعرفها أي امرأة قط. أظهرت فشلاً ذريعاً كراقصة لأنها حاولت أن تبقى
جسدها العاري بعيداً عن مغتصبها قدر الإمكان. بدأ الكابتن يئن مشيراً
إلى أنه يريد معاشرتها مجدداً. جذبها بقوة إلى الأسفل واغتصبها من
جديد. ولأنها ما زالت تتألم من الليلة الفائتة راحت تبكي، فحفزته
دموعها على اغتصابها بعنف أكثر.

مر الوقت ببطء. وبعد حوالي ساعتين، غادر أخيراً. غادر في مزاج جيد واعدأ بالعودة قريباً. وقُبيل مغادرته ربّت ثديها وقال: «كانت هذه أفضل مجامعة».

استلقت ياسمينا على الأرض منهكة وعارية، والدموع تسيل من عينيها وتنهمر على خديها وتدخل إلى أذنيها. وحينما اعتقدت أنها تمر بأسوأ تجربة في الحياة، سمعت صرخات مكروبة جداً لم تسمع لها مثيلاً من قبل. بدت الصرخات التي تسمعها أعلى من صرخات أختها الصغرى حينما دسّت يدها في قدر من الماء المغلي فأصيبت بحروق خطيرة، ما استدعى نقلها إلى المستشفى.

ما الذي يحصل؟ هل يتم تعذيب فتاة حتى الموت؟

ظلت الفتاة التعسة الحظ تصرخ إلى أن أقحمت ياسمينا سبابتيها في أذنيها، محاولة أن تسكت هذا الصوت ولكن دون جدوى.

* * *

في اليوم التالي أخبر الكابتن ياسمينا بأنها واحدة من بين خمس عشرة فتاة محتجزات في السجن. وكلهن موجودات لخدمة الجنود. قال: «نحن نستحق ذلك. نحن جنود نخاطر بحياتنا. وزوجاتنا وصديقاتنا الحميمات لسن معنا. نحن بحاجة إلى النساء وإلا فلن نتمكّن من تأدية واجباتنا كجنود. إن لم يحظ الرجال بالنساء، ستضعف همّتهم على القتال. هذا أمر بديهي لكل من يملك قدراً أدنى من الذكاء».

تجاهلت ياسمينا كلامه الدال على جهل ولكنها استجمعت شجاعته وسألته: «من الفتاة التي كانت تصرخ؟ ظلت تصرخ لأكثر من ساعة».

ارتسمت على وجه الكابتن نظرة خالية من التعبير ثواني معدودات ثم قال: «آه تلك الفتاة. إنها فتاة كويتية. اسمها لانا أو ما شابه. ليست ذكية. تواصل المقاومة للتمسك بشيء فقدته أصلاً».

ابتسم، معتبراً نفسه هزلياً، على ما افترضته ياسمينا.

قالت دونما تفكير: «هل يمكن أن أزورها؟».

حدّق الكابتن إليها دون كلام، ثم فاجأها بهزّ كتفيه. «لمَ لا؟ أنت فتاة ذكية. ربما بوسعك إقناعها بالتعاون. فمقاومتها الصاخبة جداً تزعجني. إن لم تتنازل عن عنادها، سأمر بقتلها رمياً بالرصاص».

سرت القشعريرة في بدن ياسمينا. كان مغتصبها مقتنعاً جداً بحق الرجال بخطف النساء واغتصابهن إلى درجة أنه يغضب حينما لا تعانق الضحية مغتصبها. في تلك اللحظة أيقنت ياسمينا أنها مجبرة على الخضوع وإلا سيأمر بقتلها رمياً بالرصاص هي الأخرى. وفي الوقت الذي ستبدي فيه تعاونها، ستحاول التفوق عليه دهاء. وعندها ستكون امرأة مطيعة تستسلم لاعتداءاته الجنسية.

عندما كان يتقدم لتلمّس جسدها كانت تجبر نفسها على عدم التحرك، وتتقبل ما يأتيها. جذب ثوبها بقوة وأنزله إلى خصرها وأمسك ثديها بعنف. راحت تراقبه باشمئزاز حينما فتح شفثيه المطاطتين وراح يمرر لسانه على جسدها. نسيت قرارها بالتعاون وابتعدت عنه لاشعورياً، ولكن الغضب لمع في عينيه، ولأول مرة أظهر جانبه الشرس. دون أي كلمة تحذيرية فتح فمه وعض بقوة، كل ثدي مرتين، ثم راح يلعقهما وكأنه يتصور جوعاً والعشاء قد حضر. ثمة ما أنبأ ياسمينا بأنها على مفترق طرق مع الكابتن، لذا أخذت نفساً عميقاً وتقبّلت عضاته، حتى أنها رسمت على وجهها ابتسامة قسراً، وكأنها ما لبثت طيلة حياتها تنتظر هذا الرجل كي يداعب ثديها.

واصل الكابتن المداعبة وواصلت الابتسام. راحت تتخيّل بوجل هذا الرجل وهو يقضم كامل جسدها، مبتلعاً لحمها قطعة تلو أخرى. ولكنه لم يفعل.

الفصل الرابع

لانا

دُهلِت ياسمينا حينما أتى أحد الحراس إلى زنانتها بعد يومين. قال إنه سيرافقها كي تزور إحدى السجينات. تحمّست ياسمينا على الفور. فمِنذِ اختُطفت، لم تحدّث إلا الرجل الذي يغتصبها بوحشية. علمت إذ ذاك أن مغتصبها سيُفي بوعده، ويسمح لها بزيارة الفتاة الكويتية.

في وقت سابق من صباح ذلك اليوم كانت قد اغتسلت باستخدام اسفنجة، وارتدت عباءة مميزة أمرها الكابتن بارتدائها، فكانت جاهزة للخروج فوراً من زنانتها التي تبعث على الاختناق.

أمرها الحارس المرافق لها بفظاظة قائلاً: «لا تنظري». امتثلت لأمره، علماً منها أنه ينبغي لها إطاعة الأوامر، وإلا سيرفض الكابتن كل طلباتها. حدّقت إلى الأمام مباشرة دون التجرؤ على النظر إلى السجينات الأخريات، بالرغم من توقعها للتعرّف إلى كل النساء، وسماع قصصهن، والأهم من ذلك، مواساتهن وتلقي المواساة في المقابل. أيقنت أن كل الأسيرات الأخريات قد يكتسبن القوة إن تسنى لهن فقط قول بضع كلمات لبعضهن لبعض. ولكن هذا لن يحدث، على الأقل ليس الآن.

بعد المرور على بضع زنازين، توقف حارسها أمام باب زنانية. حدقت ياسمينا بفضول إلى الزنانية، رغبة منها أن تلتقي لانا أخيراً، لانا التي سمعت صرخاتها آنفاً. لم ترَ إلا شخصاً صغير البنية نائماً على حصير، وكامل جسمه مخبأ تحت بطانية وسخة. «لا بد أنها الفتاة لانا»،

قالت ياسمينا في سرّها.

وسرعان ما احتُجرت ياسمينا داخل الزنزانة مع السجينة النائمة.
قال الحارس: «سأعود بعد ساعة».

لم تلاحظ أي حركة تحت البطانية. أملت ياسمينا ألا تكون الفتاة
ميتة، إذ إن صرخاتها التي تغطر القلب أثناء الليلة الغائبة أقنعت
ياسمينا بأنها تتعرض للقتل. فصرخات لانا تختلف عن صرخات أي من
الفتيات الأخريات. حيث أن رعب لانا الفائق يقبع ضمن فئة خاصة به.
تكلمت ياسمينا بعذوبة قائلة: «لانا. أنا ياسمينا. أتيت لزيارتك».
لم تصدر أي حركة.

«لانا»

أزاحت البطانية جانباً وظهر وجه صغير ورقيق. لم تقل الفتاة أي
كلمة، لكنها طرفت بعينيها، بعد أن أربكتها رؤية زائرة غير متوقّعة.
«لا بأس يا لانا. لديّ إذن بزيارتك». طرفت بعينيها ثانية.

على الرغم من أن لانا بحاجة إلى الاستحمام، لكن الأوساخ التي
تراكمت على وجهها لم تحد من جمالها. تجلّى لياسمينا على الفور أن
لانا أجمل فتاة رأتها في حياتها، فكل ملامح وجهها خارقة الجمال.
عيناها الكبيرتان الداكنتان لوزيتا الشكل ومفعمتان بالتعبير، والحاجبان
السوداوان الرائعان أشبه بجناحين مثاليين، أنفها صغير وشففتها
الورديتان مكتنزتان، تتمتع ببشرة فاتحة اللون وشعر أسود ناعم. لو أن
لانا كانت تعيش في أميركا لجذبها أحدهم إلى هوليوود حيث
ستمسي نجمة سينمائية، فتنافس على الأرحح على لقب أجمل فتاة
في العالم.

وقفت ياسمينا بهدوء دون كلام. فلانا تتمتع بجمال خارق لدرجة
أن المرء لا يقدر أن يشيح بعينه عن وجهها. شعرت ياسمينا أنها فتاة
عادية مقارنة بها، برغم يقينها أن أغلب الناس يجدونها جذابة.

سألت لانا بصوت هادئ فيه غصّة: «من أنت؟».

«أنا ياسميناً، أنا أيضاً سجينه الكابتن».

تمت لانا بحزن: «آه. الزمي الحذر. الزمي الحذر. سبق لذك الكابتن أن اختطف فتاتين كويتيتين، وبعد بضعة أيام أعدمهما».

شحب لون ياسميناً ولكنها استعادت رباطة جأشها. لم تتفاجأ، لأنها عرفت من قبل أن مغتصبها رجل خطر. فخلف ذاك الوجه الهادئ والصوت الناعم يخبي جداراً من العدائية. بعد أسبوع فقط من اغتصاب الكابتن المتكرّر لها، أمكنها تخيل إقدامه على اغتصاب فتيات أخريات ببرودة تمكّنه من إصدار أمر بإعدامهن بعد بضعة أيام من اغتصابهن.

«أنت محقّة يا لانا. ينبغي على الجميع التزام الحذر في هذا

المكان».

جلست ياسميناً وسردت على لانا جانباً من رحلتها المشؤومة إلى السجن. فراحت لانا تصغي، فرحةً بوجود شخص يقربها غير مغتصبها المتوحّش.

في نهاية قصتها المأساوية سألتها ياسميناً: «ماذا عنك يا لانا؟ كيف وصلت إلى هذا المكان؟».

تنهّدت لانا. «المفترض أن أكون في لندن اليوم. بقيت في الكويت يوم الغزو العراقي لأن أختي الصغرى مرضت قبل أسبوع، في اليوم نفسه الذي كان يفترض أن تسافر فيه عائلتي لقضاء إجازة».

ابتسمت ياسميناً وهزت برأسها. عرفت أن من عادة كثير من الكويتيين السفر إلى الخارج لقضاء العطلات في شهري تموز/يوليو و آب/أغسطس، تاركين إمارتهم الشديدة الحرارة ومتّجهين إلى حيث هناك مناخ أبرد في مواقع ممتعة.

ثم أسهبت لانا بالشرح: «كان والدي قد حدّد مسبقاً مواعيد عمل مهمة في لندن، وشعر أنه مجبر على الالتزام بهذه المواعيد، فأخذ

أخويّ معه. أصرّت أُمي على أن يغادروا وأن نلحق بهم بمجرد أن تتعافى أختي».

أطلقت تنهيدة قوية: «من كان يعلم أن خلاف صدام مع الأمير سينفجر حرباً؟ من كان يعلم؟ صدام في حالة خلاف دائم مع الآخرين». قاطعتها باسمينا: «هذا رأيي أنا أيضاً! قد يحسب المرء أن صدام تعب بعد ثماني سنوات من الحرب مع الإيرانيين».

«على أي حال لم يخطر لنا قط أن يتحوّل الغضب إلى حرب. كنا قد جهزنا حقائبنا وغيرنا حجوزات الطيران إلى الرابع من آب/أغسطس. ولكنك تعلمين ما حصل. بعد الغزو، علقت والدتي مع بناتها الثلاث.

«بعد غزو العراقيين وجب علينا الالتحاق بالكويتيين الآخرين الذين هربوا». ابتسمت لانا. «كانت هناك نساء كثيرات اللواتي يوجد أزواجهن خارج البلاد. لم تهدر أولئك النسوة أي لحظة. حملن سياراتهن وقدن بأقصى سرعة وسط الصحراء نحو السعودية، ولكن أُمي ترددت. كانت قد حجّت إلى مكة قبل سنوات عدة وتذكرت أن النساء السعوديات ممنوعات من قيادة السيارات، فخشيت أن تُعتقل حينما نعبر الحدود. فقرّرت البقاء في الكويت ومواجهة العراقيين عوضاً عن المغادرة».

ازدادت ملامح وجه لانا الحزينة حزناً. «وها أنا ذا».

تنحنحت باسمينا بصوت هادئ وربّبت ذراع لانا. «سننجو من هذا الوضع. سننجو يا لانا».

حالة لانا الحالمة حملتها إلى معمعة يوم الغزو وراحت تتفكّر وتقول: «أتمنّى لو أنني علمت ما حل بأولئك النساء الشجاعات. رأيناهن آخر مرة وكانت شعورهن تتطاير في الهواء، وأصواتهن العالية تصيح بكل شخص يعترض سبيلهن، وأطفالهن يصرخون حماساً». قهقهت وأضافت: «كُنّ نساء يمضين في مغامرة! كان مشهداً لافتاً!»

عادت لانا إلى الاستغراق في التفكير، وحدّقت إلى العدم، ناسية

زائرتها. ثم تكلمت أخيراً: «غالباً ما أستغرق في أحلام اليقظة، فأحلم بخروحي من هذا الواقع. أعيد صياغة ماضيّ حتى أغيّر مستقبلتي. في كثير من الأحيان تخيلت كيف كانت ستتغيّر حياتي لو أن أمي استجمعت شجاعتها والتحقت بقافلة النساء في رحلتهم عبر الصحراء. ربما كانت الرحلة ستنتهي نهاية مفاجئة لو أننا ضللنا طريقنا. ربما كنا سنموت من العطش. ولكن من المحتمل أننا كنا سنعبّر الصحراء، لكننا الآن في لندن مع والدي، نتسوق ملابس جميلة من متجر هارودز الشهير ونأكل في مطاعم فاخرة». ارتسمت على وجه لانا ابتسامة عريضة، وهي تفكّر بمثل هذا الاحتمال.

راحت ياسميننا تفكّر أن الأهم هو أن لانا ستبقى عذراء حتى يوم زفافها وتنجو من التعرّض للاغتصاب يومياً من قبل مخلوق تجده أقرب إلى الوحش منه إلى الرجل.

أكملت لانا سرد قصتها: «ينبئني قلبي أنني لن أعرف مزيداً عن الكويت. سأموت إلى جانب كثير من المجهولات اللواتي يشغلن تفكيري».

تشاطرت لانا بلهفة قصتها مع صديقتها الجديدة ياسميننا، فأخبرتها أن والدها ما كان ليسمح لها بمغادرة المنزل، مهما كانت الحالة الطارئة. ولكن أمها المذعورة لم تكن تعلم ما عساها تفعل. في لحظات الأزمة أمضت أمها يوماً أو يومين، تدور على نفسها مذعورة وهي تحاول الاتصال بوالدها. بعد يوم واحد أصيبت والدتها بمرض أختها نفسه، فأصبحن مقيدات تماماً. حينما اشتد مرض والدتها، أفلحت أخيراً في تحديد موقع طبيب كان قد اعتنى بأولادها وأكد أنها بحاجة إلى دواء. بعد أسبوعين فقط من الغزو، أرسلت بتردد أكبر، ابنتها مع سائق العائلة لجلب الأدوية التي طلبها الطبيب والمتوفرة في الصيدلية المحلية. في العادة كان الصيدلي يرسل عاملاً فلسطينياً لتوصيل الأدوية إلى زبون مفضل، ولكن بعد يومين من الغزو هرب ذاك الرجل من البلاد وعاد إلى عائلته في الأردن.

«أرسلتني أمي لإحضار الأدوية لها، دون أن تملك فكرة عما يحصل خارج جدران قبيلتنا. كنا قد احتجزنا أنفسنا داخلها، وأبقينا منزلنا معتماً وهادئاً، خائفات من القيام بأي شيء يعدو النظر عبر النوافذ. أتى لها أن تعرف أن الجنود العراقيين يختطفون النساء من الشوارع؟». «أنا آسفة جداً يا لانا».

أسكتتها لانا راغبة بأن تفضي بمكنونات قلبها إلى أي إنسان. «ابتليت لحظة خروجي من السيارة ودخولي إلى الصيدلية. فجأة اعترضت سبيلي مجموعة من الجنود. كانت أول مرة أراهم فيها عن كثب. حدقوا إلي دون أن يقولوا شيئاً، ثم أمسك بي أحدهم. قبل أن أتمكن من الصراخ أطبقت يد ضخمة على فمي، وجرني ثلاثة جنود بعيداً. على الأغلب لم يعرف سائقنا بما جرى. وتحسب أمي على الأرحح أنني اختفيت في الهواء».

بكت لانا بحزن دون أن تذرف دموعاً واحدة.

ولكن الدموع كانت تنهمر من عينيّ ياسمينا. كانت لانا في ريعان شبابها، ابنة ستة عشر ربيعاً، أي هي طفلة مقارنة بياسمينا التي تبلغ الثالثة والعشرين. أيقنت ياسمينا أن وضعها أمكن أن يكون أسوأ بكثير.

فجأة ظهر الحارس وقال لياسمينا: «تعال، انتهى وقت الزيارة».

ركعت ياسمينا لتحتضن لانا التي كانت لا تزال مستلقية. «أنا موجودة في آخر الرواق، على بُعد بضعة خطوات فحسب. سأعود يا لانا، سأعود. تحلّي بالقوة».

وبعد عناق صادر من القلب، اختفت ياسمينا من أمام لانا مثل

حلم.

الفصل الخامس

الرجل الذئب

اغتصب الجنود العراقيون - حسب التقديرات - ما لا يقل عن
خمسة

آلاف امرأة كويتية خلال الغزو العراقي للكويت.

اغتصاب النساء كأداة في الحرب:

<http://www.gistprobono.org/id189.html>

بعد مغادرة ياسميننا، لم يفارقها القلق على وضع لانا. ولكن عند كل زيارة كانت تعرف كثيراً من التفاصيل حول اختطاف صديقتها الصغيرة وسجنها واغتصابها المتواصل.

إلى قرائي: أفضت لانا بالمعلومات التالية إلى ياسميننا:

بعد اختطافها من الطريق وزجّها في آلية عسكرية، راحت أيدٍ خشنة تتلمّس جسدها خلال اقتيادها وسط شوارع مدينة الكويت. أخرجت من الآلية واقتيدت إلى سجن، ورُميت في زنزانة تحمل الرقم 11. طلب منها جندي وجهه قاسي الملامح أوراق هويتها، ولكنها لم تكن تحملها. أجابت بصوت رقيق: «تركت أوراقى مع سائقنا».

من دون أوراقها، لم يكن الجنود يعرفون عنها شيئاً. فظلوا يجهلون اسمها وسنها وعنوان منزلها، والأهم من ذلك، تفاصيل تتعلق بعائلتها. ولكن جندياً معيناً ظل يطلب منها معرفة اسمها وسنها. كانت خائفة جداً، فالتزمت الصمت. وأخيراً خرجت الحقيقة من فمها على عجاله.

«اسمي لانا وأنا في السادسة عشرة».

تاق سجانوها إلى معرفة سنّها. إذ أيقنوا أن فتاة كويتية في سن السادسة عشرة ستكون عذراء. راحت تصغي بعناية فيما أخذ خمسة جنود يتكلمون حول حسن حظهم لوقوع مثل هذه الفتاة الشابة بين أيديهم. كانوا قد خرجوا في مهمة صغيرة لإحضار دواء للصداع للنساء اللواتي اختطفوهن. من كان يدري ما عساهم يجدون في مشوار عادي حينما تكون تصرفاتهم متغلّطة من أي قيود!

وجدت لانا نفسها بين براثن أعتى الأشرار، فوجدت صعوبة في أخذ نفس كامل. راحت تراقب الرجال، وفمها الصغير يفتح ثم يغلق غير مصدّقة ما يجري، مثل سمكة صغيرة تلهث بعد إخراجها من الماء. رغم صدمتها، لم تتمالك نفسها فقارنت الرجال بعضهم ببعض. بدا أربعة من الرجال الخمسة طبيعيين. ثلاثة من الرجال الخمسة يمتلكون ملامح جميلة كملامح الشبان الذين لا يمكن لأحد تخيل أنهم قد ينحطون إلى درجة اغتصاب فتيات بريئات. اثنان منهم كانا يافعين، لا تعدو سنهما الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة. ولكن واحداً من هؤلاء الرجال لم يشبه أي رجل رآته لانا في حياتها. كان رجلاً ضخماً ومخيفاً، بشرته تملأها الندوب. حدق إليها بحقد بالغ وقام بإيماءة داعرة. أيقنت لانا أنه يقصد بها شرّاً، رغم أنها لم تفهم معناها بالضبط. احمرّت خجلاً وأشاحت بوجهها.

المثير للدهول أن الرجال كانوا يتباحثون في مسألة «من سيحصل عليها». ولما كانوا كلهم قد رأوها في الوقت عينه، قرروا أن لا خيار أمامهم سوى نقف قطعة نقدية، والرابح بينهم يحصل عليها لنفسه. اثنان من الشبان الأصغر سنّاً كانا أول من نقف القطعة النقدية. تبارى الرابح منهما مع الثالث، ثم الثالث مع الرابع. واستدار الرابح نحو الرجل المخيف ونقفا القطعة النقدية. جاهدت لانا لالتقاط أنفاسها وهي تغطي فمها بيديها. توسّلت إلى الله ألا يفوز ذاك الرجل البغيض، ولكنه لم يخسر.

بعد أن أدرك الرجل المخيف أنه ظفر بهذا الجمال المميز، ابتسم للمرة الأولى، متجهاً نحو لانا بسرعة، وكأنه لا يطيق صبراً حتى يضع يديه عليها.

دخل الرجل الزنزانة وهرع باتجاهها قبل أن تسنح لها الفرصة للقيام بأي رد فعل. كان يتغوّه بكلام ما ولكنه لم يكن مفهوماً. بدا عدوانياً لدرجة صادمة، ولم يستغرق سوى ثوان حتى مزق ملابسها عن جسدها. مذ تخطت لانا مرحلة الطفولة، لم يرَ أي إنسان جسدها العاري. عمد الرجل إلى تقييد حركتها، واضعاً ساعده على رقبتها وباليد الأخرى خلع ملابسها.

لم يسبق لانا أن رأت رجلاً عارياً. ولم تفقه شيئاً عن الجنس، رغم أنها تعي أن ثمة شيئاً سرياً يحدث ليلاً بين الأزواج؛ ولكن كحال أغلب الفتيات في سنّها، حال خجلها دون طرح أسئلة ورضيت بالانتظار إلى أن تجد والدتها أن الوقت حان لإخبارها.

لم تصدّق لانا أن حياتها قد انقلبت رأساً على عقب بنقطة نقدية. حيث كانت بلحظة مع والدتها وجليساتها اللواتي يحمينها، وفي اللحظة التالية أصبحت داخل زنزانة مع رجل غريب؛ رجل غريب وعار. لم تملك لانا فكرة عما سيحدث تالياً ولكن نَفَسَها انقطع حينما دفعها الرجل إلى الأرض الصلبة. صرخت، وقاومت بقدر ما يمكن لفتاة يافعة أن تقاوم، ولكن الرجل باعد بين فخذيها وزحف إلى ما بين رجليها. وبعد التحريك والدفع لفترة بدت دهرأً، جامعها. فتدفّق سائل من جسمها وأنبأها قلبها أنه دمها. لم تقوَ على كبح صرخاتها. حاولت أن تنشب أظافرها في عينيه، ولكنه بكل سهولة أمسك بيديها الاثنتين بيد واحدة. حاولت ركله ولكنها لم تفلح في اتخاذ وضعية تلحق به الأذى. جلّ ما أرادته هو إبعاد جسده عن جسدها. شعرت أن أحشاءها محشورة بذاك الشيء الذي رآته، أحسّت بشيء طويل وجليظ جداً حتى أنها اعتقدت أنه سيخرج من معدتها أو يُقَدَّف من بلعومها، مثلما تخرج الكائنات الفضائية من الأجسام البشرية، وهو مشهد رآته ذات

مرة في فيلم رعب.

قبل أن يُغمى عليها، سمعت صوته يرتجف حماسةً وهو يقول:
«أنت ملكي».

الفصل السادس

الكابتن

الاجتصاب في أثناء الحروب ليس محض مصادفة، تتعلّق بوجود النساء الضحايا في المكان والزمان الخطأ. ولا هو مسألة جنس. بل هو مسألة سلطة وسيطرة تتشكّل بفعل اقتناع الجنود الذكور بأفضليّتهم الذكورية، وبفعل نفوذ أصحاب الرتب العسكرية، كما التفاوتات الإثنية والطبقية بين النساء.

الاجتصاب والاعتداء الجنسي في القانون الدولي

<http://www.law-lib.utoronto.ca/Diana/fulltext/chin2.htm>

مذّاك الحين سُمح لياسميننا بزيارة لانا أكثر من مرة. دفعها الكابتن إلى الاعتقاد أنه يمكنها مواصلة زيارتها. وعقب لقاء لانا السيئة الحظ، أيقنت ياسميننا أن وضعها الشخصي يمكن أن يسوء أكثر. فهي في الحقيقة تعتبر من نواحٍ عدّة محظوظة أكثر من الأسيرات الشابات الأربع عشرة الأخريات، اللواتي يتعرضن، إلى جانب الاجتصاب إلى الضرب بشكل متكرّر. وغالباً ما كانت تدويّ صرخات الألم في أرجاء السجن نظير زئير عاصفة. على الرغم من عدوانية الكابتن من الناحية الجنسية، إلا أنه لم يضربها. ومع أنه مخيف لكنه لم يتحوّل بعد إلى شخص عنيف جداً.

كان قد أخبرها في اليوم السابق أنه سيطلب تعليق ستائر تمتد من السقف إلى الأرض، ليحجبها عن عيون رجاله. فابتسمت أول ابتسامة صادقة منذ يوم اعتقالها. حينما يكون المرء سجيناً، يولّد أصغر

معروف لديه طفرة من الفرحة، إذ كانت تتوق إلى بعض الخصوصية والانعزال اللذين تفتقر إليهما. في كل مرة تجلس القرفصاء فوق الدلو الصغير الذي تستخدمه كمرحاض أو تغسل جسدها بالماء الموجود في الدلو البلاستيكي الأزرق، يتصدّ الجنود المرور بمحاذاة زنانتها كي يظفروا بنظرة إلى ثديها أو رجليها الرشيقتين. لهذا السبب، كثيراً ما كانت تؤجل استخدام المرحاض إلى أن يفتك بها الألم فتخشى من انفجار مثانتها.

وعلى الرغم من امتياز مكانتها كمستعبدة جنسية مختارة لدى الكابتن، إلا أن ياسمينا عاشت حياة رعب. كانت تقضي ساعات عدة من النهار والليل تنتظر مغتصبها بقلق. ولحسن حظها، كان مغتصبها رجلاً عسكرياً أيضاً، ملأه دوره المساهم في إخضاع الكويت والكويتيين عجرةً وتكبراً. لذلك نادراً ما تعرّضت للاغتصاب أكثر من مرة في اليوم، وكان أمراً حميداً. إذ إن أغلب الفتيات كن يُغتصبن أكثر من مرة، وعلى رأسهن لانا.

صَعَب كثيراً على ياسمينا الانتظار فهي لا تعلم أي فكرة جنسية منحرفة سيستوحىها الكابتن من رجاله أو يكتشفها خلال مشاهدته أفلام الدعارة. فهو يستخدم جسدها الغصّ للاستمتاع، وبالتالي يتفكّر كل يوم بطريقة جديدة ليستخدمها معها.

حاولت ياسمينا الحفاظ على نشاطها الذهني، وأن تبعد ذهنها عن الواقع. ولكن ما عسى أن تفعل مستعبدة جنسية في زنانة فارغة سوى الجلوس وإعادة عيش أهوال تعرّضها للاغتصاب؟ بعد أن أخبرت الكابتن أنها ستجن نتيجة الجلوس في زنانة فارغة دون فعل شيء، قدّم لها كومة من مجلات الأزياء وكتباً ذات غلاف ورقي. ولكن ظروفها كمستعبدة جنسية يعني أنها لن تستوعب جيداً أي ناحية من نواحي الحياة الطبيعية. بدأت إذ ذاك تتعجب أمام قدرتها أنفاً على قضاء ساعات في تصفيف شعرها بطريقة معينة، ووضع مساحيق التبرج، لكأن الكمال أمر مهم جداً لتحقيق السعادة، أو تتذمر إن لم يكن

ثوبها مرتباً كما ينبغي على جسدها. باتت تدرك أن لا أهمية لأي شيء، كانت تجده مهماً.

أخيراً استسلمت حينما وجدت أنها لم تعد تفهم ما تقرأه. ومذآك الحين أصبحت المجلات مثل أحجار لا طائل منها في زنانتها.

كان الكابتن وبعض المغتصبين الآخرين قد سرقوا بعض المتاجر وأهدوا الفتيات مساحيق تبرّج وعطوراً، وغسول شعر وصابوناً وملابس نوم مثيرة، وقالوا لهن إنهم يودون منهن الحفاظ على جمالهن طوال الوقت. وبأسلوبه الذي يعكس اعتداداً بالنفس قال الكابتن لياسميننا إنه رجل يستحق الأفضل، وينبغي أن تبدو نظير ملكة جمال أو نجمة سينمائية لدى قدومه لاغتصابها. فاضطرت إلى الجلوس وسط حرارة السجن متبرّجة بالكامل، في حال ظهر فجأة لاغتصابها سريعاً. ادّعى أنه يتمنّع بتجريدها من ملابسها ويتهيج بجسدها الجميل كلما رآه.

ومن جديد عادت تتأكل ياسميننا أهوال حياتها الجديدة حين سمعت صوت الكابتن المعروف وهو يتكلم مع أحد رجاله. التقطت أنفاساً عميقة، محاولة تهدئة أعصابها، وهي تحضّر نفسها لاعتداء جنسي.

فيما راحت ياسميننا تنتظر التعرّض للاغتصاب، بدأت لانا تصيح منادية: «يا الله! أنقذني! أمي أنقذيني! أبي أنقذني!».

وبدأت سجينات أخريات ينادين: «ساعدك الله!».

ثم أصبحت أصوات الضرب المألوفة مسموعة وهي تتقاطع مع الصرخات المدوية.

هذا القدر البالغ من الألم له دوي لا يُطاق سماعه.

فتح الكابتن قفل زنانتها ودخل، فأيقنت ياسميننا من النظرة المرتسمة على وجهه أن ثمة ما يغضبه. لعل السبب هو الجلبة التي تحدثها النساء المتألمات. فالكابتن يعتقد أنه ينبغي لجميع النساء

الاستسلام بكل سكينه، وحتى بامتنان، إلى مصائرهن والاستفادة منها قدر الإمكان.

ولكن في تلك الأيام راح غضبه يزداد نتيجة الانتكاسات التي يتعرّض لها الاحتلال العسكري. لم تكن مهمة جعل الكويت المحافظة التاسعة عشرة للعراق تسير بسلاسة كما خُطّط لها. إذ جدّد الكويتيون ثورتهم، فتعاضدوا سوياً وشكّلوا سداً قوياً، وأثبتوا أنهم، على نحو غير متوقع، أذكى وأقوى مما ينبغي أن تكون عليه مجرد مجموعة صغيرة من المدنيين غير المدربين. أما المشكلة الثانية فهي رد الفعل السريع لرئيسة وزراء المملكة المتحدة مارغريت تاتشر والرئيس الأميركي جورج بوش المطالبين بانسحاب جيش صدام. مذّك الحين، وقف كثير من الدول المتعاطفة مع محنة الكويت إلى جانب الأميركيين والبريطانيين، وراحت تحشد جيوشها في صحارى السعودية المجاورة. ووعدت كلها بعبور الصحراء وتحرير الكويت.

بدا جلياً أن مزاج الكابتن معكّر، إلا أن ياسمينا حيّته بأفضل ابتسامة مزيّفة لديها. في الآونة الأخيرة خفّ خوفها قليلاً. فعلى الرغم من انشغال الكابتن العام في امتلاك ياسمينا واغتصابها، ظل الأفضل من بين الرجال السيئين. ولكن ها هوذا يأتي إليها على غير عادته. حينما لمحت الغضب يرتسم على وجهه، بدا جلياً أنه سيصب جام غضبه عليها.

ولكنها امتثلت لمتطلباته حرفياً، فخلعت ملابسها وثبتت كوعيا على الحصير ورفعت مؤخرتها عالياً. أصبحت تعلم أن الكابتن يروقه اغتصابها بشتى الوضعيات. ولكن كانت تنتظرها مفاجأة رهيبه. ارتاعت حينما بدأ يغتصبها من الخلف.

شعرت على الفور بألم جسدي هائل فحاولت الابتعاد، ولكنه أطبق أصابعه وضربها بقبضته على رأسها، مسكناً صرخاتها. كان هذا الاتصال الجنسي بغاية الإيلام لدرجة أنها عجزت عن كبت أناتها الخافتة وتمازج بكائها مع أنينه وصرخاته المهتاجة فتشكّلت

سيمفونية كريهة، لحن من الرعب ما كان موزار أو سواه من عباقرة الموسيقى ليؤلفه. مثل غمامة مرّت على ذهنها، سمعت صرخات وضحكات بعيدة، لكن رجال الكابتن لم يندفعوا نحو الزنزانة ليستمتعوا بمنظرها وهي عارية وتخضع للتعنيف، كما اعتادوا أن يفعلوا حينما يغتصب الجنود الآخرون إحدى النساء. سلّمتُ باسمينا من هذا الإذلال لأن الكابتن كان الضابط الأعلى رتبة بين عداد هذه الحلقة الفاسدة من المغتصبين.

بعد أن فرغ الكابتن أخيراً من اغتصابها، همهم لحناً معروفاً أثناء قيامه بتنظيف نفسه باستخدام قارورة من المياه، ثم رشّش عليها الفائض من المياه وجفّف نفسه بطرف بطانيته. توقف وطرح عليها سؤالاً بنبرة رتيبة ناعمة: «هل أعجبك ما حصل؟» وحينما لم تجبه انزعج: «أعلم أنه أعجبك. أنا أفضل عاشق. لا أكرّر الحركات نفسها دائماً. كل النساء يقلن لي إن خيالي خصب جداً».

أصدرت صوتاً خافتاً أملت أن يفسّره كرد إيجابي، هذا الرجل الذي يتخيل أنه الأفضل في كل شيء، ويعتقد أن المرأة التي تتعرّض للاغتصاب تستمتع بكل لحظة من لحظات الاعتداء. استخدم قدمه وممس مؤخرتها بخفة، كعلامة عاطفية من رجل لا يملك فكرة عن حقيقة ما يقوم به. بدا أنه لم يلاحظ أنها انكمشت وانسحبت.

جلس ودخن سيجارة، منتظراً إياها كي تغسل جسدها لأنه يروق له التفرج على ذلك. قال: «بعد إتمام علاقتنا، أريد منك أن تقدمي لي كوباً من الشاي»، مضيفاً شيئاً جديداً على الروتين. جلس يحدق إليها، ولم يشح بنظره عنها.

امتثلت لأمره، وتحاملت على نفسها لتنهض. ورغم أن تحركها كان يسبب لها الألم، حاولت مرتبكة التقاط ردائها عن الأرض. فأمرها قائلاً: «لا، لا تغطي نفسك».

عارية وذليلة، وجدت كوب الشاي، وسخّنت الماء فوق الموقد ذي

المضرم الواحد، ووضعت فيه كيساً من الشاي من المسروقات التي
نهبها الكابتن من متجر كويتي.

لم يشح بنظره قط عن جسمها، وشعر بالسعادة لجلوسه
وارتشافه الشاي، وهو الرجل الذي يروقه الاستئناس بالأسرى.

حاولت أن ترتدي رداءها ثانية ولكنه قال: «ابقي كما أنت».

«أرجوك، هل تريد أن يراني رجالك؟»

«ليسوا بهذا الغباء. لن ينظروا إليك».

أدركت ياسمينا فجأة أنه حينما يوجد الكابتن في زنانتها، لا
يقترّب أي جندي. من الواضح أن الكابتن أصدر أمراً بمنحهما
الخصوصية.

امتثلت للأمر الموجّه إليها.

بدأ يتحدث، فتفاجأت به يتكلم عن زوجته التي تعيش في قريتهما
في العراق. «زوجتي المسكينة. لا تزال شابة، ولكن بعد إنجابها سبعة
أطفال خسرت جمال قوامها. لا تروقها ممارسة الجنس، ولذلك نطفئ
النور عند المجامعة، لا مانع لدي لأنني لا أريد رؤية ثديها وبطنها
المترهلة».

فجأة، وعلى نحو غريب، حسدت ياسمينا زوجة الكابتن. من
الجميل امتلاك جسم غير جذاب لا يرغب به الكابتن، وبكل تأكيد
سيكون أقل إحراجاً أن تُغتصب في العتمة. مقتت رؤية عينيه
المخيفتين تتفحصان جسدها، وتدققان في كل تفاصيله، وكأنه يدرس
لامتحانات كلية الطب.

ولكنها لم تسمع كل كلامه لأنها آنذاك لم يسعها إلا التركيز على
الألم الذي يفتك بمؤخرتها، وصولاً إلى معدتها وصدرها. كانت قد تخيلت
أن سلب هذا الوحش لعذريتها هو التجربة الأكثر إيلاماً في حياتها،
ولكنها لا تُقارن بهذا الانتهاك الأخير. كانت تشعر بألم بالغ لدرجة أنها

راحت ترتجف، وشعرت بقشعريرة باردة تجتاح جسدها، وهو إحساس غريب في مكان صحراوي خالٍ من التكيف الهوائي. سرق الجنود العراقيون أدوات الترف الكويتية مثل مكيفات الهواء في الأسبوع الأول من الاحتلال، وأرسلوا كل ما وجدوا سبيلاً إلى فكّه إلى العراق ليتمتع به العراقيون. أصبح المبنى حاراً جداً لدرجة أن ياسمينا كثيراً ما واجهت صعوبة في التنفس. تم توجيه مروحة إلى زنانتها مباشرة، ولكن شفرتها لا تحرك سوى الهواء الساخن. في اللحظة التي اعتقدت فيها بأنه لن يكف أبداً عن الكلام، مد يده وأمسك بثديها. ضحك حينما قفزت من الألم.

ثم راح يتكلم عن أولاده. لديه أربع بنات و ثلاثة صبيان. سيزوج الفتيات بمجرد أن يبلغن سن الثالثة عشرة. إذ لا يسعه المخاطرة بحدوث أي سلوك آثم، أي تصرف يلحق العار باسم عائلته الشريف. فبرأيه يلقي اسمه احتراماً في جميع أرجاء قرينته وغيرها. وخلال حديثه الممل، أمسكها فجأة بعنف من رقبتها وسحبها إليه.

شهقت وراحت تشد جسمها بعيداً.

ضحك مجدداً وقال لها: «اعترفي، أنت تحبين المفاجآت الصغيرة».

ثم تبددت عواطفه فسمعته فجأة يتكلم بشكل غريب ويقول لها: «أنت امرأة باردة. أنا عاشق عظيم ولا تخبريني بذلك. أعلم أنك تحبينني ولكنك لا تخبريني بذلك». وهز رأسه بخيبة. «ألا تقدّريني؟»

لم تصدق ياسمينا ما يقوله. فمغتصبها منافٍ للطبيعة والعقل في تفكيره. هل نسي أنها مختطفة؟ هل نسي أنها كانت عذراء قبل أن يغتصبها بوحشية رجل لا تعرفه؟

صمت ثم قال بنبرة تهديد: «عليك إرضائي وإلا سأستبدل بك. تعرفين معنى ذلك يا ياسمينا».

وبالفعل كانت تعرف، جراء ما شاهدته في أول يوم من سجنها.

أدركت أن ثمة نساء قُتلن في هذا السجن.

«أعلم أنك تحبينني وعليك أن تخبريني بذلك. أعلم أنك تجدينني جذاباً، لذا عليك أن تبوح لي بذلك. أعلم أنك تحبين الأشياء التي نفعها، لذا عليك أن تعلّميني.»

بالكاد أمكن لياسمينا تحريك لسانها، ولكنها أجبرت نفسها على إخراج كذبة من بين شفيتها وهمست قائلة: «أحبك». ثم صمتت وراحت تحديق إلى تعابير وجهه التي ملأها الترقب، علماً منها أن لا سبيل البتة إلى إرضائه. «أنت رجل قوي ووسيم، وأي امرأة ستحبك». تفاجأت من أن لسانها لم يصبه اليباس ويقع من فمها بفعل كذبة بشعة كهذه. اعتقدت أنها على الأغلب ستعجز عن النطق ثانية.

فرح الكابتن لسماها تردد كلاماً يعرفه أصلاً. ابتسم وراح يتكلم إلى أن نفذ منه الكلام. أخيراً توقف وقال إنه سيغادر لبضع ساعات. قال لياسمينا: «أنت تنزفين، ولا يروقني رؤية منظر هذا الدم كله. نظّفي نفسك. سأعود في وقت لاحق اليوم وأريدك أن تكوني مستعدة لي. سنجرب شيئاً جديداً آخر. أريدك أن ترتدي الثوب الأحمر». صمت ثم ذكرها ثانية بأنها قابلة للاستبدال بها. «إن أضجرتني، سأجلب فتاة أخرى.»

حينما سمعت الباب المعدني يُقفل، وخطوات قدميه يخبو وقعها، انتقلت إلى مكان مظلم في ذهنها. قررت أن لا بد لها من قتل نفسها، رغم واقع أن المسلمين يرون في الانتحار خطيئة لا تُغتفر.

الانتحار هو الحل. فهي لن تخرج أبداً من هذا السجن المقيت حية، على أي حال. في غضون الأسابيع الثلاثة التي عاشت فيها هناك، سمعت عن ست فتيات تم إعدامهن بعد أن استبدل بهن مغتصبوهن فتيات أصغر سناً منهن. أخبرها الكابتن أنها بسنها الثالثة والعشرين تعتبر الفتاة الأكبر سناً في السجن، وتساءلت متى سيُفرغ الكابتن زنانتها ليملاًها بمختطفة أخرى، فتاة عذراء أجمل منها. بكل

تأكيد ثمة كثيرات من الفتيات الجميلات في الكويت يمكن اختطافهن،
أيقنت ياسمينا ذلك، لأنها رأتهم خلال سنوات عملها مضيغة طيران.

كبتت ياسمينا دموعها لأن عليها أن تتحلى بالقوة لوضع حد
لحياتها. فكل فتاة وامرأة في هذا السجن ستموت في أي حال. لذا
حري بها أن تتفادى أسابيع أو أشهراً من التعذيب والألم.

ستُقدم على الانتحار.

الفصل السابع

الانتحار

اكتشفت ياسمينا سريعاً أن الانتحار ليس سهلاً، خصوصاً من دون توفر مسدس أو أداة حادة.

ومع ذلك أيقنت أن الانتحار هو أفضل خيار لها، فهي ستموت في أي حال. والكابتن على الأرجح أصبح يملكها، وقريباً قد يأمر بإعدامها.

فكرت بالموت مطولاً، بعدما استذكرت أهوال ما اختبرته آنفاً. إنها تفضّل أن تموت على أن تُغتصب من الخلف كل يوم، ووفقاً لطريقة لهاث مغتصبها وأبينه، أيقنت أنه تحمس لهذه الوضعية الجديدة أكثر من سواها، وأنه لن يتخلى عن هذا النوع الجديد من الوحشية التي تمده بقدر كبير من المتعة.

ولكن جسدها المسكين لا يسعه تحمل اغتصاب شرطي آخر. فمؤخرتها تؤلمها لدرجة بالغة. إنها فعلاً تفضّل الموت على تحمل مثل هذا الألم.

لا يزال الدم يسيل من مؤخرتها، لذا قرّرت تنظيف نفسها قبل الموت والدفن. لأنها إن ماتت قبل ذلك ستشعر بالحرج إذا لاحظ حفّارو القبر بقع دم بين ردفها. سيعرفون أنها لقيت حتفها جراء اغتصابها من الخلف. وسيقفون وبأيديهم الرفوش للتفرّج على وجهها وحفره في الذاكرة. وبعد الحرب، حين يأتي والداها إلى الكويت للبحث عنها، ويلوّحان بصور ابنتهما الحبيبة، سيُقال لهما إنها تعرّضت للاغتصاب حتى الموت من مكان لا يجدر بأي رجل لمسّه. وعندها سيقضي

عليهما الشعور بالخزي جراء مصير ابنتهما.

أنت ياسمينا حينما حملت دلو الاغتسال وملأته بالماء. وضعت الدلو على الأرض وأنزلت مؤخرتها فيه. فسببت لها المياه صدمات ألم هبت كالعاصفة في جسدها. ثم رفعت نفسها، ونظرت في الدلو فرأت المياه حمراء اللون. ربما قد لا يكون من داعٍ لتقتل نفسها فهي ستنزف حتى الموت.

بعد أن جففت مؤخرتها، كافحت كي ترتدي ملابسها، وراحت تأن وهي تُنزل القميص الطويل من رأسها. حاولت أن ترتدي سروالاً داخلياً ولكنها لم تحتمل ألم ملاصقة القماش الناعم لمؤخرتها، فعزفت عن ارتدائه وشدت قميصها نزولاً قدر الإمكان.

كل ما في جسمها يؤلمها. تذكرت ياسمينا فجأة جدتها المسنة، وأدركت أن تحركاتها بطيئة ببطء تحركات جدتها حينما كانت تحاول أن ترتدي ملابسها من دون مساعدة ابنتها أو إحدى حفيداتها. فقررت أنها، في حال عادت إلى منزلها في لبنان، ستتعاطف أكثر مع كل الأبناء المسنين، بمن فيهم عمه لم ترق لها كثيراً.

ولكن ما يشغل بالها حالياً مسائل في منتهى الخطورة. راحت تتفحص الأدوات المتوفرة في زنانتها، متلهفة لإيجاد أداة فتاكة بما يكفي كي تستخدمها لوضع حد لحياتها. لم تكن الخيارات واسعة في زنانتها التي بالكاد تحوي بضعة أشياء. هناك حصير النوم وشرشف وبطانية وسخان، أغراض تستخدم لتحضير الشاي. كانت تعمد إلى تسخين الشاي على موقد كهربائي فافترضت أن بوسعها إضرام النار في بطانيته ولف جسدها بها. لكنها كانت تخشى النار مذ أخبرتها والدتها عن صديقة يائسة تزوجت من رجل عربي من إحدى الدول الخليجية، عقب مجيئه إلى بيروت للدراسة. وبعد التودد إليها لفترة وجيزة ادّعى أنه يحبها، فأظهر لعائلتها قناعاً مزيفاً معبراً عن عشقه ووعداً بأنها ستعيش نظير أميرة في قبال فاخرة يملأها الخدم. كان ثرياً، وكان بالفعل يملك قصرًا كبيراً، ولكن لم يعد لأي من هذا الترف

أهمية بعدما تحوّل إلى شخص متوحّش بعد بضعة أشهر من زواجهما. كان يضربها إن طلبت مغادرة القبلاً للتسوق أو زيارة بعض الأنساب. وبعد فترة جلب إلى المنزل عاهرات، ولكم زوجته في وجهها حينما احتجت على ذلك. بعد أن كسر أنفها وصدّع أسنانها، تسلّلت خفية للاتصال بوالدتها كي تفضي إليها بالمشكلة، فقالت لها والدتها: «اصبري يا ابنتي واكفي زوجك حتى لا يحتاج إلى عاهرات».

راح صدى كلمات والدتها يتردّد في أذنيها، وأيقنت المسكينة أنها لا تملك مكاناً لتلجأ إليه. توقاً منها للهرب من زوج عديم الرحمة، وفي لحظة تسرّع أغرقت نفسها بالكيروسين وأضرمت النار في جسدها. لم تمت المسكينة التعسة الحظ كما أرادت لنفسها، وإنما ظلت على قيد الحياة لتعيش معاناة رهيبة. فالشابة الجذابة التي كانت تتحلّى فيما مضى بشعر طويل وغزير أصبحت صلعاء كحال جدة ياسمينا المسنة، التي كانت جلدة رأسها ملساء ولامعة. ووجهها الذي كان فيما مضى جميلاً ونضراً أمسى ممتلئاً بكتلٍ من اللحم الأحمر اللامع، ولم يتعرف إليها ابنها الصغير وأخذ يصرخ فزعاً حينما رآها. رفض زوجها طلبها بأن يطلقها وأبى إرسالها إلى عائلتها في بلادها.

تناهى إلى علم والدة ياسمينا أن زوج هذه المرأة استشاط غضباً حين علم أن زوجته تفضّل الموت على العيش معه، فأبقاها إلى جواره حتى يستمر في توبيخها. وسرعان ما دخلت زوجة ثانية إلى القبلاً، وازداد الوضع سوءاً حينما ادعت أنها تفقد شهيتها عند النظر إلى هذا المخلوق المثير للشفقة. أخيراً أمرت الزوجة المحترقة بالعيش في غرفة صغيرة ولم يُسمح لها بدخول باقي أرجاء المنزل، حتى لرؤية ابنها. ومن دون رعاية طبية مناسبة توفيت المسكينة جراء الإصابة بالالتهاب بعد ستة أشهر من محاولة انتحارها الفاشلة.

لا. ليست هذه هي النهاية التي تسعى إليها ياسمينا.

لاحظت كيساً من الكعك وتفاحتين كان الكابتن قد أحضرها، وتساءلت إن كانت ستفجح في الاختناق حتى الموت إذا ابتلعت كعكة

بكاملها. بعد التفكير بالأمر ملياً، وجدت أن هذه المحاولة قد تعطي سجانيتها الوقت ليهرعوا إلى داخل الزنزانة ويضربوها على ظهرها أو يسحبوا الكعكة من داخل فمها فاستبعدت هذه الفكرة، رغبة منها في أن يبقوا أيديهم القذرة بعيداً عنها.

عادت لتفكرّ بالموقد الكهربائي وقارورة المياه. كانت قد قرأت ذات مرة في مجلة أن النساء اللواتي يرغبن بإنجاب الذكور يقتلن المولودات الإناث عبر فتح أفواههن بيد وسكب مياه تغلي في بلعومهن باليد الأخرى.

استغرقت في التفكير، فوجدت أن هذه الطريقة قد تفي بالغرض. ولكن سرعان ما استبعدت هذه الفكرة أيضاً. تمت أن تموت ولكن من دون معاناة بالغة. فبعد ما تحمّله للتو لم تكن مستعدة لتحمل ألم جسدي إضافي.

حينذاك قرّرت أن تخنق نفسها بواسطة حصيرها، فالاختناق لن يعذبها كثيراً. راحت تفكر: نعم، نعم. وملاؤها الحماسة كأنها موجودة في يوم مشمس على الشاطئ في جونية، مرفأ بيروت البديع المحاذي للبحر. اللبنانيون هم أكثر المحبين للمتعة بين كل العرب، حيث يتجمعون بأزياء بحرية مثيرة على الشاطئ ويستمتعون بنهارهم، ثم يختتمونه بتناول عشاء شهوي من السمك في أحد المطاعم الكثيرة المحاذية للبحر. ضحكت بصمت لأول مرة منذ أسابيع. نعم بالطبع ستخنق نفسها.

كانت مؤخرتها تؤلمها جداً لدرجة أنها استغرقت وقتاً حتى أفلحت في التمدد بقرب حصيرها. شعرت بالامتنان لكون المغتصبين لا يتجسسون على زنانتها، فجمعت حصير النوم الرفيع فوق رأسها وشدّته على فمها ووجهها. حبست أنفاسها وقتاً معقولاً. بدت واثقة أنها ستنجح في مسعاها، فراحت تستمتع بصورة لوجه والدتها الحنون، ووجوه باقي أفراد العائلة الذين بدوا وكأنهم يودعونها. وبمجرد أن اعتقدت بأن النهاية قد اقتربت، خرج من صدرها لإرادياً نفس أنقذ

حياتها. ظلت مقتنعة أن بوسعها النجاح في محاولة الانتحار، فأمسكت الحصير بيد ومدّت اليد الأخرى فأمسكت إبريق الشاي الكبير ووضعتَه فوق الحصير. ولكن الإبريق الثقيل سقط وتدحرج على الأرض الإسمنتية. لحسن الحظ، لم يحضر أحد لتفقد أمر هذه الجلبة. فسَجُنْ خمس عشرة امرأة واغتصابهن بوحشية يخلق جلبة متواصلة، إذ لا تنقطع كثير من النسوة عن الصياح فيما تنتحب أخريات بصوت عال. ثمة بضع نساء يتحلّين بشجاعة أكبر فيرمين حاجياتهن في أرجاء زنازينهن، وهناك امرأة معيّنة اعتادت على الطرق بإبريق الشاي النحاسي على قضبان الزنزانة. المثير للغرابة، أن مغتصب هذه المرأة لم يضربها بسبب هذه العادة، وعضواً عن ذلك سخر منها وتعهد لها بشراء سماعات بعد أن تتسبّب لنفسها بالصمم.

في الواقع، عبّر كل المغتصبين والسجّانين عن استمتاعهم بتعاسة النساء، حيث ينعتهن بالمجنونات ويسخرن منهن بالقول إن النساء بحاجة إلى الاغتصاب دائماً. في مثل تلك الأوقات كان بعض الرجال يتوجهون إلى النساء ويعطونهن ما يعتقدون، بكل غباء، أنهن يحتجنه، في حين أن واقع الأمر هو أن الاغتصاب هو الذي يتسبب بالفوضى العارمة في المقام الأول. وجدت ياسمينا صعوبة في استيعاب أساليب تفكير هؤلاء المغتصبين، فهم رجال على اقتناع بأن النساء ممتنّات لاختيارهن ضحايا للاغتصاب.

ظلت ياسمينا على قيد الحياة رغم أنها وضعت كمية من الشاي في فمها ولغّت وجهها بتنورتها بإحكام. ثم انفجرت بالبكاء، فهي ستظل على قيد الحياة. لقد استحال عليها قتل نفسها من دون أداة فتاكة كمسدس.

شعرت بألم حاد في مؤخرتها، وزاد الألم حينما حاولت الوقوف. تحسّست المنطقة بيدها فأدركت أن محاولتها الجاهدة لحبس نفسها، فجّرت شيئاً ما وتبلّلت كل مؤخرتها بالدم الدافئ. أحبطها الفشل في وضع حدّ لحياتها، فتكوّرت في وضعية الجنين على حصيرها، وراحت

تنتخب.

الفصل الثامن

لانا والوحش

لم يكن الانتحار خياراً للانا. هذا ما قالت له لصديقتها ياسمينا. لم تفكر قط بالانتحار، رغم أن فكرة الموت لم تفارق ذهنها. قالت إنها كانت تفترض أن مغتصبها أتى ليقتلها في كل مرة يفتح عليها باب زيارتها.

أسرّت لانا ذات مرة إلى ياسمينا بأنها تعتقد أن الخالق القدير تمت مقاطعته أثناء خلقه لمغتصبها، لأنه يبدو ويتصرف مثل متحوّل جنيني. وحين وصفت شكله، راحت ياسمينا ترتجف قرفاً. قالت لها إن الشعر الأسود الخشن يغطي صدره وبطنه وظهره. كان رجلاً ضخماً، يفوق لانا طولاً بأكثر من قدم، ويبلغ وزنه ثلاثة أضعاف وزنها، ووجهه مليء بالندوب وأسنانه قائمة اللون جراء سنوات من التدخين. حتى أذناه غريبتان، وتبرزان عن جانبي رأسه بشكل لم تر له لانا نظيراً. فكّرت لانا أنه لو وُلِد في الكويت، لقدّمت بعض المؤسسات الخيرية تمويلاً لإرجاع أذنيه إلى رأسه. ولو أن أي منتج سينمائي في هوليوود لمحّه، لاستخدمه، بكل تأكيد، نموذجاً لشخصية كرتونية شريرة.

أسرّت لانا إلى صديقتها أن مغتصبها يضع برنامجاً لاغتصابها، حيث يأتي للاعتداء عليها صباح كل يوم في الساعة التاسعة، وفي الثالثة عصراً، وفي منتصف الليل. لم تتغيّر هذه المواعيد رغم أن أساليب اغتصابه تتغير وفق التوقيت والمزاج. بدا أنه يستمتع إلى أقصى حد حين يراها تقاوم، وحين تبكي وتتلوى ألماً وترجوه كي يتوقّف. وكان أحياناً يعوي كالذئب أمام صرخات ألمها ورعبها.

نشر الرجل الذئب بوجوده جواً مقيتاً بشعاً بشاعة غمامة سامة تخترق السجن كله. قالت لانا إنها قادرة على استشعار وجوده قبل أن تراه. حينما تشعر بوجود هالته الشريرة، تستوي في جلستها، بانتظار سماع وقع خطواته الهدّارة. لا يُقدّم الرجل الذئب على أي عمل بخفة. ويصل دائماً في موعده. وحتى لو كانت لانا تأخذ قيلولة، تستيقظ فوراً.

وصفت لانا ذات مرة هذه الحادثة المروعة بالتفصيل لياسميننا:

بعد أن أحست بوجوده بثوان، اقتحم المغتصب زنانتها، وعيناه الداكنتان تقدحان حقداً، ثم أمرها قائلاً: «انزعي ملابسك».

قالت لانا إنّ إطاعة مثل هذا الأمر مستحيل. نهضت ببطء ووقفت، وهي لا تزال تشعر بالألم من الاغتصابات السابقة، ولكنها قاومتها، كما اعتادت دوماً أن تفعل.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر IKitab

حملق فيها الوحش خلال نهوضها وتحديقها إليه، محاولةً أن تضبط دقات قلبها المتسارعة. وقفت أمام الوحش وجهاً لوجه، وراحت أفكارها تتزاحم في رأسها، فراحت تحاول إيجاد طريقة جديدة للفوز بإحدى معاركهما.

وجّه إليها صفة ولكنه أخفق في الوصول إليها بعد أن قفزت إلى الورا. ثم أطبق قبضة يده ولطمها، فأصاب كتفها.

رمى بجسدها الصغير إلى الجهة المقابلة من الغرفة، فارتطمت بالجدار الإسمنتي.

ضحك الوحش وهو يقول: «لا يسعك فعل شيء!».

قبض على رقبتها ودفع رأسها مقابل الجدار. ركلها على معدتها وحينما انحنت، مزّق ملابسها. وجد متعة فائقة في صوت تمزّق

القماش إلى درجة أن ملامح وجهه تغيرت. ثم حدث أمر غريب لم تشهده لانا من قبل. خرجت رغوّة بيضاء من فمه.

جمدت لانا رعباً. هل تعرّض مغتصبها إلى عضة كلب مسعور؟ قبل أن تُختطف كانت أمها قد سمعت بأن الكلاب الأليفة التي أطلق سراحها الغزاة العراقيون تجمّعت ضمن قطعان وراحت تجوب الطرقات. لعل الحيوانات الجامحة قد نقلت داء الكلب إلى بعض هذه الكلاب.

وسرعان ما تناست هذا الهم لأنها كانت عارية، وبين يديّ الوحش الضخمتين اللتين أمسكتا بجسدها بعنف. سئم الوحش هذه اللعبة فخلع بنطاله، ثم رماها على الحصير لاغتصابها.

بدأت لانا تصرخ، وكانت صرخاتها تناظر صرخات هرتها التي تمرّقت أشلاء داخل محرك سيارة أخيها الصيف الفائق. هذه الصرخات المستغيثة دفعت بالوحش إلى إطلاق ضحكات عالية مثل مهرج وهو يهتف قائلاً إن صرخاتها مضحكة إلى أقصى الدرجات.

وسرعان ما لحق بلانا همّ أكبر.

لقد بُنيت الزنازين في سجن الحي الكويتي هذا ضمن صف واحد، بحيث لا تواجه زنانه الأخرى. فإذا رغب المغتصب بالحصول على الخصوصية، يتوفر له ذلك، وإنما يمكن لكل من في السجن سماع صرخات كل امرأة تتعرض للاعتداء. ومع أن المغتصبين أظهروا استمتاعاً بالتجوّل في أرجاء السجن والتفرّج على النساء، لكن أغلب المغتصبين لم يسمحوا لرفاقهم بمراقبتهم خلال اغتصاب ضحاياهم. راح مغتصب لانا يصرخ مثل مدير حلبة متحمّس: «تعالوا وتفرّجوا عليها وهي تنال نصيبها!».

ولسوء حظ لانا، تجمّع الرجال، وتصرفوا مثل أطفال في سيرك. لا ينبغي لأي طفل على الإطلاق مشاهدة السيرك في هذا السجن، الذي تحوّلت زنازينه أفضاً، وتحوّلت حيواناته نساءً أجبرن على تقديم عروض ترفيهية.

راح الجنود المتحمّسون يهتفون ويرفعون الصوت استثناساً منهم بالرزية التي تنزل بلانا، فيما قلبها الرجل الذئب في الهواء وجامعها بعنف.

كان الرجل الذئب مثل ممثل يتوق للفت الأنظار ويتحرّق لنيل استحسان المشاهدين المشجّعين. زاد المتفرّجون من حدة غروره، فزاد عنفاً في اغتصابها. وانجرف في تصرفاته بسبب تشجيع المتفرجين، فعمد إلى أذيتها جسدياً، وراح يعصّها بوحشية من رأسها حتى أخمص قدميها نظير نمر متضوّر جوعاً. وزاد الجنود من صياحهم حين اجثت بأسنانه قطعاً صغيرة من اللحم عن جسدها.

تكوّرت لانا على نفسها ككتلة من اللحم المدمّي، وفقدت الوعي. ولكنها سرعان ما استعادت وعيها حينما عاود اغتصابها ثانية.

أخيراً فرغ منها، فلوّح للجنود غير الراغبين بالمغادرة بالانصراف. فالاستعراض قد انتهى.

ارتدى الوحش بنطاله وغادر الزنزانة، ثم عاد ويده كوب من الشاي. بينما هو يدخن سيجارة ويحتسي الشاي، بدأ يعبّر بصخب عن كرهه الكويت والكويتيين. أبدى امتعاضه من نجاح الإمارة النفطية الصغيرة، فيما هو يعيش في ظل فشل دولة نفطية ضخمة. أغاظه ما أسماه عجرفة الكويتيين، والثروة التي تأخذ الكويتيين إلى لندن ونيويورك كي ينفقوا في اليوم الواحد مبالغ من المال لم ير لها مثيلاً طوال حياته.

قال بسخرية وهو يهزأ من كل الكويتيين: «أكره كل الكويتيين. لماذا يتمتع الكويتيون بالثراء فيما العراقيون يعانون من الفقر؟».

كان حقه عميقاً وحقيقياً. لعله كان فعلاً يعتقد بأنه يعاقب الكويت باختطافه الفتيات الكويتيات اليافعات واغتصابهن. لقد عجز عن إرواء تعطّشه للانتقام حتى بعد اغتصابها ثلاث مرات في اليوم على مدى أربعين يوماً. راحت لانا تعد الأيام داخل زنزانتها بتمزيق قصاصات

صغيرة من الأوراق وتكديسها في زاوية، وكل قصاصة ترمز إلى يوم يمر. قبل يوم واحد فقط عدت القصاصات. وأيقنت أنها، حتى الآن، تعرضت للاغتصاب مئة وعشرين مرة، دامت كل مرة ساعة على الأقل.

نظر إليها وتكلف الابتسام، ثم قال إن المغتصبين الآخرين يحرصون على ترطيب المناطق الحساسة للنساء بواسطة مستحضر «فازلين» لتسهيل مجامعتهن. كل النساء المسجونات تقريباً كنّ عذارى لدى أسرهن. اعترف قائلاً: «يروقني الوضع حينما تصرخين. لن أستخدم معك الفازلين يا لانا».

رغم شعور لانا بالألم، فكرت بقول ما يدفع مغتصبها إلى الرأفة بها كإنسانة، ولكنها سرعان ما وجدت أنه لا داعي لتكلف نفسها عناء المحاولة: فكلام الوحش وأفعاله لا يعكسان إلا ضرباً من ضروب الجنون. أحجمت عن إخباره أن عائلتها غالباً ما كانت تقضي العطلات في البصرة، مدينة أشجار النخيل العراقية الجميلة، أو أن والديها يكتان محبة كبيرة لعدد من العائلات العراقية والأشخاص المثقفين الذين التقيا بهم خلال قضائهم الوقت الممتع في جنوب العراق. لم تجرؤ على إخباره أنها كثيراً ما سمعت والديها يتجادلان في مسألة العراق والعراقيين، حيث اعترف والدها بأن خطاب الطاغية الملتهب مكّنه في البداية من استعطاف قلوب المواطنين العراقيين، ولكنه سرعان ما عمد، بكل بساطة، إلى تخويف العراقيين وتطويعهم. برأي والدها، العراقيون بأغلبهم طيبون، ولكنهم تعساء الحظ لابتلائهم بحاكم جائر وهو صدام، وبرجال قبيلته الذين يطيعونه طاعة غير مشروطة. ذات مرة سمعت والدها عَرَضاً يقول إن حكام العراق رجال عنيفون يقتلون الرجل بسهولة قطفهم ثمرة تمر عن شجرة النخيل، ويستحوذون على كل شيء لأنفسهم، ويستمتعون بالتمادي في تعذيب الشعب العراقي الذي تبذرت طاقاته جراء شطف العيش الذي يواجهه كل يوم.

روّعها مغتصبها أكثر حينما بدأ يفكر بعائلتها. سألتها: «أين تعيشين؟ هل لديك أخوات؟».

أجابته لانا بصوت مرتجف: «لا، ليس لدي أخوات».

«إن كان لديك أخوات، سأذهب وآتي بهن».

قالت لانا إن الوحش هنا بدأ يتخيّل، «نعم، سأوقفك أنت وأخواتك في طابور، ثم أمتّعن جميعاً». ادّعى أنه بوسعه، بمنتهى السهولة، أن يلبي حاجات كل الإناث في عائلتها. قال إنه قبل سنوات عدة، وقع الاختيار عليه لمرافقة مشرفه إلى تايلاند لشراء بعض الحاجيات للحكومة وخلال وجوده هناك ارتاد ماخوراً في بانكوك، وطلب من المسؤولة أن تحضر له ثلاث عذراى تايلانديات يافعات. كانت إحداهن لا تتخطى التاسعة من عمرها والفتاتان الأخريان لا تتعديان الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة. أولئك العذراى قضين أفضل وقت في حياتهن. لقد أساء فهم الرعب الذي ارتسم على وجه الطفلة فاعتبره استمتاعاً. ارتسمت على وجه لانا تكشيرة عريضة ربما حسبها ابتسامة جذابة.

حدّقت لانا، الفتاة النقيّة الأخلاق والقوية المشاعر إليه، وعجزت عن كبح اشمئزازها للحظة واحدة، فصرخت: «أنت وحش!».

انفجر في وجهها غضباً نظير هبوب عاصفة فوق البحر. فقفز فوقها ثانية، ودفع برأسها إلى الأرض، ثم أمسك لسانها الصغير بيده الضخمة. سحب لسانها بقوة حتى أنها حسبت أن الوحش سيجتثه. حذرهما قائلاً: «إن أهنتني ثانية، سأسحب لسانك من فمك».

لم تتلفظ لانا بكلمة، خشية إثارة غضبه أكثر.

ابتعد قليلاً ثم ركلها على معدتها. أتى بحبل كان قد وضعه في زاوية من زوايا زنانتها، وربطها لأول مرة، وبث الذعر في نفسها حينما علقها من ذراعها على مروحة السقف. وبغية الاستمتاع شغل المروحة، فراحت تدور ببطء، وتصدر صوتاً خشناً خافتاً. ظلت لانا معلقة في الهواء.

بدا مثل رجل مجنون بعينيه اللامعتين ووجهه الغاضب، فراح

يضحك أمام ارتعابها وألمها. قال إنها ستظل معلقة في مكانها بينما يذهب هو لأداء الصلاة. وكان قد حان آنذاك وقت صلاة المغرب، لذا أيقنت بأنه سيغيب وقتاً طويلاً.

غادر الوحش فتجمّع المغتصبون الآخرون قرب زنانتها للمرة الثانية للتفرج عليها، وراحوا يطلقون النكات السمجة ويتضحكون بصوت مرتفع أمام منظر وضعيتها المثيرة للإذلال. راحت ترجوهم قائلة: «أرجوكم أنزلوني. أتوسّل إليكم». فتجاهل المغتصبون رجاءها.

عاد الرجل الذئب المتوحّش بعد ساعات، وقطع الحبل، فسقطت على الأرض، وشرع فوراً في اغتصابها، وهو يلعنها هي والكويتيين قاطبة: «يحسب جميع الكويتيين أنهم ملوك. ولكن هذا الوضع انتهى الآن»، تكلم بصوت مخيف بقدر ما يخيف عضوه الذكري، وراح لسانه يتحرك جيئة وذهاباً نظير أفعى راقصة وقال لها بكل حقد: «لم يعد هناك وجود للكويت. ستصبحون أنتم الكويتيين خدماً لنا، تماماً كما حسبتم أن العراقيين وُلدوا لخدمتكم!» شغّت عيناه بمتعة فائقة حينما تلفظ بالفكرة التي تفرحه جداً: «ستتلقين هذا... في كل يوم... من... أيام حياتك... البائسة».

أغمضت لانا عينيها لشعورها بالرعب التام، لعلمها أنها لا تملك أي حول أو قوة لتردع هذا الرجل عن استخدام جسدها بالطرق الفاسقة التي يشتهيها، واستخدامه متى شاء. لقد حُكم عليها حقاً بالهلاك.

الفصل التاسع

خيار ياسمينا

مواجهة في الخليج: صُبطَ العراقيون يسلبون الكويت هويته:

«بعد أن عمد العراق إلى تجريد الكويت مادياً إبان حكم عسكري استمر حوالى الشهرين، عمدت القوات العراقية إلى نهب الحواسيب والمعدات من مدن الملاهي وحتى لمبات الشوارع والألواح المدرسية، وبذلك شرعت في بذل مجهود ممنهج لتجريد الأمة من هويتها، وفق كلام الكويتيين المنفيين وغيرهم من اللاجئين الذين غادروا الكويت في الآونة القريبة. منذ غزو الكويت في 2 آب/أغسطس، يقولون إن العراق صادر أو أتلف سجلات الحواسيب التابعة للمواطنين الكويتيين، وألغى أو أبطل كل رخص القيادة التابعة لهم، وألواح رخص السيارات وغيرها من الوثائق الثبوتية...»

والكويتيون الذين ظلوا في منازلهم، حيث اعتاش كثير منهم على ما اختزنوه من طعام إبان بدء الغزو، تعاضدوا في وجه الاحتلال، وفقاً لكلام الكويتيين المنفيين حالياً، فنظّموا لجاناً أهلية للحفاظ على تقديم الخدمات العامة وأطلقوا مقاومة مسلحة محدودة وإنما فاعلة.»

صحيفة نيويورك تايمز

29 أيلول/سبتمبر 1990

«يتعرّض بلدي لهجوم وحشي وللتدمير، وتتعرض نساؤنا لاعتداءات جنسية جماعية، ويتعرّض رجالنا وحتى أولادنا للقتل، فيما يؤيد هؤلاء المحلّلون المنظرّون الانتظار سنة أو سنة ونصف السنة

لغرض العقوبات على صدام وإخراجه. أولئك الذين يؤيدون تركنا نعاني،
فليفكروا على الأقل في دعوة العراق إلى السماح لقوة من مراقبي
حقوق الإنسان بالدخول إلى الكويت - وقد رفضوا هذا الطلب - من أجل
حماية أهلنا هناك».

الشيخ سعود الناصر الصباح،
السفير الكويتي في الولايات المتحدة الأمريكية.

تشرين الأول/أكتوبر 1990

* * *

بعد محاولة الانتحار الفاشلة، جلست ياسمينا المتوترة تنتظر،
بملابس النوم المصنوعة من القماش المخرم الأحمر، متساءلة عن
الاعتداء الجنسي الجديد الذي ستضطر إلى تحمّله. طردت فكرة
الانتحار من رأسها، لأنها لم تمت، أرادت أن تظل على قيد الحياة. قررت
أن الوقت قد حان لتحسم خيارها بين الحياة أو الموت، وكان خيار
ياسمينا الحياة.

خلال التفكير بخياراتها، تذكرت أن والدها أخبرها مرات عديدة أنها
فتاة ذكية ذكاءً استثنائياً. لذا عليها استخدام هذا الذكاء للتغلب بالحيله
على الكابتن. الكابتن رجل مغرم بنفسه إلى درجة أنه يمكن التلاعب
به. ستتلاعب به كي يقع في حبها.

ولكن، عليها أولاً أن توقف الاعتداءات الجنسية الشرجية التي
تهدد حياتها، وإلا فستذوي وتموت، ولن تتمكن من إيجاد القوة لمناورة
الكابتن والتغلب عليه. لذا ستناشد الكابتن، وتذكره بأنها فتاة صغيرة
البنية الجسدية من كل النواحي وأن عضوه الذكري الكبير آذاها كثيراً.
ستمتدحه على قدراته كعاشق رائع، وتمطره بالمجاملات لأنه يعشق
سماع الإطراءات حول مدى روعته. لعل قلبه يرق ويشفق عليها.

لم تكن ياسمينا تعرف شيئاً عن الحب الحقيقي والعلاقات

الجنسية بين الرجل والمرأة. لم تعرف إلا كيفية التعرض للاغتصاب. كان الكابتن أول رجل تراه عارياً، عدا عن تلك المرة التي كان نسيبها يزورهم فيها في فيلتهم في بيروت. كان الفتى المسكين في الحمام حينما حلقت الطائرات الإسرائيلية فوق المدينة ضمن مهمة لزرع الرعب في نفوس المواطنين اللبنانيين. حينما احترقت إحدى الطائرات جدار الصوت، ارتعب نسيبها وخرج بسرعة من الحمام دون أن يرتدي سرواله. شعرت بإحراج بالغ يشوبه الفضول، ولكنها لم تر الكثير لأنه كان يافعاً غير مكتمل النضج ويده تغطي مساحة كبيرة من منطقتة الحساسة.

حينما لم يعد الكابتن، حظيت ياسمينا بلحظات سعادة نادرة، وتحديداً حينما أخبرها جندي أن الكابتن لن يعود إلى السجن حتى صباح اليوم التالي. إذ تم استدعاؤه إلى المقر، حيثما كان موقع هذا المقر.

أثار هذا الخبر الفضول في نفوس الجميع. راحت ياسمينا تصغي بإمعان بينما راح الجنود يتبادلون آخر الشائعات من بغداد. كان المقاتلون الكويتيون قد عمدوا في الآونة القريبة إلى تفجير مبان عدة تأوي جنود الأعداء. كما نصبوا كمائن لفرقة عراقية تتألف من خمسة عناصر وقتلوهم، فاستشاط صدام غضباً. راح الجنود يثرثرون حوالى ساعة بأصوات مرتفعة، متساءلين إن كان صدام قد أصدر لهم أوامر بالإطباق أكثر على الكويتيين.

تساءلت ياسمينا عما يمكن للعراقيين أن يفعلوه أكثر بالكويتيين. فقد استولوا على بلدهم، ونهبوا مؤسساتهم ومنازلهم، وقتلوا رهطاً من الشبان، واغتصبوا النساء وقتلوهن.

أخيراً توجه الرجال المتململون إلى زنازين مختلفة، لاغتصاب النساء، اللواتي راحت صرخاتهن المكتومة تتردد في أرجاء السجن.

داخل المقاومة الكويتية

مهمّة: خلال حرب الخليج، وردت تقارير مجتزأة حول وجود حركة مقاومة منسّقة في الكويت، وأرادت صحيفة نيوزويك أن تعرف المزيد. بعد التحقيق مع الأميركيين الذين هربوا من الكويت، وجدت شخصاً ادّعى - على نحو موثوق - أنه كان منخرطاً في المقاومة وبوسعه تقديم تفاصيل.

لم يقدّم ريكرت أرقاماً محدّدة ولكنه ادّعى أن المقاومة «يديرها بعض الرجال العسكريين وكثير من رجال الأعمال، وفي الآونة الأخيرة تطوّع بعض الأفراد للمشاركة فيها. أعتقد أن 98 في المئة من المقاومة هم من الكويتيين... هناك أعداد كبيرة من الأشخاص في كل مكان وأكثر ممّا تتخيلين... وهم يقاومون بشتى السُّبل الممكنة». يشير ريكرت إلى أن كثيراً من الجنود في الجيش الكويتي أُعدموا إبان أول أيام الغزو. أما أولئك الذين هربوا فقد نجحوا في الهروب من خلال استخدام أوراق هويات مزورة.

صحيفة نيوزويك

20 كانون الأول/ديسمبر 1990

بعد أن انتهت الاغتصابات المسائية وانحسر عويل النسوة، توقّعت ياسمينا أن تحظى بنوم هانئ. لأول ليلة منذ أسرها، كانت واثقة بأن الكابتن لن يوقظها ليبتليها باعتداء مؤلم آخر. رغم اغتصابه لها مرات عديدة، كانت كل مرة تبدو لها وكأنها المرة الأولى، فتشعر أنها تتمزّق إلى جانب شعورها بالخزي والإذلال.

خلعت ثوب النوم الأحمر بعد أن شعرت فجأة بأنه منقّر على جسمها وارتدت قميصاً خفيفاً وسروالاً، وأحسّت بأن حالها تحسنت عما كانت عليه منذ ساعات. استلقت وتدنّرت ببطانيته الزهرية الجديدة، وهي هدية من الكابتن. أخذت نفسها عميقاً واسترخت.

راحت تفكر بالمقاتلين الكويتيين الشجعان، وتمنت لو أنها طليقة حرة كي تساعدهم ثانية. بعدما رأت بأم العين مدى وحشية المحتلين، دعت أن يحقق الكويتيون النجاح تلو الآخر. لا بد أن الكويتيين ينفذون هجمات فتاكة حتى استفزوا رد الفعل المدروس هذا من بغداد. اعترافها الفضول لمعرفة مزيد من التفاصيل، ولكنها غفت علماً منها أنها ستكتشف ذلك قريباً: مع توالي الأيام، ابتهج الكابتن بصوته الخاص وكذلك بجمهوره المؤلف من امرأة واحدة. لم يساور ياسمينا أي شك بأن الكابتن سيخبرها بكل شيء لدى عودته من المقر.

ستعمل ياسمينا على نقل المعلومات التي سيكشفها لها الكابتن إلى لانا، على أمل أن ترفع معنوياتها. فالفتاة المسكينة وصلت قوتها الجسدية والمعنوية إلى الحضيض، وأصبحت على يقين من أنها لن تتحرر أبداً، وأن الاعتداءات الفظيعة التي تتعرض لها لن تنتهي إلا حينما يقتلها مغتصبها.

نامت ياسمينا على نحوٍ أعمق من المعتاد، وبعد بضع ساعات صحت على صوت صرخات تمرق القلب، ولا يعقل أن تكون صادرة إلا من فتاة واحدة. لانا! كانت لانا المسكينة تتعرض لاعتداء منتصف الليل كالعادة.

غطت ياسمينا أذنيها بيديها ودست رأسها تحت الحصير، ولكن لا شيء أمكنه صد عويل لانا. نظرت ياسمينا من تحت البطانية إلى الساعة الموجودة على الطاولة، لتوقّت مدة الاعتداء مع مرور الدقائق الطويلة: ساعة وعشرون دقيقة. قام مغتصب لانا باغتصاب ضحيته فترة أطول من المعتاد. علمت ياسمينا أن كثيراً من الفتيات الأخريات في السجن يأسفن لحال لانا أكثر من أسفنهن لحالهن. وأوضحن ذلك من خلال صياحهن تعبيراً عن أسفنهن وتعاطفهن مع حالة لانا قائلين للفتاة اليافعة: «تحلّي بالقوة! سينقذك الله!»

مرّت أوقات شعرت فيها ياسمينا أن صرخات لانا هي الشيء الوحيد الذي يبقي ضحايا الاغتصاب الأخريات على قيد الحياة. فلدى

مقارنة أوضاعهن مع عذابات لانا، يتذكرن جميعاً حسن حظهن لأن الاختيار لم يقع عليهن من قبل مغتصب لانا.

أخيراً سمعت ياسمينا وقع الخطوات المعروفة لمغتصب لانا. كان يغادر السجن. تظاهرت بالنوم ولكنها نظرت إليه شزراً وهو يمر بمحاذاة زنزانتها. كانت مشيته عادية جداً وكأنه رجل عادي يتمتع بنزهة على الشاطئ وليس شيطاناً يستمتع بتعذيب فتاة تبلغ السادسة عشرة من عمرها على نحو متكرر.

انكمشت على نفسها حينما توقّف الوحش كي يعدّل عضوه داخل سرواله. تلك النظرة الخاطفة الوحيدة ذكّرت ياسمينا بالتفاصيل المخيفة التي أخبرها بها الكابتن عن الوحش.

مغتصب لانا هو الأكثر سادية بين كل الرجال، ووفقاً للكابتن، فهو رجل يملك سلاحاً مرعباً داخل سرواله. كان عضوه الذكري ضخماً للغاية إلى درجة أن المغتصبين الآخرين يسمونه عن طريق المزاح «أكبر...».

لم تنس ياسمينا نظرة التعجب التي ارتسمت على وجه الكابتن حينما وصف لها قضيب الوحش. ادّعى الكابتن أنه أكبر حجماً من قضيب عمه نصار، الذي كان ضخماً جداً حتى أن زوجة نصار المسكينة كانت تركض مرتعبة من غرفة إلى أخرى كلما طالبها نصار بحقوقه الزوجية. وذات مرة حاولت أن تهرب من النافذة، ولكن نصار أمسك بها ورأسها متدلّ من النافذة فيما جسمها داخل المنزل، وجامعها في موقعها هذا.

راحت النساء في المنازل المجاورة يختلسن النظر من نوافذهن لتحديد مصدر الجلبة. وجلّ ما رأيته هو زوجة نصار مدلاة من النافذة وقسمات وجهها ملتوية وصرخاتها تعلو. ذكرت إحدى النساء لاحقاً أنها لم ترَ في حياتها منظرًا مثيراً للضحك بهذا القدر. ولكنها لم تأسف إلا لعدم حيازتها كاميرا فيديو كتلك التي يستخدمونها في بوليوود. أمكن

للمشهد أن يكون فيلماً كوميدياً يستمتع بمشاهدته الجميع، وفي الحقيقة كان ترفيهياً أكثر من الفيلم الكوميدي الذي شاهدته في دار السينما في بغداد حينما سافرت إلى هناك لزيارة نسيبتها.

لم تكن الجارات يعلمن بأمر سلاح نزار السري الضخم، فافترضن أن جارتهم تتعرض للضرب لإنفاقها كثيراً من المال، أو جراء إفراطها في طهو الوجبة المسائية، وهي الانتهاكات الممثلة العادية التي تتسبب للمرأة بالضرب في العراق.

لمجرد التفكير بالألام والرزايا التي ينزلها المغتصب المتوحش بلانا ذات الجسم النحيل، دفنت ياسمينا رأسها بين ذراعيها رغبة منها بالنحيب على صديقتها، ولكن الدموع جفت هذه المرة من مآقيها.

استغرقت في التفكير بلانا ساعات طويلاً. باتت تحنّ على الفتاة الكويتية، واعتبرتها الأخت الصغرى لها، الأخت التي عليها حمايتها. ولكن حماية فتاة بقدر جمال لانا، داخل سجن مليء بالمغتصبين، سيكون أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً. لم يصعب على ياسمينا تفهم سبب ولوع كل المغتصبين بجمال لانا، الأمر الذي دفع بهؤلاء الرجال الراشدين إلى نَقْف القطع النقدية على أمل امتلاكها.

أيقنت ياسمينا أنه في حال سئم المغتصب الوحش من لانا، فمن المرجح أن يقوم المغتصبون الآخرون بالاقتراع عليها، باستثناء حالة واحدة: أن يتم رميها بالرصاص. سيشرع هؤلاء الجنود في نَقْف القطع النقدية من جديد، وسيتم نقل ملكيتها إلى جندي آخر ليفعل بها ما يشاء.

لكن جمال لانا ليس هو أساس جاذبيتها، على الأقل بالنسبة إلى ياسمينا. فلانا فتاة يافعة أفلحت في الحفاظ على براءتها وهي في عين الشر. حتى حينما تكون لانا غارقة في الألم الشديد، تحيي ياسمينا بأرق ابتسامة وأعذبتها، مبدية اهتمامها دوماً بعافية ياسمينا.

هدأت صرخات لانا ببطء، ولكن ياسمينا لم تقوَ على إبعاد صورة ما

قاسته لانا عن ذهنها. وبعد أن استحال عليها النوم، نهضت أخيراً عن حصيرها لتحضير كوب من الشاي الساخن.

خلال ارتشافها الشاي، راحت ياسمينا تفكر من جديد في وضعها. أيقنت أن الكابتن يدخل مرحلة جديدة وخطرة. فهو لا يزال يغتصبها منذ أسابيع وبدا أنه أصبح يملّها، ونجم عن هذا الملل انتهاك خطير أدى به أخيراً إلى اغتصابها من الخلف. أيقنت ياسمينا أنها عاجزة عن تحمل الاغتصاب الشرجي بشكل يومي.

هناك رجل واحد فقط يحمل حياتها بين كفيه وهذا الرجل هو الكابتن. إذا بقي الكابتن يشعر بالملل، فلا بدّ أنه سيعمد إلى رميها بالرصاص، كحال الفتاتين الكويتيتين اللتين سبقتاها. ينبغي للرجل الذي يسيطر على جسدها أن يرغب ببقائها على قيد الحياة وإلا فستموت. بالنسبة إلى الكابتن، ياسمينا ليست شابة لديها أحلام ومخططات حياتية، وإنما مجرد جسد أنثوي فيه أجزاء مرغوبة بوسعه انتهاكها عند رغبته. وصادف أنها تملك رأساً فوق جسدها، رأساً لا يهم الكابتن البتة.

خيار ياسمينا بالعيش يعني أن عليها تعزيز مهاراتها التمثيلية. عليها أن تصبح ممثلة موهوبة كي توقع الكابتن في حبها. ما لم يحبها فسرعان ما ستشغل زنانتها فتاة أخرى، فيما يتعقّن جسدها هي في قبرها.

تذكرت ياسمينا قصة ألف ليلة وليلة، وهي قصة الملكة شهرزاد وزوجها الملك شهريار. كانت والدة ياسمينا قد قصّت عليها هذه القصة حينما كانت صغيرة، وهي قصة ملكة ذكية خدعت ملكها.

تدور القصة حول الملك شهريار الذي اكتشف أن زوجته خانته، فأعدمها. ووسط غضبه وحزنه، بدأ يتزوّج بالعدراوات، واحدة تلو أخرى. كان مقتنعاً تماماً أن كل النساء خائنات فعمد إلى إعدام كل عدراء صباح اليوم التالي لزفافهما. حينما لم يعد يجد عدراء ليتزوجها، لجأ إلى

وزيره، والد شهرزاد، وطلب الزواج من ابنته.

لكن شهرزاد كانت فتاة ماكرة، فحكّت في ليلة زفافها للملك حكاية ولم تخبره بنهايتها. وكانت كل ليلة تكرر الأمر عينه. تبدأ بالحكاية، ولكنها لا تنهيها. فواصل الملك تأجيل إعدامها حتى يسمع النهاية. واستمرت هذه الحال ألف ليلة وليلة.

فكرت ياسمينا في شهرزاد وقتاً طويلاً. كانت هذه الشابة قد اكتشفت نقطة الضعف في ملكها، إنه يهوى سماع الحكايات، وبمجرد أن يسمع الحكاية يصر على معرفة نهايتها. آنذاك أيقنت ياسمينا أن الكابتن لا يهمه سوى الاغتصاب والجنس. لذا عزمّت على إغوائه، بأن ستحوّل امرأة تستميل الكابتن بفتنة جسدها، وهو أسلوب أملت أن يأسره بما يكفي كي يبقّيها على قيد الحياة.

ستكف ياسمينا عن الانتحاب والتوسّل، وعضاً عن ذلك ستصبح خبيرة في شؤون كابتنها والسجن الذي بات دارها. ستراقب كل ما حولها، وتتعوّد على إيقاع سجن الجنس، وتسترق السمع عندما يتحدث الجنود فيما بينهم حين تسنح الفرصة.

* * *

في اليوم التالي، حينما أتى الكابتن إلى زمراتها كان في مزاج جدل، ومن دون أدنى شك كان يفكر في اغتصاب ياسمينا بالطريقة عينها التي اعتمدها خلال الزيارة السابقة.

سرّع هذا الخطر الداهم تطبيق ياسمينا لاستراتيجيتها. كانت قد تمرّنت مرات عديدة ذهنياً على اعتماد خيار العيش، فبدأ الآن هذا الخيار أمامها نظير مخطّط منظمّ بعناية.

قالت: «أيها الكابتن، أستئذّنك بالحديث عن موضوع مهم جداً».

انتظرت إشارة جسدية منه يأذن لها فيها بمواصلة الكلام.

حدّق إليها وهو مقطّب الجبين. ثم أخيراً هز برأسه مانحاً الإذن.

«على مدى الأسابيع القليلة الماضية أراك رجلاً مميزاً. أريد فعلاً إرضاءك، فأنا أهتم لأمرك. ولكن أيها الكابتن، لا يمكن للمرأة المعطوبة أن تكون مثيرة. كيف عساي أكون مرغوبة إن كنت أتألم؟».

جلس الكابتن دون حراك، وراح يدخن سيجارة.

بدا صوت ياسمينا هادئاً جداً، على الرغم من أن دقائق قلبها كانت تتسارع. «أيها الكابتن جسمك ضخم جداً، وجسمي ضئيل الحجم. عضوك الذكري كبير للغاية وفتحة مؤخرتي ضيقة. من الصعب جداً أن تقحم شيئاً بهذا الحجم الكبير في فتحة صغيرة كهذه دون التسبب بضرر بالغ».

ادّعت أنها تملك مشاعر لا وجود لها، ثم مسحت على ذراعه وقالت له: «أصبحت أقدر الجنس وأعرف مدى روعته. ولكن من الأفضل أن نمارس الجنس بالطريقة الطبيعية، كما أراد الخالق للرجل أن يجامع المرأة».

بدا الكابتن فجأة مسروراً حينما لمست ياسمينا بخفة منطقتي الحساسة وهمست قائلة: «أنت أفضل رجل في الكويت، من حسن حظي أنك اخترتني». ثم ترددت واستجمعت قوتها قبل أن تتفوه بأكبر كذبة: «أظن أنني بت أكنّ لك مشاعر قوية». احمرّت خجلاً ونظرت إلى أسفل: «هل سبق لك التفكير في اتخاذ زوجة ثانية؟».

لم يبدُ الكابتن متفاجئاً جداً، لأنه كان مقتنعاً أنه يملك مهارات العاشق المنقطع النظير «الكازانوفا» ولكنه مال برأسه إلى الخلف وضحك بصوت عال، مستمتعاً باللحظة. ثم نظر إلى ياسمينا وقال: «كنت أفكر في اتخاذ زوجة ثانية». ثم غمز وأضاف: «الآن بت أملك المال».

أجبرت ياسمينا نفسها على الابتسام مدّعية أن الكابتن هو الرجل الذي تحلم به. وفيما رسمت على وجهها تعابير الخضوع والطاعة، راح ينشط ذهنها الخصب، المتخم بكرهه وكره كل الجنود

العراقيين في الكويت. بالطبع، كان يملك المال فالجنود العراقيون ينهبون الكويت والكويتيين منذ أسابيع. أكثر الكويتيين الذين يعيشون في العاصمة الكويتية يتمتعون برخاء مادي، ومنازلهم مزدانة بأشياء رائعة وتحتوي على خزانات ضخمة مملأة بالمجوهرات الباهظة الثمن، على الأقل كان هذا واقع الحال قبل أن يستقر الجراد العراقي في المدينة، ويجرّدها من كل ثرواتها.

وعدها الكابتن قائلاً: «سأعتني بك يا عزيزتي. لن أؤذيك إن شاء الله».

* * *

بعد حديثهما، وبعد أن بدأت ياسمينا تؤدّي دورها الجديد كامرأة مرغوب بها لا تشبّع من الجنس، تحسنت حياتها كثيراً. بدا الكابتن سعيداً مثل عريس يؤسّس منزل الزوجية لعروسه. وأمر في ذلك اليوم بتعليق ستائر على قضبان زنانتها، وهدّد رجاله المشدوهين بالعقاب في حال تجرأ أحدهم على النظر إلى امرأته. تم استقدام خزانة صغيرة إلى الزنانة، احتوت مجموعة من الأطعمة اللذيذة التي لم ترها ياسمينا منذ أسابيع، ومجموعة من شرائط التسجيل الموسيقية لأشهر المغنين العرب. ثم سرعان ما استُخدمت حاجيات أخرى إلى زنانتها من ضمنها كرسي مريح، ومروحة توضع على الأرض لتكمل عمل مروحة السقف، وثلاجة صغيرة، وموقد كهربائي للطبخ، إضافة إلى طاولتين وكرسيين مستقيمي الظهر. واستعيض عن الدلو البلاستيكي بحوض كبير لكي تستحم فيه، وتم تعليق ستارة بلاستيكية حول منطقة المرحاض. امتلأت زنانة ياسمينا فجأة بكل ما من شأنه أن يسهّل الاحتجاز عليها.

لاحظت ياسمينا أن مشية الكابتن تغيّرت وتحولت إلى مشية تبخترٍ كالتاووس. افتخر بأن ضحية اغتصابه وقعت في غرامه ووافقت على الزواج منه. ومع توالي الأيام بطيئة، أخذت مخاوف ياسمينا حيال الموت تتبخر. لاحظت أن مكيدتها أعطت نتيجة مثل عصا سحرية.

وحيثما بدأ يسرق الملابس المصمّمة لهما، أيقنت أنه يرسم خطة لأخذها إلى وطنه العراق ليتفاخر بها أمام سكان قريته. ليس ثمة رجل في قريته العراقية الصغيرة يحلم أن يحظى بزوجة ثانية بقدر جمالها.

على الرغم من ارتياحها لعلمها بأنه لن يأمر بإعدامها، وتفاؤلها بأنه لن يعاود اغتصابها من الخلف، وجدت أن التظاهر بحب رجل يغتصبها هو أصعب ما قامت به في حياتها. بدا الخداع تقريباً يضاهاى الاغتصاب إيلاماً. إذ إنها شعرت من أعماقها بالمقت والاشمئزاز عند لمسها لها، ولكنها كانت تظهر الاستمتاع والفرح كلما اغتصبها. حتى أنها حفّزته على ممارسة الجنس معها، فكثيراً ما كانت تفاجئه إثر انتهاء المجامعة بطلب معاودة الكرة ثانية. ولكن ياسمينا أيقنت أنها تمارس لعبة خطيرة، فإذا اشتبه الكابتن يوماً بحافزها الحقيقي من إعلانها الحب، سيرديها بنفسه قتيلاً، ولن يعتمد على سواه من الجنود للقيام بذلك.

* * *

بتوالي الأيام، أمست ياسمينا خبيرة في التجسس، وفي ادّعاء القراءة أو تنظيف زنانتها فيما هي تصغي إلى الجنود وهم يثرثرون حول حياتهم كمغتصبين. تناهى إلى علمها أن السجن يُدار وفق مخطّط واضح، وضعه الكابتن. في البداية، سُمح لكلّ منهم بانتقاء امرأة خاصة، ثم تمسي هذه المرأة ملكاً للجندي، يفعل بها ما يشاء. المغتصبون لا يتشاركون في ضحاياهم، لا يُسمح لأيّ منهم بأن يملي على الآخر كيفية معاملته لضحيته. كل الجنود أحرار في الاغتصاب والتعذيب والقتل، دون أن يسألهم أحد.

ثمة شيء واحد فقط مُنع عليهم، وهو التكلّم مع أحد من خارج السجن حول نساءهم. عليهم ألا يكشفوا أي تفاصيل عن عبداتهم الجنسيات لأي شخص خارج دائرتهم المُحكّمة، حتى لجنود عراقيين آخرين. عمد الكابتن إلى إبعاد الجنود العراقيين المنتمين إلى وحدات أخرى عن هذا السجن، حيث يقوم بهز كتفيه قائلاً لكل الفضوليين إن

سجنه عبارة عن مكان خاص للسجناء الخطرين، وإن لديه أوامر خاصة تقضي بمنع الجميع من دخوله.

لقد تكتموا على سلوكهم البغيض، فحُيِّل إليهم أن تصرفاتهم ليست جرائم.

كان كثير من الكويتيين في ذلك الوقت يُحتجزون في جميع أنحاء العاصمة لدرجة أن ما من جندي يسائل الآخر. بدا الجيش العراقي أشبه بوحش عملاق يجثم فوق صدر العاصمة الكويتية، وحش يملك ذراعين طويلتين تمتدان إلى كل حي. تمتع الجنود العراقيون بحرية السرقة والاعتصاب والتعذيب والقتل ولم يحاسبهم أحد.

علمت ياسمينا أن هناك قوانين أخرى مخيفة أكثر في السجن الجنسي. فحينما يرغب المعتصب بفتاة جديدة، عليه تبجيل أوامر الكابتن لناحية أنه لا ينبغي لأي شاهد أن يعرف عن مصير النساء الضحايا. كلما تم «استنفاد» فتاة ما، يتم إعدامها. لا ينبغي إطلاق سراح أي امرأة وإلا ستشهد على تفاصيل وجود سجون اغتصاب. بدا الكابتن يعرف مدى شهامة الكويتيين. ولو علم الرجال الكويتيون بما يجري للنساء البريئات، لشتوا هجوماً على السجن.

كانت النساء يُغتصبن، وبمجرد أن تحبو الرغبة بهن، يتم إعدامهن. وكان الكابتن رجلاً ذكياً، أيقن أنه قد يصعب على الرجل إعدام المرأة التي اغتصبها طوال أسابيع. لذا تقرّر أن يقوم أصدقاء المعتصب بإرداء أي فتاة لم تعد مرغوبة. فيجرّها رجل تجهله الفتاة إلى الخارج، ويضعها في الزاوية المحاصرة الصغيرة خلف السجن، ويربطها إلى عمود الإعدام، ثم يطلق النار عليها.

ذات يوم عمد الكابتن الذي كان مزاجه معكّر نتيجة أداء ياسمينا الجنسي غير المرضي إلى توجيه تحذير لها: «هناك عمود طويل خلف السجن، مثل الذي ترينه في الأفلام العسكرية القديمة، حيث يتم إعدام الجواسيس. نربط الفتيات إلى ذاك العمود ثم نعدمهن».

لم تسمع ياسمينا قط أي شيء عن مكان دفن الفتيات. وذات مرة سمعت عَرَضاً أحد الجنود يتبجح بأنه أخذ جثتي فتاتين ورماهما في حاوية القمامة أمام واجهة متجر. بوجود غمامة الإعدام المروعة وهي تدور فوق رأسها، شعرت ياسمينا بتوتر بالغ حال دون سؤالها الكابتن عن مكان دفن الفتيات. حقاً لم ترد أن تعرف.

* * *

(تبعد مقبرة الرقة ثمانية عشر ميلاً عن العاصمة الكويتية. عُرف عن الجنود العراقيين أنهم كانوا يرمون الضحايا، ومن ضمنها ضحايا الاغتصاب، قرب حاويات القمامة أو في المقابر المحلية. إليكم تالياً مقال عن هذه العادة، كُتب عقب تحرير الكويت).

صفوف من القبور الحديثة في مقبرة كويتية تشهد بصمت على
الفظائع العراقية:

«كل قبر حُفر حديثاً في مقبرة الرقة يحمل قصة. يسرد السيد محمد هذه القصة بنبرة هادئة وحصيفة أثناء سيره بين القبور».

صحيفة ذا باليمور سان

4 آذار/مارس 1991

* * *

أيقنت ياسمينا أنه لا يسعها أن تتوقع تلقي المساعدة من أحد، فراحت تساعد نفسها بنفسها. لم تتمنّ آنذاك إلا تقديم المساعدة لانا والنساء الأخريات.

كانت غالبية الشابات والنساء المأسورات جميلات، لأن المفتقرات إلى الجمال لا يُحتظن لأجل اغتصابهن. وكانت بعض النساء متعلّقات وجميلات، نساء كن ليتزوجن رجالاً بارزين في مجتمعاتهن، سواء كنّ كويتيات أو لبنانيات أو سعوديات.

اشتعل المغتصبون حماسة لأنهم وجدوا أنفسهم مع نساء
حميلات ما كانوا يحلمون أن ينظرن إليهن نظرة ثانية في ظرف طبيعي.
كحال الأطفال في متجر حلويات، بدأ المغتصبون فرحين مستبشرين
بحسن حظهم، وابتهجوا لقدرتهم على الحصول على أي امرأة يرغبون
بها، ولتمتعهم بحرية الانغماس في أي متعة جنسية.

بوجود رجال عتاة يغتصبون نساءً مذعورات، خلت جنّات ذاك
السجن المقيت من أي مظهر من مظاهر الحياة الطبيعية.

الفصل العاشر

السير على خيط رفيع

اللاجئون العراقيون يروون أهوال جرائم القتل والاعتصاب
العراقية

روى آخر اللاجئين الوافدين إلى هنا، عقب فرارهم من الكويت، قصصاً مؤثّرة عن مواصلة ارتكاب العراقيين لجرائم القتل والاعتصاب والتعذيب والتهجير القسري للمدنيين. من بين الضحايا فتاة تبلغ الثانية عشرة من العمر تعرّضت لاعتداء جنسي قبل أسبوعين، استناداً إلى رواية مفصّلة قدّمها طبيبة كويتية قالت إنها اعتنت بالفتاة المعتدى عليها «...» وقالت: «تزايد اليوم جرائم الاعتصاب بنمط متكرر على ما يبدو، نظير مرض معدٍ. حيث يدخل الجنود العراقيون إلى منزل ما، يربطون الرجال، ويسرقون الأغراض الثمينة ثم يغتصبون النساء. أغلب النساء اللواتي عاينتهن تعرّضن للتحرش ثم الاعتصاب الشرجي. حينما رأيتهن كن في حالة صدمة، أنكرن ما تعرّضن له». أفادت الطبيبة بأن الفتاة البالغة اثنتي عشرة سنة تعرّضت لاعتداء من قبل جندي عراقي كان ضمن مجموعة اقتحمت منزلهم في ضاحية البيان في مدينة الكويت قبل أسبوعين.

صحيفة نيويورك تايمز

2 كانون الأول/ديسمبر 1990

تمر أوقات مرعبة تمتزج فيها أحداث معيّنة مع انفعالات إنسانية
فتسبّب للشخص جنوناً مؤقتاً.

هذا ما أصاب ياسمينا عصر أحد الأيام حين كانت تطلي أظافرها بطلاء أعطاها إياه الكابتن. اللون الأحمر الياقوتي الناصع كان المفضّل لدى الكابتن. انتقلت حينذاك بسرعة من الحالة العقلية السليمة إلى حالة جنون بسبب صرخات لانا التي تصم الآذان.

ملأت هذه الصرخات الجو على نحو يفتك بأي قلب رؤوف. هزّت ياسمينا رأسها وأخذت نفساً عميقاً، وراحت تقول في نفسها إن صرخات لانا عالية جداً تسبّب الصمم. ولو قام حراس السجن بتنظيم مسابقة، لما تفوّقت صرخات السجنيات الأربع عشرة الأخريات مجتمعة على صرخات هذه الشابة اليافعة. كانت المسكينة لانا لتفوز بجائزة لا ترغب بها أي أنثى أخرى.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر IKitab

نظرت ياسمينا إلى الساعة المزخرفة التي سرقها الكابتن من متجر مجوهرات لوضعها على الطاولة خارج زنانتها. كانت تشير إلى الثالثة عصراً، موعد الاغتصاب الثاني للانا في ذلك اليوم.

حتى قبل أن ترى ياسمينا لانا، شعرت بمعاناة هذه الشابة المجهولة بالنسبة إليها. والآن بعد معرفة القليل عن لانا والوحش، رسمت صرخات لانا الرهيبة صوراً لا تُحتمل في ذهن ياسمينا. كل ما في لانا كان صغيراً وناعماً، فيما كان الوحش شرساً وعملاقاً.

فيما ازدادت حدّة صرخات لانا، انتقل الجنون من زنانة لانا إلى زنانة ياسمينا. فبدأت يداها ترتجفان، على الرغم من أن هذه الحالة لم تكن خارج نطاق المألوف. وحين انتقلت الرجفة من معصمها إلى ذراعيها ثم إلى كتفيها وبعدها إلى رقبته، أيقنت ياسمينا أنها وقعت في مشكلة. ازدادت حدة الرجفة التي دبّت في رقبته وكامل جسمها إلى درجة غير قابلة للسيطرة، فتذكّرت تلك المرة التي زارت فيها مدينة ملاه في بيروت. حينها ضحكت كثيراً وهي تترجّح من جهة إلى

أخرى، ولكن ارتجاف جسمها هذه المرة ليس مسألة تثير الضحك.

حينما وصلت صرخات لانا إلى مستويات عالية جديدة، شعرت ياسمينا أنها تفقد سلامة عقلها، صاحت وهي تن: «كفى، كفى، كفى رجاءً».

عليها أن تفعل شيئاً ما لتوقف صرخات لانا وتكبح جنوحها نحو الجنون، ولكن ما أمكنها فعل شيء لأنها محتجزة داخل زنانة، عاجزة عن مساعدة صديقتها المحتجزة في زنانة أخرى والتي تتعرض للاغتصاب حتى الموت بواسطة أضخم عضو ذكري يعرفه الرجال الذي يؤثرون مثل هذه الأمور.

توسّلت قائلة: «فليوقفه أحد»، ثم رمت طلاء الأظافر على الأرض ونهضت على رجليها. ودون أن تدري شعرت أن جسدها يهتز، فيعلو ثم يهبط نظير حمار يخبّ على جمرٍ حام.

راحت الأمور تزداد سوءاً لحظة بعد أخرى. تتمتع ياسمينا بالسرعة والرشاقة منذ طفولتها، ولكن فجأة راح جسدها بأكمله يرتجف بقوة، إلى درجة أن المرء يخالها تتعرض للتهديد من قبل وحش لانا.

صودف مرور أحد المغتصبين قرب زنانتها، فاسترعى انتباهه سلوكها الغريب وأجبره على النظر إليها، على الرغم من أن الكابتن منع كل رجاله من ذلك. توقّف وراح يحدّق إليها. وأعجبه المنظر، فنادى رفاقه. هرع المغتصبون للوقوف أمام زنانتها، ثم تحلّقوا للتفرج على حركاتها الغريبة.

نادى أحد المغتصبين قائلاً: «ما هذا؟ هل هي استعراضية في سيرك؟».

بالفعل كانت ياسمينا تقدم استعراضاً مسلياً. فتارة تلمسك بقضبان زنانتها وتارة تحاول تسلق الجدران، وتقحم أظافر قدميها

داخل الشقوق الإسمنتية. فقدت كل اتصال لها بالواقع، ثم ما لبثت أن أقحمت رأسها تحت فراشها ورفعت مؤخرتها. فدفعت هذه الوضعية غير الطبيعية السجانين الأجلاف إلى الضحك بسخرية.

وافقه الرأي مغتصب ثانٍ قائلاً: «لا بد أنها واحدة من المعنويات اللواتي يمكنهن لوي أجسادهن نظير بسكويتة معقودة. لقد شاهدت مثل هذه الحركة حينما تم استقدام سيرك من بودابست إلى بغداد».

قال مغتصب آخر قصير القامة وسمين على سبيل السخرية: «لدينا سيركنا الخاص هنا. لعل بوسعنا أخذ فتاة الاستعراض هذه إلى بغداد وبيع تذاكر للناس كي يتفرّجوا عليها».

حينما لقت ياسمينا جسمها بشكل معقوف، أعادتها القهقهات الشريرة من عالم الجنون إلى أرض الواقع. فانهارت على حصيرها وغطت جسدها المرتجف ووجهها المحمرّ ببطانتها الرقيقة. انتابها الدوار جراء حركاتها، فراحت تهمس بصوتٍ خفيضٍ متسائلة: «ماذا حصل؟».

سمعت المغتصبين يتحدثون بحماسة عن سلوكها الغريب ورجفتها العجيبة، فأيقنت أنها انتقلت ذهنياً إلى مكان، حتى هي لا تعرفه. تساءلت إن كانت قد تصرّفت نظير النزلاء البائسين في «العصفورية»، وهي المؤسسة السيئة السمعة في بيروت التي بُنيت للمجانين خصيصاً. كان نسيب لها، وهو طبيب، قد أخبرها عن هذه المؤسسة الغريبة، وعندها أصغت بعناية إلى وصفه الدقيق لحركات المرضى الغريبة وقدراتهم الجسدية الاستثنائية.

خشيت ياسمينا من أنها إذا لم تخرج في أقرب وقت من هذا السجن المقيت، فستكون لدى عودتها إلى لبنان مؤهلة تماماً لشغل سرير في هذه المصحة بالذات. ولعل نسيبها سيكون الطبيب الذي سيدخلها إليها. وعندها ستجلس في زاوية ما طوال النهار وتعاود عيش أهوال حياة العبودية الجنسية في ذهنها، إذ إن أغلب نزلاء تلك

المصحة يعيشون في ماضيهم الذي يطاردهم.

عادت أفكارها إلى الواقع حينما تفرّق المغتصبون بتردد
للانصراف إلى أعمالهم.

آنذاك كانت صرخات لانا قد خفّت فأصبحت أنات خفيضة.

قلبت ياسمينا إلى جنبها، وهي تفكر من جديد في كيفية
مساعدة نفسها وكل الفتيات الأخريات. سيحتاج مثل هذا الإنجاز إلى
معجزة، إلا أن ياسمينا تؤمن بالمعجزات.

* * *

إن خيار ياسمينا بفعل ما يتحتم فعله للبقاء على قيد الحياة ازداد
رسوخاً حينما أظهر لها الكابتن إشارات حب جديدة. فعاطفتها المزيّفة
كانت تحرّك مشاعره وسلوكه. وفقاً للكابتن، حتى زوجته في موطنه
العراق لم تبدِ حماسة بقدر حماسها حين كان يصر على ممارسة
الجنس. لكنه ندم على إخبار ياسمينا بهذا السر الصغير فور إذاعته.
فأضاف: «بالطبع هي أم أولادي السبعة وهي تحافظ على نظافة
منزلي وتحضّر لي الطعام. من الطبيعي أنها تحتاج إلى الراحة في
نهاية اليوم».

بعد بضعة أيام، وبعد جلسة اغتصاب مطوّلة لياسمينا، شاطرها
الكابتن مخططاتهم الرامية إلى مصادرة قبلاً في العاصمة الكويتية،
حيث قد يتوقّر عمال تدبير منزلي، ولكن عليهم أخذ الحيطة والحذر.
فقد يسمع الكولونيل المسؤول عنه بالخطة. ومع أن الكولونيل
المسؤول عنه لم يعارض قيام الجنود باختطاف النساء واغتصابهن في
الكويت، إلا أنه ما كان ليوافق على أن يقع أي من رجاله في غرام
واحدة منهن، وبكل تأكيد ما كان يسمح له بالزواج منها. كان الكولونيل
يخشى صدام حسين بشدة إلى درجة أنه لم يرد حصول شيء يسبب
له المشاكل مع المسؤولين في بغداد. وفي حين كان صدام يمقت
الكويتيين وكل الأشخاص الآخرين الذين يعيشون في الكويت، ما كان

ليعاقب أي جندي يرتكب العنف بحق العدو، وإنما ما كان ليروقه أن يجلب جنوده إلى الوطن أسيرات ويتزوّجوا بهن.

لذا وجب على الكابتن أن يأخذ وقته ويبتكر خطة مُحكّمة قبل أن يُعرب لها عن شرف اتخاذها زوجها ثانية.

حققت ياسمينا بجهودها نصراً، وبات الكابتن يراها إنسانة وليس مجرد أداة تشبع له شهواته. صار بإمكانها أن تطلب خدمات صغيرة، وأكثر ما تافت إليه هو التمتع بحرية زيارة لانا بين الغينة والأخرى، في الوقت الذي لا تتعرض فيه الشابتان إلى الاغتصاب. شعرت بالسرور حينما وافق الكابتن فوراً على طلبها. فوجّه إلى رجاله بسرعة أمراً بمرافقة ياسمينا إلى زنزانه لانا مرة في اليوم في الساعة الخامسة عصراً، أي بعد ساعتين من الساعة الثالثة المحددة لاغتصاب لانا، وقبل سبع ساعات من موعد الاغتصاب في منتصف الليل.

حينما ذكرت ياسمينا عَرَضاً بأنها تشعر بالألم بسبب عضوه الذكري الكبير، بعث أربعة من رجاله إلى المدينة لسرقة مراهم مختلفة للبشرة ومسكنات ألم. أراد الرجال إرضاء كابتنهم، فعادوا حاملين كمية كبيرة من الأدوية. وحين سألت ياسمينا إن كان بإمكانها توزيع بعض الأدوية على النساء الأخريات، وافق على نحو مفاجئ.

* * *

في اليوم التالي أخذت ياسمينا كمية كبيرة من الأدوية. وضّبت عدداً من الأدوية في كيس صغير كان الكابتن قد أعطها إياها لتخزن فيه أدوات التبرج. ووضعت فيه علباً من الكعك والحلويات الأخرى، فكثيراً ما كانت تسمع بعض النسوة يصحن طالبات الطعام. كان المغتصبون الأصغر سناً متحمسين جداً لممارسة الجنس، وغالباً ما كانوا ينسون تقديم الطعام لهن.

ربطت ياسمينا شعرها، الذي يصل طوله إلى حدود كتفها، إلى الورا، وارتدت ثوباً متواضعاً واختارت صندوقاً جديداً سرقة لها الكابتن، ثم

نادت الحراس. «أخرجوني رجاء. لقد سُمح لي بزيارة النساء».

باتت ياسمينا نظيفة بعد أن استحمت وتأثقت ومضت لزيارة النساء الأخريات، فشعرت أنها تكاد تكون طبيعية لأول مرة منذ اختطافها، على الرغم من أن شعوراً بالذنب قد انتابها. فهي المرأة الوحيدة التي تتلقّى مثل هذه الخدمات.

أتى بسرعة اثنان من المغتصبين، وفتحوا باب الزنزانة، وتراجعا إلى الوراء باحترام انتظاراً لخروج ياسمينا من زنزانتها. وقّرت حركاتها الغربية تسليّةً للمغتصبين، لكن أحداً لم يجرؤ على ذكر هذا اليوم للكابتن أو لياسمينا. والآن يتوقون لتلقي فرصة لتقديم المساعدة، لأن كابتنهم حذرهم من مغبة الإتيان بأي سوء بحق امرأته.

كان عندهم فضول حيال ياسمينا، لكنهم كانوا جنوداً خاضعين. كانوا يتساءلون إن كانت ياسمينا قد أفقدت الكابتن رشده. فهي في غاية الجمال، وتمتلك أكبر وأجمل نهدين بين جميع النساء في السجن، ولكن جمالها لم يضاها جمال لانا أو حتى جمال كثير من النساء الأخريات الأصغر سناً.

عرفت ياسمينا سبب فضولهم، فهم لاحظوا كما لاحظت النساء الأخريات أن هذه هي المرة الأولى التي تُعامل فيها امرأة نظير الصّيف المفضّل في السجن وليس كسجينة.

وحدها ياسمينا كانت تعرف السر المعيب وراء هذا الامتياز الممنوح لها. كانت تدّعي حب الرجل الذي يغتصبها. ولكن كان يشغل بالها مسائل أهم، لذا أبعدت سلوكها غير المشرف عن ذهنها. حالياً، هي مفعمة بالشجاعة المشرفة لامرأة ستساعد النساء الأخريات.

قدمت ياسمينا للنساء الغارقات في المعاناة أدوية مسكنة للآلام، فشعرت بأنها فلورانس نايتنغال العصر الحديث، الممرضة الإنكليزية الشهيرة التي اشتهرت لأول مرة خلال حرب القرم. علمت ياسمينا بأمر هذه الممرضة المتفانية خلال سنواتها الدراسية في

بيروت، وتذكرت أنها ولدت في عائلة إنكليزية ثرية في فلورنسا بإيطاليا. سُميت تيمناً بالمدينة الجميلة وتوقعوا لها عيش حياة امرأة اجتماعية تتسم بالرخاء والترف. ولكنها مقتت هذه الحياة وكرّست نفسها لمساعدة الآخرين.

خطر لياسمينا فكرة سريعة بأنها ستكرس نفسها أيضاً لأجل هدف نبيل، هذا فقط إن أمكنها النفاذ من جنون ذاك السجن المقيت.

لم تتكلم ياسمينا مع أي امرأة أخرى في السجن ما عدا لانا. حتى تلك اللحظة لم يُسمح لها بزيارتهم في زنازينهم، مع أنه سُمح لها بتوزيع الأدوية والأطعمة عليهم.

صُعقت كل النساء عند دخول ياسمينا عليهن. بدا جلياً أنهن جميعاً يعانين من الألم والانزعاج، فتشبّثن بلهفة بالأدوية والأطعمة المعروضة عليهن. عندها اكتشفت ياسمينا أن تسعاً من الفتيات كويتيات وثلاث فيليبينيات، وكلّهن يافعات. الكويتيات تلميذات مدارس، تمتّعن بجرأة بالغة عادت عليهن بالأذى فقد تم اختطاف أغلبهن وهن يقدن سيارات مع أصدقائهن، راغبات بالتفرج على المدينة عقب احتلالها. أما السجنيات الفيليبينيات فكنّ خادماً للكويتيين، نساء مسكينات اختطفهن الجنود العراقيون خلال قيامهن بأعمال لأجل أرباب عملهن. لم تبدُ أي من النساء على ما يرام، ولم يفاجئ هذا ياسمينا.

ارتجف قلب ياسمينا بقوة حينما مرت على زنانتين فارغتين قرب زنانة لانا. في وقت سابق من ذلك اليوم، سمعت أصوات شابتين ترجوان السجنين للإبقاء على حياتيهما، والتماساتهما التي يرثى لها سرعان ما أعقبها صوت إطلاق نار. لم تعرف شيئاً عن هاتين السجنيتين، ما خلا أنهما امرأتان عربيتان لقيتا حتفاً مريعاً.

إلى جانب ياسمينا بات هناك اثنتا عشرة امرأة أخرى في الزنازين، بعد أن كنّ خمس عشرة امرأة. عزّزت هذه الواقعة عزمها على التلاعب بالكابتن بزيف الكلمات والإيماءات العاطفية. ورغم

صعوبة إظهار متعة مزيفة لدى التعرّض للاغتصاب، إلا أنها كانت الطريقة الوحيدة للخروج من السجن على قيد الحياة.

أُصِبت ياسمينا بصدمة حين دخلت زنزانه لانا. فالمنظر المائل أمامها مرعب جداً يفوق قدرتها على تصديقه، وإنما هذا كان واقع حال لانا. كانت الشابة الكويتية عارية وممدّدة على حصيرها. استحال عليها تغطية جسدها لأنها مقيدة الحركة. فيداها مربوطتان سوياً فوق رأسها، وساقاها مفتوحتان والدم متجمع بينهما. كان كل كاحل مربوطاً بشكل منفصل إلى قضيب من قضبان السجن.

شهقت ياسمينا. فقد كان وجه لانا متورماً والدم الجاف يغطي شفيتها.

التقت عينا لانا المتضرّعتان عيني ياسمينا، لكن لانا لم تصدر صوتاً، وإنما طرفت بعينيها فقط تقديراً منها لمساعدة ياسمينا لها.

حسبت ياسمينا أن لانا تحتضر.

تبادل الحارسان نظرات الخزي أمام منظر لانا، رغم كونهما وحشين يملأهما اللؤم مثل مغتصب لانا. على الأقل أظهرها لياقة الشعور بالإحراج، وأخذا يتمتمان فيما بينهما وهما يفتحان الباب ويومئان لياسمينا إيداناً بدخولها. حدّر الأكبر سناً بينهما ياسمينا قائلاً: «لا تفكيها»، في حين أكّد الآخر على أهمية القوانين التي تحكمهم جميعاً: «إنها ليست مشكلتنا».

دمدمت ياسمينا بصوت خفيض في سرها. فكلّ مغتصب هو ملك في ذاك السجن.

هرعت ياسمينا إلى داخل الزنزانه، ووضعت الأدوية على الأرض، ثم ركعت قرب الفتاة الكويتية وحملت رأس لانا بين يديها. من الجلي أن لانا تعرّضت لضرب فظيع. بعد أن اقتربت ياسمينا منها أمكنها تبين كامل الأضرار. تعرّض وجه الفتاة الكويتية إلى الكدمات، وأصيبت إحدى

عينها بالتورّم. بدا أنفها مكسوراً، والدم الجاف متجمع داخل فتحتي أنفها. وبدت شفّتا الفتاة متورمتين وحافتين جداً إلى درجة أنهما تقرّحتا في أماكن عدة. تفحصت ياسمينا بعينها سريعاً جسم لانا، فوجدت أن رقبتها قد تعرّضت أيضاً لكدمات خطيرة ولاحظت أن الكدمات لها شكل الأصابع، وكأن مغتصبها حاول خنقها. وكان ثدياها الصغيران أحمرين وحلمتاها متورمتين ويغطيها الدم الجاف. بدافع الحياء، آثرت ياسمينا عدم النظر إلى المنطقة الحساسة لدى لانا، على الرغم من أنها أيقنت بأن الدم المتجمّع يشير إلى إصابة خطيرة.

همست ياسمينا: «ماذا فعل بك يا لانا؟».

لم تتكلّم لانا، وإنما حركت رأسها قليلاً، وحاولت ترطيب شفّتيها بلسانها المتورم. قالت بصوت منكسر: «أشعر بالعطش».

نهضت ياسمينا وأخذت تبحث عن ماء، فوجدت أخيراً قارورتين من المياه المعدنية في الزاوية. قامت سريعاً بمسح لموجودات الزنزانة، فلم تجد شيئاً إلا حصيراً وكرسياً وبعض الحبال ومرحاضاً ودلوّاً للاغتسال وقارورتي المياه. لم يكن لدى لانا أي طعام.

ومن جديد حملت رأس لانا برفق وعناية، وأسالت برويّة قطرات من الماء في فمها. استغرقتها ذلك فترة طويلة. وفي النهاية ابتلعت لانا ببطء محتوى قارورة من المياه.

حسبت ياسمينا الوقت الذي تبقى لديها حتى تعود إلى زنزانتها. قال لها الكابتن إن بوسعها زيارة لانا مدة ساعة فقط. لذا حاولت بسرعة إرخاء الحبل المربوط حول معصمي لانا. لقد ربّط الحبل بإحكام شديد لدرجة أنه اخترق اللحم فوصل إلى العظم. ومن دون تفكير بالنتائج التي قد تواجهها، أخذت ياسمينا تشد الحبل لإرخائه إلى أن فكّته عن يديّ لانا ومعصمها. حاولت فك الحبل عن كاحليّ لانا المربوطين ولكنها فشلت. احتاجت إلى أداة حادة لقطع ذلك الحبل، وهو شيء لم تملكه.

تمت لانا قائلة: «شكراً لك. أمست يداي خدرتين».

كررت ياسميننا: «ماذا فعل بك يا لانا؟».

ارتجف جسد لانا الصغير. «الأمر نفسه.. كرر فعلته نفسها».

لم يكن ثمة داعٍ لطرح مزيد من الأسئلة، فالحقيقة جلية بشكل مؤلم. لا يزال الوحش يغتصبها بعنف كما كان يفعل دائماً، ولكن الضرب الجسدي أمسى أعنف. بدت لانا وكأنها صُربت حتى الموت.

على الرغم من وضعها الجسدي المشوّه، شعرت لانا بجوع شديد. قالت إنها لم تأكل منذ أربع وعشرين ساعة. فمغتصبها يتركها مربوطة في الوقت الذي لا يغتصبها فيه. لقد وضع هدفاً جديداً، قالت لانا: «يقول إنه سيكسرني. سيجبرني على الاعتراف بأنني أستمتع باهتمامه. ولن أفعل ذلك أبداً. أفضل الموت على ذلك».

انكملت ياسميننا على نفسها لأنها شعرت بأنها جبانة، وهي المرأة التي تتلاعب بالوضع حتى تبقى على قيد الحياة. أدركت أن لانا رغم صغر سنها، إلا أنها أقوى إنسانة رأتها في حياتها. أيقنت من كل قلبها أن لانا لن تستسلم أبداً لمغتصبها. ستقاوم الوحش قدر ما تتطلبه المقاومة.

أخفت ياسميننا حزنها وخوفها، وراحت تطعم الفتاة بعناية الكعك المحلى وبضع بسكويتات مقرمشة. ثم عمدت لانا إلى حمل قارورة الماء بيديها وأصابها المتورمة، وشربت بقدر ما أمكنها.

قالت لها ياسميننا: «جلبت لك بعض الأدوية المسكنة للألم وبعض المراهم لجروحك. هل أساعدك في وضعها؟».

«نعم أرجوك، شكراً لك. أرجوك ساعديني».

بلّلت ياسميننا قطعة قماش في دلو المياه ونظفت بلطف الدم عن وجه لانا وأعلى صدرها. توقفت عند ثديي لانا، غير مدركة ما عساها تفعل، إذ شعرت بالإحراج. فالنساء العربيات بطبيعتهن وبحكم

ثقافتهم يشعرون ببالغ الخجل.

عندها أسرت لها لانا بأنها تعرضت للإذلال مرات عدة من قبل مغتصبها ولن تشعر بالإحراج إن رأت ياسمينا كل تفاصيل جسدها. قالت لياسمينا: «هيا نظفيني رجاء وضعي لي المراهم. فكل جزء من أجزاء جسدي يحترق ولست قادرة أن أساعد نفسي».

أخذت ياسمينا وقتها وراحت بكل روية وعناية تنظف الدم والقذارة عن جسم لانا. بمجرد أن بدأت تنظف الشابة لاحظت أن القذارة هي في واقع الأمر السائل المنوي للمغتصب. انتشر سائله المنوي على كامل جسمها: شعرها ووجهها وفي زاويتي فمها وعلى صدرها. كان مغتصب لانا وحشاً جامحاً، حيث قذف سائله المنوي على كامل جسدها. وكان مثل هذا المشهد لينقر ياسمينا قبل بضعة أشهر، لكنها الآن بدت هادئة على نحو مستغرب وهي تنظف لانا، وتزيل كل ما يتعلق بالمغتصب الوحش عن الفتاة الكويتية.

حينما نظرت ياسمينا من جديد إلى بطن لانا قالت لانا: «لا تخافي. أريدك أن تنظري. أريدك أن تري ماذا فعل بي».

ازدادت ياسمينا إحراجاً إذ لم يسبق لها في حياتها أن نظرت إلى جسد امرأة أخرى عن كثب. في الواقع لم يسبق لها التمعن في جسدها الخاص، وبكل تأكيد لم تمعن النظر في منطقتها الحساسة. جل ما احتاجت إلى معرفته أنها تمتلك أعضاء تناسلية وأنها موجودة في مكانها المناسب بين رجليها. لم تسمح ياسمينا لنفسها بالتفكير في أعضائها الجنسية إذ إن هذه المنطقة تعتبر من المحرمات في ثقافة بلادها. حتى أنها قد تشعر بالخزي إن أخبرت أحداً بأنها ذات مرة، وعقب اغتصاب مؤلم جداً، لامست منطقتها الحساسة التي يفتك بها الألم، محاولة أن تتبين إن لحق بهذه المنطقة التهاب ما.

أصرت لانا: «لا، انظري رجاء. لا يسعني رؤية ما فعله بي. ولكن المنطقة بين رجليّ تؤلمني بشدة وأشعر أنه لحق بهذه المنطقة ضرر

خطير».

نظرت ياسمينا فرأت أن كاحليّ لانا متباعدين لذا كانت رجلاها مفتوحتين. تحركت على مهل، والقلق يعتريها مما يمكن أن تراه. حينما جلست ياسمينا القرفصاء بين رجليّ لانا، حاولت لانا أن تباعد أكثر بين فخذيهما، ولكن الحبال كانت مشدودة جداً. أخيراً تمكّنت لانا أن ترفع رجليها قليلاً.

عضت ياسمينا على شفيتها لحبس أنفاسها. إذ فاحت رائحة كريهة على الرغم من أنها عجزت عن رؤية منطقة لانا الحساسة. كانت الأنسجة بين رجليّ لانا متورمة بقدر حجم شماعة صغيرة وكان لونها أحمر ناصعاً كالدّم، وهي تناظر ورماً ضخماً فيه أوردة زرقاء ناتئة من جسمها. بدا أن هذا التورّم تنبض فيه حياة خاصة، وحسبت ياسمينا أن بوسعها رؤية قلب لانا وهو يدق وسط هذه الكتلة المتورّمة، إذ بدت تنبض بإيقاع خاص. وبدت بقعة الدّم الكبيرة بين رجليّ لانا مخيفة.

ركّزت لانا نظرها على ياسمينا: «هل الوضع سيئ؟».

«لست أدري. لا أعلم كيف يفترض بهذه المنطقة أن تبدو».

كرّرت لانا سؤالها: «هل الوضع سيء؟» وهي تعي تماماً بأن ياسمينا تحاول ألا تخيفها.

اعترفت ياسمينا أخيراً: «نعم يا لانا، الوضع سيئ. هذه المنطقة متورمة جداً وحمراء ومتضرّرة للغاية. أعتقد أنك مصابة بالتهاب».

هزت لانا برأسها، وصوتها خفيض ونابض بالحياة، وكأنها تتحدث عن شيء عادي مثل زيارة متجر للتسوّق. «أنا واثقة أن هذا الوحش الذي يعدّ بني ليس إنساناً. ينبغي أن يتم استعراضه أمام الناس كمخلوق جديد ومخيف... داخل قفص. قبل يومين زار مستشفى وعاد ببعض الأدوات التي يستخدمها الأطباء لفتح النساء وفحصهن. حمّسته فكرة تفحص جسد المرأة من الداخل والخارج. فربطني بوضعية أعجز

فيها عن المقاومة. ثم استخدم على جسمي هذه الأدوات، ففتحتني، ثم راح يسبر منطقتي الحساسة وقتاً طويلاً بواسطة معدات طبية طويلة أخرى بدت في غاية القذارة حيث جفّ عليها الدم والأنسجة. توسّلتني كي يتوقف لكنه ازداد عدوانية في استخدام تلك الأدوات. أخشى أن أكون أصبت بالتهاب خطر بسبب هذه الأدوات. فقدت كثيراً من الدم، ومنذ بضع ساعات بت أشعر أن منطقتي الحساسة تؤلمني جداً».

«آه يا لانا. أنا في غاية الأسف».

«أرجوك ضعني لي دواء على تلك المنطقة. وأعطني حبتين من مسكن الألم».

بالكاد أمكن لي اسمينا التكلم أو التحرك. فوضع لانا أظف من أن يُسبر غوره، حتى وهي تراه بالعين المجردة. أرادت ياسمينا الهرب، الفرار، العودة إلى هواية التمثيل في زنانتها، حيث لا شيء حقيقي. كل شيء في الزنانة رقم 15 كان تمثيلاً. كانت ممثلة تلعب دوراً مقيتاً، دوراً خطراً وإنما يظل دوراً، حيث تدعي أنها تحب عناقات معتصب سادي. كان الكابتن رجلاً لا يعلم شيئاً عن واقعه الخاص. يحسب نفسه ملكاً في حين أنه رجل مسكين أمّي يخال أن النساء اللواتي يختطفهن ويغتصبهن سعيدات باعتدائه الجنسية. كانت حياته تمثيلية أيضاً. في الواقع، أصبحت الاعتداءات التي تتعرض لها ياسمينا روتيناً مملاً مقارنةً بواقع لانا. في تلك اللحظة شعرت أن اعتداء الكابتن عليها ليس أكثر خطورة من غطسة في المحيط فيما هي تسبح بشكل متواصل لتفادي لسعة قنديل بحر أو قرصة سمكة قرش صغيرة فضولية.

شعرت من أعماقها أن لانا ستموت قريباً. ولكنها راحت إذ ذاك تقاوم دعرها وانتقلت لتجلس بين رجلي لانا، وفتحت غطاء مرهم المضاد الحيوي. «سوف يحرقك يا لانا».

ابتسمت لانا بوهن: «أصبحت معتادة على الألم».

ولكن حينما لامست أصابع ياسمينا المنطقة الحساسة لدى لانا، أتت لانا وصرخت، لعجزها عن تحمل حتى أطف اللمسات.

تساءلت ياسمينا كيف ستمكّن لانا من النفاذ من اغتصاب آخر قبل نهاية اليوم، لأنها أيقنت أن لا شيء يردع الوحش لانا عن اغتصابها... لا شيء. ارتجفت ياسمينا حينما فكرت بما ستعانيه لانا قريباً. سيقوم مغتصب لانا باغتصابها مجدداً، على الرغم من إصابات لانا الخطرة، سوف يستمتع بمعاناة الشابة.

«لا بد لي من دهن المرهم يا لانا». جالت ياسمينا بنظرها في أرجاء الزنزانة والتقطت قارورة المياه الفارغة عن الأرض. «خذي أمسكي هذه، اضغطي عليها بين أسنانك. حاولي تحمل الألم. هذه ستساعدك».

سمعت ياسمينا صوت سحق البلاستيك حين عصت لانا على القارورة. جفلت ياسمينا بفعل أتاات لانا الناعمة بينما هي تقوم بدهن منطقتها الحساسة بكامل محتوى المرهم. نظرت في أرجاء الغرفة ووجدت بضع خرق نظيفة لفتها حول مؤخرة لانا وثبتتها بيديها إلى أن انحسر النزيف. ثم استخدمت الخرق لمسح الدم.

فتحت ياسمينا أنوباً ثانياً وبدأت تدهن المرهم على حلمتي لانا.

فجأة سمعت جلبة شديدة. ارتعدت فرائص ياسمينا حينما رأت المغتصب الوحش يهجم صوب باب الزنزانة، ويزأر نظير أسد غابٍ، ويتجه صوبهما. كان قد عاد على نحو غير متوقع إلى السجن لسبب ما.

جلست ياسمينا دون حراك، جامدة كحال فيل الماموث المنقرض الصغير الذي رآته في مجلة علمية، مرتعبة من الرجل الذي يشبه الوحش فعلاً أكثر مما يشبه الإنسان.

أصدرت لانا أصوات مواء خافتة نظير الهرة الصغيرة.

عندها هرع الجنديان اللذان رافقا ياسمينا آنفاً إلى المكان،
وأمسكا المغتصب الوحش من ذراعيه وصرخا بوجهه محدّرين: «انتبه
لتصرفاتك! لقد وافق الكابتن على هذه الزيارة!».«

لم يسبق لياسمينا قبل هذه اللحظة أن رأت مغتصب لانا عن
كثب. فأيقنت أن لانا محقة في تلقيب مغتصبها بالرجل الذئب. فما ظهر
أمام ياسمينا بدا نصف رجل ونصف وحش، رجل ذئب حقيقي. إن مكان
هذا المخلوق المتوحش هو خلف القضبان، إنه مخلوق شرير يجب أن
يُعرض في سيرك حيوانات طوّاف مخصص لاستعراض الوحوش
الغريبة.

كان الوحش أقوى من الجنديين الآخرين سوية. إذ أفلت من
قبضتهما، وأمسك بذراع ياسمينا بخشونة، ثم جذبها ورمأها إلى خارج
زنزانة لانا. ثم رآته ياسمينا يركل لانا الضعيفة.

خاف الجنديان أن يعمد الوحش إلى مهاجمة ياسمينا. وفي حال
حدوث ذلك، سيُلقي الكابتن اللوم عليهما. لذا هرعاً بياسمينا في
الرواق وعادا بها إلى زنزانتها، التي بدت فجأة الملاذ الأكثر هدوءاً في
العالم. بمجرد إقفال باب زنزانة ياسمينا، تردّد صدى صرخات لانا
المكروبة في جميع أرجاء السجن.

راحت ياسمينا تتخيّل صورة ما تقاسيه لانا، فسقطت على
حصيرها. شعرت وكأن كل جزء من أجزاء جسمها ينتحب. لم تتحرك
طيلة ساعات إذ خيّم على كيانها سحابة من القنوط.

الفصل الحادي عشر

النجاة

انسداد أفق في الخليج

في اليوم السابق لتصويت مجلس الأمن على قرار السماح باستخدام القوة لإجبار العراق على الانسحاب من الكويت بعد 15 كانون الأول/ديسمبر، قدّمت الكويت شكوى مؤثرة واستثنائية إلى مجلس الأمن بشأن انتهاكات حقوق الإنسان التي ترتكبها السلطات العراقية. باستخدام شهادات موثقة بتسجيلات فيديو وصورة فوتوغرافية مكبّرة تظهر ضحايا التعذيب، نقل الكويتيون المنفيون إلى مجلس الأمن المصعوق والصامت الأهوال التي قالوا إن الجنود العراقيين ينزلونها بحق الشعب الكويتي. أفادت منظمة العفو الدولية في آخر تقرير لها أنها، استناداً إلى عدد كبير من المقابلات مع اللاجئين، وجدت في الكويت «صورة مروّعة من الاعتقالات الواسعة الانتشار، والتعذيب تحت التحقيق، والإعدامات الجماعية، وجرائم قتل جماعية وخارج نطاق القانون».

صحيفة نيويورك تايمز

16 كانون الأول/ديسمبر 1990

راحت ياسمينا تراقب الكابتن فيما مرت لمحة غضب سريعة على وجهه. لكنه ما لبث أن سيطر على غضبه، على الرغم من أن شفّيته ظلّتا مغصّنتين نتيجة الانزعاج. فقد علم لتوه بشأن المشاحنة التي حصلت بين مغتصب لانا والجنديين الآخرين. شعرت ياسمينا أن حملاً

قد أزيل عن ظهرها حينما علمت أن الكابتن انزعج من مغتصب لانا وليس منها، إذ لا يمكن للمرء أن يعرف كيف عساها يكون رد فعل الكابتن حيال أحداث غير متوقّعة. قلقت أيضاً من احتمال إلقاء اللوم على لانا. لقد أوضح الكابتن أكثر من مرة أن صرخات لانا وعويلها يزعجانه، معطياً لياسمينا انطباعاً بأنه يأمل أن يسأم مغتصب لانا من هذه الفتاة الهستيرية ويرديها. ولكن حتى ذاك الوقت لا يزال المغتصب المتوحش مفتنناً بلانا، ولا تزال صرخاتها وتوسّلاتها تثير هيجانه، إذ بدا أنه يستسيغ ملكيته التامة للفتاة اليافعة. أراد الوحش أن تظل لانا على قيد الحياة كي يواصل اغتصابها.

جلست ياسمينا صامتة مدة ساعة فيما جلس الكابتن يحدّق إلى مروحة السقف الجديدة في زنزانه ياسمينا وكأن المروحة تخفي سرّاً مهماً وتكشفه له.

أملت ياسمينا أن يعمد الكابتن أخيراً إلى معاقبة الوحش. لو أن الأمنيات تتحقّق، لتمتّت أن يستشيط غضباً فينقل مغتصب لانا إلى وحدة أخرى. أو ربما يأمره بالتوقف عن تعذيب الفتاة. إن كل الفتيات المغتصابات يتعرّضن للتعذيب، ولكن عذاب لانا، مقارنة بعذاباتهن، أشبه بمقارنة جبل إيفيرست بتلة صغيرة في شمال لبنان. بدا مغتصب لانا ملتزماً بتعنيف ضحيته اليافعة إلى حد الموت.

اعتقدت ياسمينا أن الوحش سبق له أن تدرب على كيفية إنزال العذاب بالآخر. فهو ينزل بها ألماً حادّاً لا يُطاق من دون دفعها إلى الموت، وهي مهارة لا يجيدها إلا المعدّبون الخبراء.

كانت ياسمينا قد سمعت عن نوع من التعذيب المتواصل هذا. تناهت إليها هذه المعلومات من خلال معرفتها بعائلة عبّر ابناها الحدود من لبنان إلى سورية عن طريق الخطأ خلال قيامهما بصيد العصفير قرب بلدة جزين. كان الابنان شابين، يبلغ الأصغر سنّاً الثامنة عشرة من العمر فحسب والأكبر سنّاً لَمّا يبلغ الحادية والعشرين بعد. اعتُقلا ونُقلا إلى دمشق وهناك اتُّهما بالتجسس. أُعِدِم الأكبر سنّاً أمام أخيه بعد

شهر من الاعتقال، وعُدّب الشاب الناجي بلا رحمة طوال سنتين. ثم فجأة ومن دون تفسير أحضره السوريون إلى الحدود مع لبنان ورموه من السيارة وأمره بالتوجّه إلى بلدته وتحذير كل من يعرفهم بعدم التجسّس على سورية.

عند اختطافه كان فتى معافى في ريعان شبابه، وبعد سنتين عاد رجلاً منكسراً ومستناً، أخبر والديه المرعوبين بوفاة ابنهما البكر ورؤّعهما بقصص تعذيبه. بدا لكل من أصغى إليه أن مثل هذه الشراسة والعنف بالكاد يُصدّقان. لكنهم كانوا يعرفون قسوة نظام الأسد البعثي الحاكم في سوريا. كان يُعرف عن الضحية صراحته المتناهية، بينما شكّك ظهور الفتى لوحده في صدقية حجته.

بالطبع لم تعرف نساء البلدة تفاصيل ما حصل، فالرجال العرب ينوون بالنساء عن مثل هذه الأحاديث. ولكن ياسمينا سمعت عَرَضاً والدها يخبر أخيه بأنه مسرور لإنجابه بنات وذلك لأن الوضع غير المستقر في الشرق الأوسط خطر جداً على الرجال ناهيك عن النساء. لفت انتباه ياسمينا هذا الكلام. وكانت تعلم أن أمها حزينة جداً لأنها لم تمنح زوجها ابناً، والآن ها هي ياسمينا تسمع والدها يعلن بثقة عن سروره لعدم إنجابه صبيان.

حينما سمعت عَرَضاً الرجال يناقشون مصير ابن الجيران، انجذبت إلى الحديث، فراحت تصغي. في وقت لاحق ندمت على فضولها لأنها ما كانت تعلم بشأن أمور كهذه من قبل. لم تتمكّن من النظر ثانية إلى ابن الجيران بالطريقة عينها. باتت تتخيله الآن عارياً ومجبوراً على الجلوس فوق قطعة خازوق حاد مزّق مستقيمه وأمعاءه، أو يتدلّى من مروحة في السقف فيما رُبطت أسلاك كهربائية بمنطقته الحساسة.

ولأن النظام البعثي كان هو الحاكم في كلّ من سورية والعراق، افترضت حينها أن ثمة فساداً وسوءاً في نظام الحكم.

لم يسعها أن تفصح أكثر أمام الكابتن، فوضعها كضحية اغتصاب

يحتّم عليها أن تكون خادمة مطيعة وعاشقة، والكابتن ليس رجلاً يتقبّل رأي امرأة. فيما كانت أفكارها تتزاحم حول الأشياء التي يمكن للكابتن أن يفعلها لإنقاذ كل النساء السجينات، التزمت الصمت، غير راغبة بإخراج وضعها المتقدم عن مساره. راحت تتحرك في أرجاء الزنزانة الصغيرة، فحضرت الشاي الساخن للكابتن فيما انتظرها كي تسلق البيض على الموقد الكهربائي. أخرجت اللبن من ثلاجتها الصغيرة ووضعت الطعام بحذر شديد كما يروق للكابتن تماماً: البيض المسلوق والمقشّر في الوسط، ملعقتان من اللبن على الجنب، وخبز بيتا طازج ملفوف بقطعة قماش نظيفة. لو تسنّى للكابتن إيجاد أي نوع من الفاكهة في السوق، لراقه أن ينهي وجبته بتناولها. وكلما طال أمد الاحتلال بات من الأصعب إيجاد الفاكهة في السوق، وفقاً للجنود المسؤولين عن سرقة الطعام.

أخيراً كفّ عن التحديق إلى مروحة السقف وبدأ يأكل، مستعجلاً في حركاته. إنه رجل يشعر بالجوع. جلست ياسميننا من جديد بصمت، منتظرة إياه كي ينهي تناول وجبته. سيكون أمامها متسع من الوقت كي تأكل لاحقاً، بعد أن يفرغ الكابتن من اغتصابها لبضع ساعات.

جلست تفكر، ولكنها لم تنبس ببنت شفة. فالكابتن ليس رجلاً يشجع على فتح حديث مهذب خلال تناول الطعام. تذكّرت والدها المثقّف وكيفية انتقائه لقيّمات الطعام من صحنه، ليمضغها بهدوء وهو يتحدث مع زوجته وبناته حول مسائل اجتماعية. قارنت ياسميننا تصرفات الكابتن الغظة مع تصرفات والدها فوجدتها دنيئة جداً.

بعد مسح بقايا البيض بقطعة من خبز البيت، نظر الكابتن إلى ياسميننا وأمرها قائلاً: «اخلعي كل ملابسك واستلقي على بطنك».

امتثلت لأمره فعمد إلى اغتصابها. أظهرت الاستمتاع حتى وهي تصرّ بأسنانها، ولكنها كانت مسرورة جداً لأنها تتعرّض للاغتصاب من قِبَل الكابتن وليس مغتصب لانا الوحش، وحمدت الله على هذا المعروف الصغير. أجبرت نفسها لاحقاً على الابتسام وإخبار الكابتن

بمدى روعة العلاقة الجنسية، حتى أنها رجته أن يبقى ويؤنسها برفقته. أصبحت موهوبة جداً في التلاعب بالكابتن، فوجّهت له أكبر كذبة في حياتها: «أشتاق إليك حينما لا تكون موجوداً».

رسم ابتسامة صغيرة على وجهه، ولم يفاجئه أن ياسمينا وقعت في حبه. ثم اغتسل وارتدى ملابسها. عند باب الزنزانة استدار وهدق إليها. أخيراً نطق، وأخرج كلماته من فمه ببطء وكأن لديه اليوم بطوله لمجرد نطق بضع كلمات. «لك إذني بمواصلة زيارة الفتاة مرة في اليوم. بوسعك زيارتها في الساعة الخامسة عصراً، ولكن لساعة واحدة فقط. سأبلغ رجاله بذلك».

حينما لمح نظرة القلق على وجهها، أمكنه قراءة أفكارها. «لن يتم إزعاجك ثانية. سيتم إبلاغك بأن هذا الوقت مخصص لزيارتك لها».

استجمعت ياسمينا شجاعته وسألته: «ولكن ماذا لو زاد غضبه وقتلها؟».

هز الكابتن بكتفيه: «هذا ليس شأنني، الفتاة ملك له. بوسعه أن يفعل بها ما يشاء. أتدخل حينما يتحدى أمري بأن تزوري الفتاة». توقف هنيهة ثم قال: «إن لمسك مجدداً سيندم».

أيقنت ياسمينا أن الكابتن يفوق الوحش خطورة. الوحش يُحكّم بالعاطفة، ولا يمثل خطراً إلا على الفتاة التي يغتصبها. أما الكابتن فخالٍ من الشعور، وبمقدوره قتل أي شخص بكل سهولة إن تحداه.

تذكّرت ياسمينا من جديد الواقع المخيف، وهو أنها آمنة فقط في حالة إرضائها له. لا يسعها اقتراف أي خطأ. فكابتنها، وهو الرجل الذي يحسب أنه قد يحبها، الرجل الذي بدا مقتنعاً بأنها تحبه، الرجل الذي يفكر في اتخاذها زوجة ثانية، قد يتحول قاتلاً فور تخيبها ظنه.

لن يحدث هذا. فمنذ اتخذت خيار العيش، أصبحت المرأة التي يرغب بها الكابتن بالضبط. وهذا هو السبب الوحيد الذي يبقى ياسمينا

على قيد الحياة.

الفصل الثاني عشر

لن تعودى إلى ديارك ثانية

حدّد مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة موعداً نهائياً في الخامس عشر من كانون الثاني/يناير 1991 للانسحاب الكامل للقوات العراقية من الكويت. وعضواً عن مغادرة الكويت، عاند صدام أكثر وحضّ جنوده وشعبه على الاستعداد لـ «أم المعارك» التي ستحل قريباً.

«فَهْمُ العراق»

جوزيف تراغيرت

لاحظت ياسميناً أن لانا ليست إلا طفلة، رغم ارتدائها ملابس نوم شقّافة سوداء خاصة بالنساء. من الجلي أن هذا الثوب كان في عداد أشياء سرقها المغتصب الوحش وأجبر لانا على ارتدائه. ولكن على الأقل لم تعد لانا عارية ولا مربوطة المعصمين والكاحلين. كانت تستلقي على حصيرها، وظهرها مواجه لباب الزنزانة. ظهرت رجفتها بشكل واضح حينما فُتح باب الزنزانة، فخشيت أن يكون مغتصبها قد عاد على نحو غير متوقع.

قالت ياسميناً بكل لطف: «أنا ياسميناً، لا داعي للخوف».

ناشدتها لانا قائلة: «ياسميناً. لا، لا. أرجوك يا ياسميناً ينبغي أن تتعدي. لقد وعد بقتلنا نحن الاثنتين».

أبدت ياسميناً استعداداً للمخاطرة، لثقتها بأن الكابتن سيحميها، فقالت بثقة: «إذاً سنموت سوياً يا لانا». امتلكت ياسميناً سبباً وجيهاً للشعور بالثقة إذ تم إطلاعها على سر مهم. لم يتوان الكابتن عن إعلام

الوحش بانزعاجه. في الظهيرة، أرسل الكابتن مغتصب لانا إلى قائد المنطقة الذي احتاج إلى جندي لتوصيل بعض الوثائق إلى منطقة الحدود مع السعودية. أيقنت ياسمينا أن الكابتن غاضب من الوحش، وهذه طريقته في إظهار انزعاجه. حرمه من ممارسة الجنس هذا اليوم.

«فلنبعد القلق يا لانا. قيل لي إن الوحش في مهمة عسكرية ولن يعود حتى يوم غد. أنت بأمان لهذه الليلة على الأقل».

شهقت لانا بصوت عالٍ وهي تغلب إلى الجنب الآخر ببطء، وقد بدت المفاجأة المفعمة بالأمل على وجهها. افترضت ياسمينا أن الفتاة العزيزة المسكينة تفكر في أنها للمرة الأولى منذ اختطافها ستُغتصب مرة واحدة فقط في اليوم، عوضاً عن ثلاث مرات وهي مواعيد دقيقة لاغتصاب الوحش لها. بدت لانا منهكة وكأنها توشك على الموت، لكن ياسمينا لمحت تفاؤلاً مشوباً بالحذر قد بدأ يلمع في عيني الفتاة.

ابتسمت ياسمينا، وحاولت لانا الابتسام، لكن وجهها كان متورماً جداً وتغطيه بالكدمات، فما أمكن لقسمات وجهها المتضررة جداً إلا أن تلتوي فحسب.

ارتاعت ياسمينا ولكنها لم تبد أي رد فعل. سوف تركز على حظهما السعيد. في الواقع، كانت تحمل أكياساً عدة تحتوي على مياه وحليب وبعض الفاكهة ودجاج مشوي وقطعتين من خبز البينا وقطعة حلوى تركية مغطاة بالعسل. كان الكابتن قد جلب هذه الأشياء لياسمينا، ولكنها آثرت تقديمها إلى لانا. لقد خففت من تناول الطعام منذ أربع وعشرين ساعة حتى تحتفظ بهذا الطعام لانا. وضعت العلب على الأرض والتفتت إلى لانا. جلست بقربها، ولامست كتفها بخفة. ثم مدت يدها لتمسك بيد لانا، ولكنها سحبتها في اللحظة الأخيرة بعد أن رأت أصابع لانا متورمة وحمراء ومشوهة الشكل.

أعادت أصابع لانا المكسورة إلى ذاكرة ياسمينا صورة لوجه قديم

مألوف. فراحت تتذكر السائق المفضّل لديها بين سائر سائقي عائلتها السابقين. كان المسكين رجلاً طيباً، يتصرّف دوماً بلطف ولباقة مع الجميع، ويستأنس جداً مع الأطفال لأنه لا يرى أطفاله سوى مرة كل سنتين، حينما يغادر لبنان في إجازة مدفوعة لمدة شهر. كان من سريلانكا، وقد ترك عائلته هناك ليعمل في الشرق الأوسط. كانت أصابع الرجل المسكين تثير الفضول العام لدى أطفال الحي، فكل إصبع من أصابعه مشوّه بطريقة منفّرة، وبعضها مبتور من المفصل، وبعضها الآخر ملتوٍ نزولاً أو صعوداً، فبدأ أن كل إصبع متّجه باتجاه مختلف. كان ذاك المسكين يضحك من سوء حظه، ويخبر الأطفال الفضوليين بأنه حينما كان طفلاً كان لديه فضول شديد لكشف أشياء لا تعنيه. لذا علقت يداه داخل آلة في متجر آليات تابع لعمه.

وجدت ياسمينا أن قدرته على قيادة السيارة ليست إلا معجزة، ولكنه أكد لها وللأطفال الآخرين أن امتلاك أصابع كهذه تعتبر مفيدة للسائق. مدّ أصابعه ومازح الأطفال قائلاً: «حينما أريد فتل عجلة القيادة، يتواصل دماغي مع الإصبع الصحيح، فيوجه السيارة إلى الجهة المطلوبة».

هزت ياسمينا برأسها لتزيل هذه الصورة من دماغها. كان فمها جافاً وبالكاد أمكنها التكلّم، ولكنها وجدت الكلمات لتطرح على لانا سؤالاً: «عزيزتي لانا أخبريني ماذا فعل بيدك؟».

قالت لانا بصوت حالم وهي ترفع ذراعيها وتنظر إلى يديها وأصابعها متفحّصة وكأنها تراها للمرة الأولى: «آه يديّ. آه، سألني إن كنت أعزف على آلة موسيقية فأجبتته بالنفي، ولكنني لطالما رغبت في العزف على البيانو. نظر إليّ مدة طويلة ورسم على وجهه ابتسامته الشريرة، وقال: «لا، هذا لن يحدث». لم أملك فكرة عن قصده، وبصراحة نسيت أمره. ولكن في وقت من ذلك اليوم وبعد اغتصابي لمدة ساعة تقريباً، ربطني بالحبال وكأنني حيوان. وبمجرد أن استحال عليّ تحريك أي عضلة من عضلاتي، بدأ يضحك مثل ضبع. وقبل أن

أعرف ما يدور في عقله المريض، جلس القرفصاء بقربي وضغط على ذراعيّ بركبتيه، فثبتهما. ثم راح يضرب أصابعي بمطرقة على الأرض الصلبة».

حدّقت لانا إلى أصابعها من جديد. تأملتها وقالت: «أظن أنه كسر كل عظام أصابعي». عبست وهي تمد ذراعيها، وأظهرت لياسميننا يديها بوضوح: «ما رأيك؟ ألا تظنين أن كل عظام أصابعي مكسورة؟».

همست ياسميننا قائلة: «آه يا لانا».

«لا بأس. لن يتسنّى لي العزف على البيانو على أي حال. نعلم أنا وأنت أنه سيقتلني».

«لا تقولي هذا الكلام يا لانا».

هزت لانا بكتفيها. «نحن نعلم الحقيقة. سوف أموت هنا».

قاومت ياسميننا طفرة مؤلمة من الانهزامية، لأنه يجب عليها رغم كل الظروف المعاكسة أن تستخدم كل قوتها لإنقاذ لانا. فقد باتت تحبها جداً بقدر حبها لأخواتها الثلاث. لا بد لها أن تغرس الأمل في قلب الفتاة البافعة، التي تفقد الأمل بسرعة في إمكانية بقائها على قيد الحياة. «يا لانا يمكنك النجاة من هذا الوضع إن شاء الله. يمكنك أن تصمدي في وجه هذا الوحش. يقول الكابتن إن بوسعي القدوم لزيارتك كل يوم. أعطاني الإذن بجلب بعض الطعام المغذي لك. سوف نعيد إليك قوتك». كرّرت بإصرار وكأنها تريد أن تمد لانا بالشجاعة والعزم اللذين تحتاجهما: «بوسعك أن تأخذي خيار العيش. عندها فقط بوسعك أن تصمدي في وجه ذلك الوحش وأن تتغلب عليه».

وقفت ياسميننا وانحنت صوب قضبان الزنزانة، وتأكدت من أن الجنود لا يصغون إليهما، ثم عادت لتهمس في أذن لانا. «اسمعي يا لانا. الكابتن يشعر بالقلق. سمح لي بالحصول على مذياع، ولكن لا يسعني الاستماع إليه ما لم يكن موجوداً. نستمع أنا وهو أحياناً إلى

محطة (بي بي سي) الإذاعية. تقول الحكومتان الأميركية والبريطانية إنهما آتيتان إلى الكويت، وإنهما ستجبران الجيش العراقي على مغادرة الكويت. لقد تجّمع جيش ضخم في السعودية بعد موافقة الملك فهد أن يستخدموا بلده كقاعدة انطلاق لهذه المعركة الكبيرة. يقولون إن كثيراً من الدول الأخرى انضمت إلى الجيوش الغربية، وحتى دول الشرق الأوسط التي لا توافق على أفعال صدام.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر IKitab

«الكابتن يشعر بالقلق البالغ لأول مرة. يظن أنه ستقع معركة كبيرة ولكن لا يسع العراق أن يهزم الجميع. إنه يأمل أن يأمرهم صدام بمغادرة الكويت قريباً. إن حدث ذلك، سنتحرّر أنت وأنا، وسينتهي هذا الكابوس. سينتهي يا لانا، سينتهي.»

كشّرت لانا بشكل لطيف، وبانت نظرة حنونة في عينيها. «آه يا ياسميننا، أمل من كل قلبي أن تعيشي، صدقيني. كنت لطيفة جداً مع كل الفتيات هنا. ولكن انظري إلى حالي. حالي يُرثى لها. كيف عساي أعود إلى عائلتي على هذه الحال؟»

صُدمت ياسميننا فجمدت في مكانها. راحت تحدق دونما كلام؛ فقد انتابها الشكوك والمخاوف نفسها من قبل، والآن اجتاحتها الهواجس والمخاوف من جديد، ولكن بقوة أشد. أيقنت ياسميننا أنها ما كانت لتكشف الحقيقة أمام عائلتها، بأنها تعرضت للاختطاف وللأسر والاعتصاب. على الرغم من أن والديها يحبانها، إلا أن سعادتهما ستختفي إن علما بأن ابنتهما البكر والأجمل باتت معطوبة. سيستحيل على ياسميننا الزواج. سوف يثرثر الناس عليها، وهذه الثثرة ستكون فضيحة خفية تلف العائلة قاطبة. وسوف يتجنبهم المجتمع الراقى.

تشيع مثل ردود الفعل هذه في الشرق الأوسط. فأى فتاة تتعرّض للاغتصاب يُلقى عليها باللوم. فعلى الفتاة تقع مسؤولية

الحفاظ على عفتها. ستُلام ياسمينا على سفرها إلى الكويت. وستُلام على ترك أصدقائها والمبيت في منزل عائلة كويتية. وستُلام على مساعدة المناضلين الكويتيين من خلال نقل المناشير. وستُلام على قيادة السيارة. وستُلام لوجودها على الحاجز في الطريق. ولكن الأهم أن ياسمينا ستُلام لبقائها على قيد الحياة.

حتى لو بقيت على قيد الحياة وعادت إلى عائلتها وبلدها، وحتى لو أمكنها إيجاد القوة لتحمل نهاية كل الأمور الجميلة في حياتها، لما أمكنها الكشف عن واقع اختيارها ممارسة لعبة فتاكة مع مغتصبها، لعبة ادّعت فيها أنها تهتم لأمره وتستمتع باغتصابه القسري لها. إن اضطرت إلى الاعتراف بمثل هذا الأمر، فحتى أمها وأبوها سينبذانها. تتوقع منها عائلتها ومجتمعها، كحدّ أدنى، أن تقاوم مغتصبها في كل لحظة من كل يوم.

ستُلعن ياسمينا إلى الأبد بسبب الخيارات التي اتخذتها كي تبقى على قيد الحياة. لن تلقى أي احترام من أحد، حتى لو تغلبت بذكائها على الكابتن الشرير وعاشت لتخبر قصة السجن المقيت، مقر الاغتصاب. حينما يتعلق الأمر بالاغتصاب، تعتبر الحياة نفسها غير مهمة. شرف المرأة هو الشيء الوحيد المهم. الشرف هو مقياس الاحترام.

في الحقيقة، ستتوقع عائلة ياسمينا منها أن تتصرف مثل لانا، امرأة لم تستسلم قط.

قد تُضرب لانا حتى الموت، أو يرديها مغتصبها، لكن حتى في موتها ستحتفظ بشيء أهم من الحياة... ستُدفن لانا وكرامتها لم تُمس. ستحظى باحترام عائلتها ومجتمعها وثقافتها، لأنها لم تستسلم، ولأنها آثرت الشرف على الحياة.

لدى مقارنة نفسها مع لانا الشجاعة، شعرت ياسمينا بعاصفة خزي توازي في قوتها قوة عاصفة سرعتها مئة ميل في الساعة. بكل

تأكيد تعتبر أدنى المخلوقات، امرأةٌ منحلةٌ قالت كلمات مزيفة
لمغتصبها، امرأةٌ ادّعت الاستمتاع خلال مجامعة رجل ليس زوجاً لها،
امرأةٌ مستعدةٌ لفعل أي شيء لتبقى على قيد الحياة، في حين أن
عائلتها تفضّل موتها على أن تتقبل علاقتها الجسدية برجل ليس
زوجها.

في تلك اللحظة، شعرت ياسمينا بخزي كل لحظة تحملتها مع
الكابتن. ولأول مرة أيقنت ياسمينا أنها لن تستطيع أبداً العودة إلى
ديارها.

الفصل الثالث عشر

الوقت يمر:

من منتصف الليل إلى الفجر

بعد إعطاء الأدوية للانا وملاطفتها حتى تأكل قطعاً صغيرة من الدجاج الملفوف بخبز البيت، خبأت ياسمينا ما تبقى من طعام تحت ثوب من أثواب النوم المميزة الثلاثة التي لا تزال مطوية في علبة وموضوعة في إحدى زوايا الزنزانة. كانت لانا قد ذكرت أنه لسبب ما، لا يبحث الوحش بين ملابسها، مع أنه غالباً ما كان يفتش في كل شيء آخر في الزنزانة، باحثاً عن شيء ما ليفجر به الغضب الدفين الذي لا ينفك يغلي في قلبه.

خطّطت ياسمينا لإجراء حديث مطوّل وجميل مع لانا، لإطلاعها على كل التفاصيل المشوقة التي عرفتتها عن الاستعدادات العسكرية في السعودية، وهو الحدث الوحيد الذي يمدّها بأمل انتهاء كابوسهن ذات يوم، وأن هذا اليوم قد يحل قريباً. ولكن لانا يكاد يشلّها الألم الناجم عن أصابعها المكسورة، وبالكاد أمكن للفتاة المسكينة أن تتابع حديث ياسمينا.

عوضاً عن إجهاد لانا بالحديث، عزّت ياسمينا صديقتها بوجودها الذي هدأ من روعها، وربّت كتفها ولامست جبينها بأصابعها، ثم حاولت تمشيط خصلات شعرها الطويل بأصابعها. أنعم الخالق على لانا بشعر أسود مموّج وجميل ينسدل حتى حدود خصرها.

أسرّت لانا أنفاً أنها لطالما اعتزّت بشعرها الغزير جداً إلى درجة

أن والدتها وأخواتها أثنين على جماله، واعتبرنه الإطار الأمثل لوجه فائق الجمال. في بداية الأسر، حاولت لانا أن تُبقي شعرها مربوطاً كضفيرة سميكة واحدة، ولكن بعدما استخدم الوحش شعرها في تعذيبها - حيث بدا أنه يستمتع برميها في أرجاء الغرفة بعد الإمساك بضعفرتها - كفت عن ربطه بتلك الطريقة. وبعد أن لقه الوحش حول رقبتها وخنقها بواسطة إلى أن فقدت الوعي، تمت لانا الحصول على مقص لتقص شعرها الغالي بالكامل.

ولكن لم يُسمح لأي من النساء بامتلاك شيء كهذا. حتى وحش لانا ما كان ليسمح لها بامتلاك أداة حادة كهذه. فالذين يعدّون الآخر ويعتفونه ويرهبونه عليهم دوماً الخشية من اندلاع ثورة ضدهم.

فجأة لاحظت لانا شيئاً غريباً لدى ياسمينا. كانت ياسمينا تضع في يدها ساعة رولكس مرصعة بالألماس، وهي واحدة من الأشياء الباهظة الثمن العديدة التي وجدها الكابتن على الرصيف خارج أحد أفخر متاجر المجوهرات في العاصمة الكويتية. من الجلي أن اللصوص السابقين قد ملأوا أكياسهم بالساعات والمجوهرات الثمينة فسقط منها الفائض لدى هروبهم. وصودف وجود الكابتن أثناء عملية الهرب، فوجد هذه المجوهرات ملقاة مثل الكنز عند قدميه.

أخذها ولم يخبر أحداً ما عدا ياسمينا، لأنه كان يفترض بالجنود إرسال كل شيء ذي قيمة إلى قصور صدام، حتى يحتفظ الطاغية وعائلته بكل الثروات الكويتية. ولما قرّر الكابتن أن يتخذ من ياسمينا زوجة ثانية له، ارتأى أن يقدم لها أصغر الساعات التي بحوزته. أبدى غروراً حينما تبجّح أمام ياسمينا بأنه يحتفظ بساعتين من الساعات لأمه وزوجته في العراق. والساعتان الأخيرتان سيحتفظ بهما لزوجتيه الآخرين، إن اتّخذ زوجة ثالثة ورابعة.

بعد أن عزّزت الثروة المسروقة من الكويت مستواه المادي، باتت تراود الكابتن أحلام كبيرة. كان قد عمل بجهد بالغ في الكويت للفت انتباه رئيسه، الذي بات يعتمد عليه في كثير من المهمات الصغيرة.

فراح الكابتن يعوّل على الحصول على ترقية. أخذته الأمل ثم قال إن أيام الفقر باتت على الأغلب وراءه وإذا أفلح العراق في السيطرة على الكويت، فمن المؤكد أن يُرقى لمنصب فاعل في المحافظة التاسعة عشرة. رأى أن بإمكانه أن يصبح ذات يوم شيخاً محترماً في قريته الصغيرة، ويبنى أربع قبيلات تشغلها أربع زوجات. تبجح أمام ياسمينا قائلاً: «أخيراً سأحظى بالحياة التي أستحقها. سأحتفظ بزواجتي الأولى بدافع الاحترام؛ ففي النهاية هي أم ابني البكر. ولكني سأملأ القبيلات الثلاث الأخرى بنساء شابات وجميلات». ثم يمضي بقية حياته في مجامعة النساء الفائقات الجمال إلى درجة أنه سيثير حسد أصدقائه. ضحك بصوت عال على هذا المشهد الخيالي، ومال برأسه إلى الوراء وفغر فاه بشكل واسع لدرجة أن ياسمينا رأت كل لسانه، حتى أنها رأت مريئه الذي بدا شديد الاحمرار، وكأن النار اشتعلت فيه. راحت تقول في نفسها: «بكل تأكيد الجحيم مستعر في أحشاء هذا الرجل».

كاد الغضب يخنق ياسمينا حينما قدم لها الساعة. فقد حسب أولئك المغتصبون أن بإمكانهم إسكات أسيراتهم بالحلي، ولكن حتى الحلي الثمينة لن تشتري له حبها. بات الكابتن أكثر سعادة مما كان عليه حين التقت به، وكشف لها عن خططه بزيادة عدد حريمه. على الرغم من غضبها، كافحت بنجاح لإبقاء تمثيلها مقنعاً وطبيعياً. تكلمت معه بابتهاج، دافعة إياه إلى الاعتقاد بأن حلمها الوحيد في الحياة هو أن تصبح زوجته وتتمتع بمجامعته الرائعة لها كلما سنحت الفرصة. ولكن في الحقيقة كانت تشعر أنها لو سنحت لها الفرصة يوماً ستبتر عضوه الذكري وتثبته بمسامير على عصا وتتركه يحترق ويتفحم تحت أشعة الشمس الحارقة. أو ربما تقيه في الزيت المغلي. ثمّة أشياء كثيرة يسعها القيام بها لتحقيق قدر من العدالة لنفسها. لكنها حالياً قاومت هذه الأحاسيس ووضعت الساعة الجميلة في يدها ورسمت ابتسامة توازي الساعة جمالاً على وجهها.

ياسمينا فتاة تتحلّى بالعقلانية والمنطق. قالت لنفسها أن

بوسعها تسوية الحسابات لاحقاً، مع الكابتن ومع نفسها. إن هذا الخداع الذي تمارسه بحق الكابتن يكلفها احترامها لنفسها. ولكنها أبعدت مثل هذه الأفكار عن ذهنها، واعتبرت أن الساعة قد تفيدها في وقت لاحق. إذا حل مكروهه بالكابتن، فقد تقايس هذه الساعة الثمينة بحياتها، أو بحياة لانا.

فجأة لاحظت لانا ساعة الرولكس فقالت: «كانت أمي تمتلك مثل هذه الساعة، أهداها إياها والذي بمناسبة ذكرى زواجهما السنة الفائتة». عبست لانا وراحت تفكر، فيما احمرّت وجنتا ياسمينا، وشعرت بالخزي حينما فهمت أن صديقتها أبدت لطفاً بالغاً حين سألتها عن كيفية حصولها على مثل هذا الغرض الثمين.

سحبت ياسمينا ذراعها، وقالت في نفسها: لو عُرِضت على لانا مثل هذه الساعة لكانت حطّمتها ورمتها في وجهه مغتصبها. ثم هدّأت من قلق لانا وروعها بالقول إنها وضعت الساعة في يدها لتتذكّر أنّ عليها ألا تطيل البقاء أكثر من ساعة كما هو محدّد لها.

اضطرب جو الزيارة لمجرد أن رأت لانا الساعة، لأنها لا يسعها سوى التفكير بالوقت، وظلت تسأل تكراراً عن الوقت الذي تبقى لعودة الوحش من رحلته. هل تعتقد ياسمينا أنه سيعود في الوقت المحدّد للاغتصاب الصباحي؟ باتت تحكم حياة لانا حالياً ثلاثة اغتصابات يومية. بكل تأكيد، أي وقت يعود فيه الوحش سيكون مبكراً جداً.

مرّ الوقت المحدد لزيارة ياسمينا بشكل أسرع مما أرادت. كانت تود البقاء مع صديقتها إلى الأبد، لحمايتها من الوحش. ولكن الساعة سردت القصة الحزينة، بأن الوقت قد حان كي تظل لانا وحدها وتواجه مخاوفها بشأن ما ينتظرها، سواء في الصباح أم العصر. لم يكن بيد ياسمينا ما تفعله لتمنع عن لانا التعرّض للاغتصاب والتعذيب. لم يسعها سوى زيارتها مرة واحدة في اليوم وبذل أقصى جهدها لتوفير بعض العزاء لها.

وبسبب قلقها على انهيار لانا الجسدي، عمدت ياسمينا المترددة إلى احتضان صديقتها وتوديعها لذاك اليوم، وقالت لها إنها ستعود عصر اليوم التالي.

حدّقت المرأتان إحداهما إلى الأخرى، غير راغبتين في كسر الرابط الروحي بينهما. وعجزتا أيضاً عن البوح بما لا يُنطق، على الرغم من أن ياسمينا همست بكلام لم يخطر على بال، كلام لم تقصد قط قوله. «يا لانا هل يسعك أن تتركه يفعل ما يشاء دون مقاومة؟ هلّا جاريته؟ هلّا ادعيت أنك موافقة على فعلته؟ هل هذا ممكن؟».

حدّقت لانا إلى ياسمينا وارتسمت تعابير حادة على وجهها، فبدأ جلياً في تلك اللحظة أن لانا فهمت تماماً خطة ياسمينا الرامية إلى مناورة الكابتن والانتصار عليه. ومع ذلك خلا رد فعلها من أي لوم، فلانا تتمتع بروح كريمة ولم تغضب من ياسمينا بسبب تمثيليتها الخدّاعة. ثم تكلمت بلطف مؤثّر: «لا، لا يسعني ذلك. هذا مستحيل. سأقاومه إلى أن أتحرّر أو يقتلني». ابتسمت لانا ابتسامة لطيفة وأضافت: «ولكن لا بد لإحدانا أن تعيش يا ياسمينا. لا بد لإحدانا أن تروي قصة ما حدث هنا. ذات يوم سيقتلونني. ذات يوم سيرمون هذا الجسد المُنتهك في قبر لا شاهد له. هذا قدرتي. عندها لا ينبغي لوالديّ أن يهدرا حياتهما بحثاً عني. سيحتاجان إلى وقت للحداد، ثم سيكملان العيش من أجل أولادهما. يرتاح قلبي لمعرفة أنك ستظلين على قيد الحياة».

هزت ياسمينا رأسها خجلاً، ومنعها خجلها البالغ من الكلام. أيقنت من كل قلبها أن لانا تستحق أن تعيش حياة كاملة، لكنها لن تفعل.

«اسمعي يا ياسمينا، نجاتك ستساعد عائلتي. حاولي إيجاد ورقة وقلم. حينما يقترب موعد الحرب، عليّ أن أعطيك معلومات. يجب أن تعرفي اسم عائلتي وعنوان منزلهم. حتى الآن لم أخبر أحداً بذلك، لأنني خشيت أن يسعى الوحش وراء أمي وأخواتي. ولكن بعد انتهاء هذه المأساة، أريد منك أن تتصلي بهم. يجب أن يصل إليهم خبر موتي. عليك أن تخبرهم بأن شرفي سلب مني، ولكنني لم أكف يوماً عن

المقاومة، واخترت الموت على الحياة. سيتفهمون الأمر».

بعد عناق يدمي القلب، خرجت ياسمينا من زنزانة لانا وهي تتعثر بخطواتها والخزي باد على وجهها، وعادت إلى زنزانتها وهي تشعر بأنها أكثر امرأة تستحق التوبيخ في العالم. في تلك اللحظة، كانت لتدراً بجسمها الرصاص إن تم توجيهه صوب لانا، لأنها اقتنعت بأن لانا تستحق الحياة، وهي لا تستحقها.

* * *

من ذلك المساء، أمسى كل تركيز ياسمينا منصباً على مساعدة لانا. فقد رغبت بشدة أن تنقذ حياتها، ولكن إذا أخفقت وقتل الوحش لانا، فلا بدّ لياسمينا أن تنقذ رغبات صديقتها. عليها أن تقنع الكابتن بأن يعطيها ورقة وقلماً. شعرت بالثقة من أنها ستقنعه بتنفيذ طلبها، لأن خداعها له يصبح أكثر قابلية للتصديق مع كل يوم يمر. كان الكابتن أشبه بطفل مدلل، يسهل إقناعه مادام يأخذ ما يريد بالضبط.

في ذاك الوقت أصبحت ياسمينا تعرف الرجل جيداً، وهذه الثقة التامة بأنه رجل لا يشبه من عداه - رجل وسيم مرغوب تقع في حبه أي امرأة حتى ضحية الاغتصاب - ستكون مستغرّبة في أي ظرف مغاير. في الحقيقة لم يكن الكابتن وسيماً ولا جذاباً ولا لطيفاً. كان رجلاً عادياً في مظهره وجسده ووجهه. وكان طويلاً ذا جسم هزيل، وكرش مدور. لم يكن مقرفاً من الناحية الجسدية كحال مغتصب لانا، ولكنه كان خالياً من التميّز، وينتمي إلى النوع الذي يضجر عروسه قبل انتهاء شهر العسل. وفي حين كان يتمتع ببعض الذكاء في المسائل العسكرية وقيادة الجنود، بدا رجلاً عادياً في الأمور الأخرى.

لو كان الكابتن على متن طائرة تحمل ياسمينا، لكانت نسيت وجهه قبل أن تتجاوز عربة تقديم الطعام مقعده.

قلقت ياسمينا. بكل تأكيد هي ذكية بما يكفي كي تستحصل من الرجل على ورقة وقلم. لذا عمدت قبل وصول الكابتن للحصول على

وجبة طعام وحنس إلى صقل خطتها.

في هذه الليلة فاجأها حين اقتحم باب الزنزانة كمغتصب نهم. أخذها على حين غرّة، فاضطرت ياسمينا إلى بذل جهد حثيث لعدم كشف تمثيليتها. ودون أن يتريّث ليسألها عن يومها، أو ليخبرها عن يومه، أمرها قائلاً: «تعريّ! بسرعة! أنا منزعج». ثم لامس منطقته الحساسة وأضاف: «أسرعي! عليّ مجامعتك بسرعة وإلا سيصيبني السقم!».

أخفت ياسمينا امتعاضها وخلعت ملابسها على عجل. وقبل أن يتسنّى لها خلع سروالها الداخلي كان الكابتن قد تعرّى وجثم فوقها. مزق الكابتن سروالها الداخلي عن جسمها إلى ثلاث قطع. مع ذلك ادّعت الاستمتاع حينما اغتصبها. لكنه لم يصل إلى النشوة، فجامعها من جديد ثم توقف وقال لها إنه مضطر إلى ولوجها من الخلف. ما زال يفكر بتلك المرة التي جامعها فيها بهذه الطريقة، وكم كانت تلك المنطقة ضيّقة.

دبت الرجفة في جميع أنحاء جسم ياسمينا. فهي لم تنسَ الضرر الجسدي الذي عانته حينما أخضعها تلك المرة إلى هذا النوع من الاغتصاب، ولكن قبل أن يتسنّى لها التلقّظ بكلمة واحدة لتذكيره بأنها اعتقدت أنها باتت بأمان من خطر هذه العملية المؤلمة، قلبها على بطنها.

وقف الكابتن وأخذ يبحث في كيس مستحضرات التجميل. عاد ويده مرطبان يحوي مرطّباً للوجه. قبعته في مكانها، لا حول لها ولا قوة، فيما أخذ بأصابعه قليلاً من ذلك المستحضر ومسحه على ذلك المكان الحساس. بدا أنه استمتع برؤيتها تتلوى جراء شعورها بالضيق لأنها تمقت أن يلامسها بأصابعه القذرة ولأن المستحضر أحرق الأغشية الحساسة داخل جسمها وكأنه شعلة النار. قال بصوت رخيم لم تعهده من قبل: «هذا سيساعدك يا عزيزتي. هذا سيمنع عضوي الكبير من إيدائك».

ثم أمسك بجسدها الصغير وجذبها إلى أعلى بواسطة وركيها، وقبل أن يتسنّى لها أن ترجوه عدم إيذائها، دخل بها وراح يجامعها بقوة.

كان ألم الجنس الشرجي حاداً جداً، تماماً كما تذكره. وضعت ياسمينا يدها في فمها لتمنع نفسها من الصراخ، لأنها توقن أن الكابتن يتبجّح أمام الآخرين بأن كل ملاطفاته ولمساته تروق لها، وسيثور غضباً إن سمعها رجاله تتوسّله كي يتوقف.

وصل إلى النشوة بسرعة، وشعرت ياسمينا بالدم الدافئ يمتزج مع سائله المنوي ويسيلان على مؤخر رجلها نحو فخذيها.

بعدها احتضنها من الخلف وهمس قائلاً: «أترين؟ كانت العلاقة هذه أفضل مما تذكرين. من الأفضل أن نعتمد هذه الوضعية فهي ستفيدك. سوف تحبينها مع الوقت».

كان مزاج الكابتن رائعاً جداً لدرجة أنه مكث أطول من العادة، وأسرّ لياسمينا بصوت خفيض بكل ما سمعه عن تشكيل جيوش التحالف التي تتجمّع في السعودية. بدا أن أعداءهم يخشون من جيش صدام، فهم يجمعون قوة قتالية ضخمة. بابتسامة غريبة على وجهه أخبرها بأن الجيش العراقي يحضّر أيضاً لحرب كبيرة، فهم لا يملكون خياراً آخر. لن يستسلم صدام أبداً، لذا ستكون الحرب قتالاً حتى الموت.

ارتعدت فرائص ياسمينا خوفاً. فأخر ما تتمناه هو البقاء محتجزةً داخل زنزانه فيما القنابل تتساقط فوق رأسها. لقد سمعت ما يكفي عن العنف المروّع من أصدقائها وأقاربها الذين احتجزوا في شققهم في بيروت خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982.

حين لمح الكابتن تعابير القلق على وجه ياسمينا، فرك كتفيها مؤاساةً وقال: «لا تقلقي يا عزيزتي. لن أسمح بإنزال أي مكروه بك». ثم وعدها قائلاً: «سأفكر بحلّ ما».

شعر الكابتن بعاطفة بالغة تجاه ياسمينا حين ذكرت أنها تريد أن تقضي ساعات وحدتها في الرسم، ولعلها ترسم وجهها الوسيم، وأنها تحتاج إلى أوراق للرسم وبعض أقلام التلوين، فابتسم كالأبله وهو واقع حاله. «ستحصلين عليها يا محبوبتي، يا زوجتي العزيزة».

امتثلت ياسمينا لأمره حينما أمرها بالانحناء، هامساً لها إنه يريد مجامعتها ثانية. دفعت ثمناً كبيراً لقاء موافقته على مدها بالأوراق والأقلام حين تهيج ثانية وأصرّ على تكرار اغتصابها بالطريقة الأنفة نفسها.

غادر الكابتن أخيراً زنزانته وتركها وحدها، فانهارت ياسمينا على حصيرها وراحت تنتحب، وأحست لأول مرة منذ أسبوع أنها هي أيضاً ستذوي مع لانا. لن يتحمل جسدها الصغير مثل هذه الاعتداءات الوحشية يومياً. إلى متى ستدعي الاستمتاع بالتعرض للاغتصاب بهذا الشكل الهمجي المؤلم؟

بحزن يخيم في الجو مثل غيوم داكنة متلبدة تخيم فوق جبال لبنان لتحوّل اليوم المشمس معتماً، أغمضت ياسمينا عينيها مستسلمة للفكرة التي طاردتها حينما غرقت في الكآبة المطلقة. جلست صامتة تفكر بأهوال الموت العنيف، والألم الذي أيقنت أنه سيخترق جسدها حينما يحل اليوم الذي ستربط فيه على العمود وقبل أن يمسك الرجال المجردون من الإحساس أسلحتهم الفتاكة. قررت أنها لن تغمض عينيها في تلك اللحظة، بل ستتفرج على الرصاصات المعدنية القاتلة التي ستنتطق من الأسلحة الفتاكة لتخترق جسدها الصغير وتضع حداً لحياتها.

كادت الصورة تفوق قدرتها على الاحتمال. لم تشأ الموت. أرادت أن تعيش. ارتجفت ياسمينا وبكت ولكنها كافحت لتستعيد صلابتها الذهنية. ذكّرت نفسها أنها امرأة قوية وأنها لن تسمح للكابتن، بل ولا يسعها أن تسمح له، وهو الرجل الذي لا يعدو كونه مغتصباً مجرمًا، أن يقضي عليها.

أمسكت ياسميناً رأسها بيديها وراحت ترتجف وملؤها العزم،
وقالت لنفسها إنها ستتظل على قيد الحياة!
أرادت أن تعيش! لا بدّ أن تعيش!

الفصل الرابع عشر نلتقي في البصرة!

حرب في الخليج:

واصلت القوى الجوية المتحالفة دك مواقع الجنود العراقيين، فيما دوت أصوات قذائف المدفعية والدبابات عبر الحدود الكويتية، ولم تظهر أي إشارة لمزيد من التحرك العراقي صوب السعودية.

صحيفة نيويورك تايمز

2 شباط/فبراير 1991

حرب في الخليج:

دك الطيران الحربي التابع لقوى التحالف مواقع جنود العدو في كل ركن من أركان الكويت اليوم، بعد أن حلق في عدد قياسي من المهمات فوق الإمارات، على الرغم من كثافة غيوم الدخان الأسود الناجمة عن حرائق آبار النفط التي أضرم فيها الجنود العراقيون النار كما هو جلي، وغطت ربع مساحة الدولة.

صحيفة نيويورك تايمز

23 شباط/فبراير 1991

محطة بغداد الإذاعية ومحطة الشباب التلفزيونية (التي يملكها

عدي

صدام حسين)

«بدأ الجنود العراقيون يجتثون رقاب الخونة، والفاستدين
والصافقين في معركة أسطورية هي أم المعمارك».

الرئيس صدام حسين

25 شباط/فبراير 1991

الثورة في بغداد

استمتع القراء العراقيون برسوم كرتونية متنوعة نُشرت في
الصحف العراقية اليوم.

أظهرت رسمة كرتونية جنوداً أميركيين في توابيت كُتب عليها
كلمة «للتصدير».

وثمة رسمة كرتونية أخرى أظهرت جندياً أميركياً يسير نحو
العراق على شكل هيكل عظمي.

صحيفة الثورة

25 شباط/فبراير 1991

17 كانون الثاني/يناير 1991

ارتبكت ياسميننا. هل أفل الليل؟ هل حلّ النهار؟ لم تتمكن من
رؤية النور في الخارج من زنانتها. كان دخول الكابتن إلى زنانتها
وخروجه منها يعلمانها بالوقت. قال لها إن اليوم يوافق السابع عشر
من كانون الثاني/يناير 1991، وقد شنت قوى التحالف هجماتها الجوية.
وبالتالي يتحتم عليه الذهاب وتقديم تقرير إلى رؤسائه، ولكنه سيعود.
بُعيد مغادرته الزنانة سمعت ياسميننا أصوات القنابل البعيدة والهدارة
والمنذرة بالخطر والمنتشرة في كل مكان.

بدأت دقات قلبها تتسارع، وراحت تصغي بامعان. لقد بدأت الحرب
أخيراً. امتزج خوفها مع الأمل والوعد بالخلاص. خشيت ياسميننا أن تنجو
من مغتصبها لتموت بقنابل قوى التحالف، إلا أنها أيقنت أن حرباً كاملة

تلمز لإقناع الطاغية العراقي بفك قبضته عن الكويت. سيتحتم عليها
تحمل الرعب واستخدام دهائها للبقاء على قيد الحياة.

خفّ خوفها تدريجاً حينما أعلن تحييد العاصمة الكويتية بشكل
أساسي. فتنفّست الصعداء، بعد أن شعرت بالامتنان لكون محرريهم
المستقبليين لا يعتزمون قصف مناطق يعلمون أنها مأهولة بالمدينين.

جابهت ياسمينا مصدر قلق آخر وأخطر. إذ خشيت أن تتعرّض
هي والفتيات، قبل طرد مغتصبيهن من المدينة، إلى الإعدام على
أيدي هؤلاء المغتصبين.

* * *

4 شباط/فبراير 1991

كانت كل الهجمات تُشن جواً، وتواصل سقوط القذائف يوماً بعد
يوم. ولم يكن ثمة إشارة لحدوث غزو بري. فيما كانت ضحايا الاغتصاب
يتعرّضن للترويع في كثير من الأحيان، ظل المغتصبون يتجّحون أمام
الفتيات بأنهن سرعان ما سيرين شيئاً غير متوقّع: سيرين جنوداً
بريطانيين وأميركيين يشغلون بضع زنازين. بدوا واثقين أنهم سيدمرون
العدو وسينتهي بهم المطاف بالقبض على مساجين جدد. وقد وضعوا
خططاً خاصة لهؤلاء الجنود أيضاً، تضمّنت حمامات الأسيد المرعبة،
وهو نوع مفصّل من التعذيب راحوا يصقلونه من خلال إنزاله
بالمناضلين الكويتيين. لطالما روّعت حمامات الأسيد هذه أشجع
الرجال. كانت طريقة سهلة لقتل الرجل، حيث يملأون وعاءً كبيراً
بالأسيد وينزلون العدو عارياً في هذه المادة الفتاكة. أحياناً يطيلون أمد
التعذيب، فيتركون العدو معلقاً ليتفكّر كم سيكون موته مؤلماً. لا يموت
الشخص فور إنزاله في الأسيد. لا، بل ينزلون الضحية ببطء، ويتركون
الأسيد يفتك بالقدمين ثم بالساقين ثم بباقي الجسد. بشكل عام لا
تكف الضحية عن الصراخ طلباً للرحمة إلى أن ينزل رأسها تحت الأسيد.
إن رؤية لحم الرجل يحترق عن عظامه لهو منظرٌ يثير الصدمة.

أحياناً يزيدون المتعة فيرمون أحد الكلاب أو القطط الأليفة المملوكة للكويتي في الوعاء الكبير أولاً. وأحياناً يدفع نباح الكلب أو مواء القطاة بالضحية التي تشاهده إلى فقدان السيطرة على أمعائها. ولكن القذارة تقع في الحوض لذا فلا داعي لأن يقلق المتفرّجون من أن تلوثهم أوساخ الكويتيين.

نعم، راحوا يتبجّجون قائلين إنهم سيعلمون العدو ألا يستهين بصدّام حسين.

بعد أن سمعت ياسمينا عَرَصاً هذه التهديدات الواضحة، أدركت أن التعرّض للاغتصاب ليس أسوأ ما قد يصيبها. في الواقع، لم تعرف ما إذا كان عليها أن تشعر بالقلق أو بالحماسة. فأكبر حلم راودها هو عدم رؤية الكابتن وأي جندي عراقي مجدداً. حينذاك رسمت هذه الفكرة ابتسامة على وجهها. ولكنها لم تشأ التعرض للإعدام مع انسحاب العراقيين، فارتسمت تكشيرة على وجهها لدى التفكير باحتمال وقوع هذا الأمر.

كان الكابتن يشعر بالقلق أيضاً. يملك هذا الرجل وعياً عسكرياً أكثر من رجاله، وبالتالي أسرّ لياسمينا بأن جيش صدّام لا يضاهي ما قد يأتيهم عبر الصحراء من ناحية القوة. هو يملك معلومات لا تتوفر لدى الجنود الأقل رتبة. عرف أن أعداءهم يجمعون جيشاً قوياً ويملكون أحدث التقنيات، ويريدون كسب هذه الحرب، ولن تثمر مغامرة صدّام أي مكاسب. فقد اجتمع العالم كله تقريباً للضغط عليه من خلال الأمم المتحدة. سيغادر العراقيون الكويت، بدا الكابتن واثقاً من ذلك. ولكنه أيقن أن صدّام سيؤجل الانسحاب إلى آخر ساعة، لأنه دوماً يتوقع أن تنقذه المعجزات عندما تكون حساباته خاطئة.

في تلك المرحلة لم يكن الكابتن يفكر كثيراً بصدّام أو بسواه. فللمرة الأولى، انتقد الطاغية العراقي، فهمس لياسمينا: «صدّام وقبيلته يجلسون في بغداد ويستهلكون ثروات النفط وكأنهم تبوّلوه من أحشائهم، دون أن يعترفوا بأن النفط العراقي تكوّن في باطن الأرض

تحت أقدام العراقيين».

وبدا أنه ندم على ما قاله فوراً، فحبس أنفاسه وزمّ شفّيته، علماً
منه أن العراقيين الذي لا يعبرون عن الإخلاص التام والتفاني المطلق
لصدّام يعرّضون حياة عائلاتهم قاطبة للخطر. منذ أيام شبابه وهو يبايع
صدّام حسين.

تمتم قائلاً: «صدّام ليس المشكلة». هدفه الوحيد هو البقاء على
قيد الحياة. ثم وعد ياسمينا بأنه سينقذها أيضاً.

* * *

25 شباط/فبراير 1991

بعد شهر من القصف المتواصل حول حدود العاصمة الكويتية، بدا
أن النهاية وشيكة. ماذا تبقى بعد ليقصفوه؟ فالكويت بلد صغير. بدت
ياسمينا واثقة أن دبابات قوى التحالف وجنودها سيدخلون قريباً. في
وقت سابق من ذلك اليوم أخبرها الكابتن أنه هو ورجاله ينتظرون
الأوامر من بغداد بشأن ما ينبغي عليهم فعله.

أرادت ياسمينا أن تكون قوية جسدياً حينما يحل التحرير، لذا
راحت تأكل أكثر من المعتاد وتأخذ قيلولة بين وقت وآخر. في حوالي
الساعة الثالثة عصراً في الخامس والعشرين من شباط/فبراير، كانت
ياسمينا نائمة، لكن نومها لم يكن عميقاً. حيث راحت تتقلب من جنب
إلى جنب، ثم عادت وغطت في نوم غير عميق.

راودتها كوابيس مرّوعة، بدت مقنعة جداً إلى درجة أن ياسمينا
شعرت أنها حقيقية. في الكابوس الذي راودها، كانت محشورة داخل
نفق من الأحلام السوداوية، فيه ممر تلو آخر نظير أنشطة فيلم
طويلة جداً تتكشف عنها مشاهد عدة مزعجة. شهدت ياسمينا مقتل
والديها بشكل وحشي، وعيونهما تجحظ اندهاشاً وهما ينقلان البصر
من ابنتهما إلى الكابتن، الذي وجّه إليهما سلاحاً مخيفاً. راحت ياسمينا

تراقب محبوسة النفس، وفمها مفتوح على شكل صرخة صامتة، ضغط الكابتن على الزناد فسقط والداها أرضاً بحركة بطيئة لا تُحتمل. ثم لمحت جثة لانا العارية وهي تهرب من زنانتها وقد أصاب جسمها البرد والتصلب. إذاً قد تحقّق أكبر مخاوف لانا. لم تنجُ من هذا السجن المقيت. المشهد الأكثر رعباً رأيته حينما أتى الكابتن إلى زنزانة ياسمينا ليتبجّح أمامها بأنه أتمّ دورة خلاقة حول قراءة الأذهان. وبالتالي يمكنه الولوج إلى بواطن أفكارها بمجرد النظر إليها. وبواسطة قدرته الجديدة هذه يمكنه كشف خداعها بكل سهولة. فجأة أدرك أن المرأة التي وثق بها ودلّلها، المرأة التي تقبّلت بشغف ملاطفاته المثيرة، لا تحبه. استنشاط غضباً حينما اكتشف أنها تمقته، وأنها أمضت ساعات طويلاً في التأمّر على قتله وتقطيع أوصاله.

وبغضبٍ صامت أقام الكابتن محاكمة لها. وكان قضاتها هم الحراس المغتصبون في السجن. اطمأنت حينما سمعت أن عقابها لن يكون الإعدام إلى أن تم إعلان الحكم: سيتم تقديمها إلى مغتصب لانا ليفعل بها ما يشاء.

حين مدّ الوحش الذي ينظر إليها شزراً يده للإمساك بها، أيقظتها سلسلة من الأصوات الصاخبة من نومها. ما سبب تلك الأصوات الهدّارة؟ لوهلة وجيزة وجميلة حسبت نفسها في فندق فخم في بيروت، يطل على البحر المتوسط، وهي تستمتع بمنظر المفرقات النارية التي تحتفل بها في ليلة رأس السنة هي وعائلتها وأصدقائها.

حينما صحت ياسمينا من هذا الحلم المشوّش، راحت دقات قلبها تتسارع. فهذه الأصوات الصاخبة ليست مفرقات نارية وإنما طلقات نارية! هل تسمع أصوات الطلقات النارية التي يعدمون بها إحدى ضحايا السجن؟ إن صح ذلك، فأى من الفتيات هي التي أُعدمت؟ لانا! هل هي لانا؟ هل عمد الوحش أخيراً إلى قتل تلك الفتاة الرقيقة؟

قبل أن يتسنّى لياسمينا الحراك، عمّت كل أرجاء السجن فوضى عارمة، حيث سُمع وقع أقدام صاحب في أرجائه. بدا أن الحراس الذين

يصرخون يركضون في اتجاه ويعودون من آخر. علت صرخات الفتيات وتوسّلاتهن فجأة، وضجّ المبنى سريعاً بزعيق وصرخات عالية جداً إلى درجة تخيّلت معها ياسمينا أن السقف يُنسف عن سطح السجن.

ما الذي يجري؟

تجاهلت ياسمينا آلامها وأوجاعها التي ألمّت بها عقب اغتصابها الليلة الفائتة وأسندت جسمها على يديها ثم نهضت على قدميها. سحبت أول ثوب رأتته وارتدته ثم انتعلت صندلاً في قدميها. ثمة شيء خطير يجري. تأهّبت فوراً، وأتت بحقيبة صغيرة ووضعت فيها بضع قوارير من المياه وبضع قطع من خبز البيت وأطعمة خفيفة.

لم يبارحها قط الإحساس بوجود خطر داهم. هل هذا هو اليوم الذي ستموت فيه؟ هل كان الكابوس حدساً ينبئ بقدم شيء ما؟ هل أقدم الأميركيون والبريطانيون والسعوديون والسوريون وكل الجيوش التي تتجمّع في السعودية على تنفيذ هجوم مفاجئ؟ هل سينجم عن هذا الهجوم العسكري مجزرة في السجن؟

لم تنسَ التحذير المخيف الذي صدر عن كابنتها في أول أيام السجن. إذ قال إنه في حال هوجمت القوات العراقية في الكويت، فينبغي عدم ترك أي شهود على جرائمهم. وبكل تأكيد لن تُترك أي ضحية اغتصاب على قيد الحياة ليتسنّى لها أن تشهد على جرائمهم. من دون شهود أحياء، يمكن للمغتصبين دحض تهمة إدمانهم البشع على القبض على العذارى واغتصابهن لغرض الاستمتاع. أكد الكابتن لاحقاً لياسمينا أنها لن تتعرّض لأذى فيما سيتم إعدام كل النساء الأخريات.

راحت ياسمينا تصغي بامعان لتتبيّن إن كان ثمة دوي رصاص بعيد. لم تسمع أي صوت. بكل تأكيد سيُحدّث الجيش المهاجم الذي يتقاطر إلى العاصمة الكويتية جلبة صاحبة. ومع ذلك، ليس ثمة مجال للإنكار بأن حراس السجن يتحصّرون لشيء مهم.

حضرت نفسها للحظة التي حانت أخيراً. كانت أكثر إماماً من سواها من المُحتَجِّزين في الكويت لأن الكابتن أخبرها عن المخططات العسكرية العراقية التي يعرفها.

بعد الإصغاء إلى التقارير كان يجلس صامتاً ويطلب إليها عدم مقاطعته لأن عليه التفكير بأفضل خطة كي يبقى على قيد الحياة. عرف الكابتن أن الفرصة ستأتي، وأن العراق ربما لن يتمكن من الحفاظ على الكاظمة، محافظتهم التاسعة عشرة. ربما سيكون من الضروري إعادة رسم خرائط العالم لأطفال المدارس العراقيين حتى تعود الكويت إلى الوجود ثانية.

دعت أن يكون الكابتن محقاً، وأن يأتي العالم لإنقاذ المسجونين والمحتضرين في الكويت. واستناداً إلى حالة الفوضى التي تسيطر على جو السجن، اعتقدت أن دعواتها قد استُجبت.

حدّقت ياسمينا من خلف ستائرها، وراحت تراقب الحراس المسلحين وهم يركضون. سمعت خشخشة مفاتيح وصرير أبواب. نظرت إلى الساعة التي لا تزال موضوعة على طاولة صغيرة في الرواق. كانت الساعة الخامسة عصراً، وهو الوقت الذي يتناول فيه أغلب الموجودين في السجن وجبة طعام، ولكن أحداً لم يكن يأكل حينها.

مر اثنان من الحراس الأكبر سناً من أمام زنزانتها. كان كل منهما يحمل مسدساً كبيراً بيد وبالأخرى يجر امرأته من شعرها الطويل. كانت كلتا الفتاتان اللتان تُجران كويتيتين شابتين قُبض عليهما حديثاً. وكانت المسكيتان تكافحان لحفر كعوب أقدامهما في الأرض الإسمنتية الصلبة، في محاولة منهما لدرء المحتوم، في حين كان مغتصباهما يجرانهما إلى خارج السجن. تم تحذير الضحيتين أنفاً بأنهما ستُعدمان، فراحتا تناشدان المغتصبين العفو. شعرت ياسمينا بالأسى البالغ عليهما، لكنها ارتاحت لكونها لا ترى لانا. خنقتها العبرة حين أخذت تفكر بما قد يجلبه هذا اليوم لأعز فتاة عرفت في حياتها.

حينما لمح أحد الحراس ياسمينا تشاهد ما يحصل، وجّه إليها نظرة خبيثة. ارتعدت ياسمينا خوفاً، وانزلت الستارة من بين أصابعها فيما ابتعدت عن مرأى عينيه. وخوفاً منها أن يقرر صاحب النظرة الخبيثة إعدامها هي الأخرى، خبأت نفسها قدر استطاعتها خلف الستارة البلاستيكية التي تحجب منطقة المرحاض.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر IKitab

لأول مرة منذ اختطافها وسجنها، تافت ياسمينا لرؤية الكابتن. أنبأها قلبها أن رجاله يمكن أن يعدموها إلى جانب الفتيات الأخرى، أما هو فلن يفعل.

أدركت ياسمينا أن الحياة العادية السابقة التي كان يعيشها الكابتن لم تعد تستهويه، إذ بات لديه آمال وأحلام جديدة تترافق مع حلمه بأن يتزوج أربع نساء. كما أدركت أنها تقبع في وسط هذا الحلم. كان الكابتن قد تبجّح بأنه سيأخذ ياسمينا الجميلة إلى قريته ليستعرض جمالها أمام الآخرين. وأيقنت أنه يتوق جداً للتبجّح بأن مثل هذه المرأة الجميلة لا تشبع منه. فمع زوجة شابة جميلة ومال وفير من الكويت، أخيراً سيحقق الرجل العسكري الكئيب، الرخاء الذي شعر أنه يستحقه. سيصبح شيخاً صاحب مقام رفيع في قريته، ورجل نفوذ ووعود. وعندها سيكون إلى جانب أهم رجال العراق. وكل من احتقره في السابق سينظر إليه بعينين ملؤهما الاحترام والحسد.

لقد منحته الكويت فرصته، ولن يحصل ثانية على فرصة التمتع بحياة الشيخ الثري المميّزة. لا يمكن له أن يدع هذا الحلم يضيع منه.

تنبّهت ياسمينا من غفلتها بعد أن كانت سارحةً في بحر أفكارها حينما سمعت رنين المعدن المألوف الذي تخشاه. فُتح باب زنانتها على عجل. فحبست أنفاسها خوفاً، إلى أن سمعت الكابتن ينادي باسمها. كانت أطرافها واهنة جداً حتى أنها بالكاد أمكنها التحرك.

وعوضاً عن النهوض والسير راحت تعرج مثل سيدة صينية عجوز أمضت حياتها قابعة على كرسي مغطى بقماش حريري لأن رجليها رُبطتا بإحكام بالغ، فلم يزد حجم قدميها الصغيرتين حجم براعم الزهر. راحت تتخبّط وتترنّح وهي تتّجه صوب الكابتن.

من الواضح أنه وجد خوفها واعتمادها الكامل عليه أمراً محبباً. حتى وسط الأزمة وجد سبباً للابتسام.

«لم تختبئين يا ياسمينا؟»

اعترفت بصوت ناعم جداً لا يكاد يسمعه: «أنا خائفة. فهؤلاء الرجال جنّ جنونهم. منذ ساعة وهم يركضون ذهاباً وإياباً. ثم ارتجفت وأضاف: «بعض الرجال أعدموا نساءهم. ما الذي يحصل؟».

أمسك بيديه الكبيرتين يديها الصغيرتين وجذبها إلى أسفل. «اجلسي».

جلست وشعرت بالامتنان لكونها سقطت على حصيرها.

«لقد تطوّرت الأحداث كما توقّعتُ لها. أنبأني مصدر موثوق أن بغداد ستأمرنا قريباً بمغادرة الكويت».

كان حلقها جافاً جداً فأتى ردّها على شكل نقيق خشن. «آه؟»

لم يضيّع الوقت. «إنني أنتظر هذا الأمر. حينما يصدر سنضطر إلى المغادرة». توقف هنيهة، وأفلت قبضته ثم داعبها بيده، وهو الرجل المهووس بجسدها مهما كانت الظروف طارئة. «لا يسعني أخذك معي».

أدخلت كلماته السعادة إلى قلبها مثل طفل قيل له إن كل الهدايا التي حلم بها سيحصل عليها قريباً. كافحت ياسمينا لتكبح ضحكاتهما، لكنها تذكّرت تحذيره بعدم ترك أي شاهد ليخبر بما حصل في السجن المقيت. كذبت من جديد، على الرغم من أن قصتها بدت غير قابلة للتصديق وغير مُحكّمة. «أرجوك، عليك أن تأخذني معك. أيها الكابتن

تعلم أنني غير قادرة على العيش من دونك».

ابتسم فرحاً، وأخذ كلامها على أنه حقيقة. بدت تصرفاته مثل تصرفات البشر لأول مرة منذ التقت به. بدا رجلاً مغرمًا ومتأثراً بمشاعر حبيبته. «أعلم كم تحبيني. أعلم أنه لا يسعك العيش من دوني. لذا فقد وضعت خطة».

أفلت يديها ومدّ يده إلى جيب بنطاله. «خذي هذا»، ووضع في يديها رزمة من الدولارات الأميركية ملفوفة برباط مطاطي، «وهذه»، وأعطاهها ورقة مجعّدة عليها كتابات من الجانبين. «إليك كل المعلومات عني. على الورقة تجدين اسمي واسم صديقي العزيز عبد الله في البصرة. إليك إرشادات كي تجدي منزله في البصرة. بمجرد أن تنتهي كل هذه المعمعة، اخرجي من الكويت، وتعالى إلى البصرة، وابحثي عن صديقي. يمكنك الوثوق به. هو سيجدني. سنتزوج في البصرة ثم سأخذك معي إلى ديارى لأعرفك على عائلتي».

ومثل موجة هائلة تجرف كل ما كان موجوداً قبلها، زال القلق واجتاحت الارتياح كل كيان ياسميناً، من دماغها حتى أطرافها المرتجفة.

سوف تعيش!

سوف تعيش!

سوف تعيش!

حاولت قدر استطاعتها أن ترسم على وجهها تعبير امرأة غارقة في الحب اليائس. «سوف آتي. في أول فرصة تسنح لي سأتي إليك».

انحنى صوبها وقبلها. همس لها قائلاً: «انت امرأتي. وستكونين زوجتي المفضلة». ثم ابتسم. «سنمارس الجنس يومياً وكأننا في شهر عسل. لن نتوقف أبداً. تعالى إليّ، لحظة تنتهي كل هذه المعمعة».

«نعم، نعم سأفعل».

بعد أن أسكره جمالها بدأ الكابتن يفك حزامه. أمرها قائلاً:

«اخلعي ملابسك. علينا أن نفعّلها مرة أخيرة قبل أن آخذك».

جمدت ياسميننا، بعد أن راح ذهنها نحو مستقبل رائع لن تضطر فيه من جديد إلى تسليم جسدها لهذا الرجل. تمتت قائلة: «هل أنت واثق؟ هل لدينا وقت؟».

صدر صوت مهتاج من أحد الجنود العراقيين في مكتب السجن: «أيها الكابتن! أيها الكابتن؟».

نظر كابتن ياسميننا إليها بحزن وندم. «أنت محقة. ليس هناك وقت. حضري حاجياتك. يجب أن تغادري».

حملت ياسميننا حقيبتها، ووضعت فيها الدولارات والورقة التي تحوي إرشادات لكيفية إيجاد الكابتن في البصرة. ثم استجمعت شجاعته وسألته: «ماذا عن لانا؟ ماذا عن النساء الأخريات؟».

«أمرهن لا يعينك يا عزيزتي».

رجته بيأس: «أرجوك دعهن يأتين معي. أرجوك».

عادت ملامح الوجه القاسي والعنيد ترتسم ببطء على وجه الكابتن، من حاجبيه إلى ذقنه. وكأنه يرتدي قناعاً. ومن جديد، لم يؤثر شيء في قلبه الذي قسا كالصخر. شعر بالانزعاج، وأيقنت هي ذلك. «أخرسي. علينا إيصالك إلى مكان آمن فيما يسنح لنا من الوقت».

وتوقاً منها لإنقاذ صديقتها الكويتية، خاطرت ياسميننا مخاطرة كبيرة أيقنت أنها قد تفجر غضب الكابتن. «لانا؟ على الأقل لانا؟ أرجوك، أتوسّل إليك».

لم يتأثر الكابتن بقلق ياسميننا على صديقتها.

«أمرها لا يعينك. لا تطلبي مني ذلك ثانية. عليك المغادرة. الآن».

انهمرت الدموع على وجنتي ياسميننا، ولكن الكابتن لم يتنبّه إليها. أمسكها بإحكام من أعلى ذراعها. «هيا بنا».

أعمت هذه الدموع المفاجئة عينيّ ياسمينا. إذا تُرك مصير لانا للوحش، حتى آخر لحظة متاحة من الأسر ثم سيقنلها. لكن ياسمينا لم تملك أي خيار. راحت تركض متعثّرة إلى جانب الكابتن.

في الرواق تجاوزا كثيراً من المغتصبين، الذين غلب على تصرفاتهم التوتر. وقف أمامهما أحد الحراس الأكبر سناً وقال: «أنا أقوم بذلك نيابة عنك أيها الكابتن».

عندها أدركت ياسمينا أن الرجال اعتقدوا أنها تُساق إلى الإعدام. راح قلبها يتخبط خوفاً. هل كان كل كلامه عبارة عن تمثيلية؟ هل كذب عليها الكابتن بشأن مستقبلهما كي يحافظ على هدوئها فحسب؟ هل سترمى بالرصاص؟ راحت ترتجف وبدأت تقاوم فأمسكها الكابتن بإحكام أكثر وأمرها قائلاً: «اهدأي!».

ثم أجاب الحارس سريعاً: «أنا أهتم بها. عد إلى شؤونك الخاصة. سأعود بعد قليل». وأضاف بصوت حاسم فهمت ياسمينا منه أنه يطلب قتل كل النساء في السجن: «أفرغ السجن في الحال».

لم يصف الرجال أي كلمة أخرى، ولكن حينما ألت ياسمينا نظرة خاطفة على وجوههم، وجدتهم مسرورين لرؤية ما افترضوا أنه نهاية المرأة اللبنانية التافهة التي ظفرت بقلب الكابتن.

تسارعت الأحداث بسرعة مذكّك الحين. سحب الكابتن مسدسه، فزاد خوفها إلى أقصى حد. وكأن المغتصبين شعروا أن العنف سيحتاج كل أرجاء السجن، فراحوا يتبعثرون في أرجائه ويركضون ويفتحون أبواب الزنازين. بدأت أصوات النساء المخفيات ترتفع بالنحيب والرجاء للإبقاء على حياتهن.

أصغت ياسمينا ولكنها لم تسمع صوت لانا ولا رأت الوحش. أملت من كل قلبها أن تكون إحدى القنابل الأميركية قد سقطت على رأسه وأن يكون اختفى عن وجه الأرض وسط عاصفة من الدخان الأسود. إذا كان ميتاً، فربما تظل لانا على قيد الحياة.

بمجرد أن خرجا من السجن، سحب الكابتن ياسمينا خلف
المبنى.

انقطعت أنفاسها وسط الجلبة. كانت كلماته المطمئنة كلها
أكاذيب. سوف يتم رميها بالرصاص!

ولكن سرعان ما نظر الكابتن بسرعة إلى الخلف ليرى إن كان أي
من رجاله قد لحق به. غير اتجاهه وتحرك بسرعة تفوق سرعتها
وتوجّه ناحية آلية عسكرية، وهو يجرحها ويدفعها إلى أن رماها بعنف
داخل الآلية. همس لها قائلاً: «أخفصي رأسك».

كان الظلام على وشك الحلول ولكن ياسمينا أيقنت أن الحرية
باتت وشيكة. لعل شروق الشمس سيجلب معه الحرية للمدينة
المحاصرة. أرادت أن ترى ما الذي يحدث ولكن الكابتن أنزل رأسها بيده.
«قلت لك أخفصي رأسك».

شغل الكابتن محرك السيارة ولكن قبل الانطلاق، أطلق طلقات
نارية عدة من نافذة الآلية المفتوحة. وضعت ياسمينا يدها على فمها
لتمنع نفسها من الصراخ نتيجة الخوف. ماذا يفعل؟ هل يشعر بالحاجة
لخداع رجاله، وأن يدفعهم للاعتقاد أنه أعدمها؟

غادر السجن وانطلق بآليته. وبمجرد أن غاب السجن عن النظر،
قال لها على عجل: «حسناً، اسمعيني. سأخذك إلى جامع. ادخلي
إليه وجدي مكاناً للاختباء. اختبأي داخل غرفة تخزين أو خزانة وابقى
فيها. سيمسي الوضع جنونياً في العاصمة الكويتية، أشك أن يغادر
أحد منزله للصلاة. لازمى مكانك إلى أن تختفي أصوات التحركات
العسكرية. ابقى في مكانك إلى أن تشعري بأن الوضع بات آمناً، ثم
اتجهي إلى منزل صديقتك».

لم تتلفظ ياسمينا بأي كلمة. منعها خوفها الشديد من الكلام. ربما
كان كل هذا كذبة.

ولكن الكابتن قصد ما قاله. سوف تعيش ياسميناً. توقّف قرب جامع صغير في الحي. «اخرجي وادخلي الجامع. سرعان ما سيعم الخطر المدينة. ياسميناً، إياك والخروج إلى أن يعم الصمت المكان».

قبضت على مسكة الحقيبة وقفزت من الآلية، ثم نظرت إلى الورا، إلى الرجل الذي كان يعذبها ويغتصبها. منعت نفسها من التلغظ بكل الكلمات التي حلمت أن تقولها: إنه ليس إلا مجرماً ومغتصباً وإنها تمقته. على نحو مفاجئ ووسط اشمئزازها منه وجدت شعلة عطف تجاهه لكونه أنقذها من موت محتوم. هزّت رأسها صعوداً ونزولاً. كانت منفعة جداً لدرجة أنها وجدت صعوبة في التكلّم، ولكنها واصلت الكذب، حتى النهاية. وعدته بصوت مرتجف: «أراك في البصرة».

هزّ برأسه بشكل مقيت: «نعم، في البصرة ستصبحين لي من جديد». أبعده الآلية عنها ببطء، ولوّح بيده لها مودعاً ووعداً قائلاً: «نلتقي في البصرة!».

وبرغبته الصادرة من القلب كي يعيش ليجامعها من جديد في مكان وزمان آخرين، انطلق مغتصبها مسرعاً وسط الظلام وهو يصيح: «نلتقي في البصرة! نلتقي في البصرة!».

الفصل الخامس عشر

الكابتن الابن!

بمجرد أن غابت الآلية العسكرية عن مرمى النظر، وضعت باسمينا الحقيبة الصغيرة على ظهرها، ثم انطلقت بسرعة كطائرة. تحوّل جذع جسمها إلى محرك قوي له ذراعان يناظران الجناحين، ورجلان تتحركان نظير عجلات سريعة الدوران. راحت تركز مسرعة في الحي الكويتي مثل لاعبة أولمبية. نسيت فجأة كل آلام جسدها وأصبحت قادرة على تنفيذ الأعمال الجسدية الفدّة. فهي شابة تهرب من موت محتمّ وتعود إلى وعد الحياة. بدت قوتها البدنية المستجدة بالغة حتى أنها اقتنعت أن بوسعها الركض وعبور دولة الكويت ودخول الصحراء. لعلها تصبح بدوية، تعيش على الأرض، وتحت السماء، وتعتنق الحياة. أو لعلها تعبر الصحراء والحدود إلى المملكة السعودية المجاورة، أو لعلها تتّجه إلى الشاطئ وتغطس في البحر العربي وتسبح دون توقف مسافة عشرين كيلومتراً مليئة بالتيارات القوية لتجر جسمها وصولاً إلى جزيرة فيلكا، وتبقى هناك إلى أن تزول كل الأخطار.

لقد ضاهى ذهنها في قوته جسدها، وبات فجأة مثل فولاذ لا يُخترق. كانت أفكارها مركّزة تماماً نظير ألمع المفكرين. أطبقت على أسنانها ورسمت ابتسامة على وجهها، وهي تستمتع بالنسيم البارد الذي يضرب شفيتها وأسنانها ويدخل فمها الذي فغرتة بفرح غامر. لقد تفوّقت بالدهاء من جديد على كابتنها. ذاك الرجل لا يعرفها البتة إن كان يحسب أنها ستنفذ أوامره بشكل أعمى. ما كانت لتعتمد إلى إطاعة أمره التافه بالاختباء داخل جامع يعرفه هو، حتى يتسنّى له أن

يغير رأيه ويعود للقبض عليها ويدّعي أنها ملك له.

أخيراً استعادت ياسمينا حريتها، وسوف تظل حرة.

كانت ياسمينا في حي لا تعرفه، ولكنها واصلت الركض، غير مبالية بالنظرات الجفلى التي يرمقها بها أشخاص يرون شابة صغيرة ترتدي ثوباً فاتح اللون وتركض بين المواطنين الكويتيين في أرجاء المدينة. من الجلي أن شائعات انتشرت مفادها أن رياح التغيير قد هبت. أظهر الجميع العين الحمراء للطاغية في بغداد. ولن يتقبل العالم بعد الآن هيمنته على الكويت، وعليه أن يخرج من هذا البلد الصغير إن أراد أن يبقى قبضته الدموية على بلده العراق.

أمكن لياسمينا بكل يسر أن تركض إلى الأبد. كانت خطواتها سريعة جداً لدرجة أنها حينما انعطفت عند زاوية ارتطمت عن طريق الخطأ بأفراد عائلة كويتية يترجلون من سيارتهم. ارتطمت بفتى كويتي مراهق يناظرها من ناحية الحجم. جفل الاثنان عقب الارتطام، ثم وقعا وتدحرجا مثل قطط صغيرة مفعمة بالحياة، دون أن ينبس أي منهما بكلمة. لكن والدة الصبي صاحت كطائر غابة ضخم، فأرعبت ياسمينا وأعادتها إلى اللحظة الراهنة. ومن جديد اختبرت الأفكار والآلام البشرية العادية، فراحت تئن مثل مريض مسنّ مصابٍ بذات الرئة، وراحت تحاول أن تنهض بنفسها على الأرض ولكنها لم تستطع.

حينما استوعبت العائلة أخيراً بأن الشابة التي هاجمت ابنهم والتي يخشونها ليست إلا امرأة ضئيلة الحجم يبدو أنها تهرب من خطرٍ ما، رفع الأب ياسمينا من ذراعيها برفق وأوقفها على قدميها. سألها سريعاً: «ما الأمر؟ هل يطارذك الجنود؟».

نظرت ياسمينا إلى الوجوه اللطيفة لتلك العائلة: أب وأم وأربع بنات وصبيان، وأيقنت أنه لا يسعها كشف حقيقة تعرضها للاغتصاب والتعذيب والأسر. من الواضح أنها عائلة فاضلة ما كانت لتستوعب مثل هذه الأفعال الشنيعة كالاختطاف والتعذيب والاغتصاب. كما أن

ياسمينا ستشعر بالمهانة. لن يبدي هؤلاء الأشخاص الفاضلون استعداداً للإصغاء إلى خبر الوحشية التي تعرّضت لها، والأفعال الهمجية التي تحملتها وشجعت عليها في بعض الأحيان، فقط حتى تظل على قيد الحياة.

نعم، هذه العائلة كلها من طينة لانا. كلهم مستعدون للمقاومة حتى الموت قبل الاستسلام للفظائع المنفّرة التي تحملتها ياسمينا. لذا نطقت، دون جهد يُذكر، بكذبة كبيرة، وهي تسائل نفسها إن كانت ستستعيد يوماً نقاوة كينونتها السابقة. لقد افتخرت منذ الطفولة بنفسها على أنها فتاة لا تنحط أبداً إلى مستوى الخداع، ولكن بعد أسابيع عدة من الكذب اليومي على مغتصبها، خشيت أنها أصبحت مصابة بعلّة الكذب. قالت: «نعم، طاردني بعض الجنود وأمسكوا بي ووضعوني في آليتهم. هربت منهم حينما توقفوا لاعتقال سائق سيارة أخرى لم يكن يحمل بطاقة تعريف عراقية». أيقنت ياسمينا أن الكويتيين الشجعان يتحدّون دوماً أوامر بغداد الواضحة باستبدال بطاقات السيارات العراقية بالكويتية، حتى لو كان ذلك يعني أنهم سيتعرّضون للاعتقال وأحياناً للإعدام. كان جزار بغداد جدّياً في أوامره، حتى لو تعلق الأمر بمسائل تافهة كبطاقات السيارات.

تعاطفت معها العائلة، ولكنهم كانوا على عجلة من أمرهم أيضاً. فالغازي والمغزو على حد سواء قد أخذته الحماسة هذا اليوم وملاً الخطر أجواء الكويت. حث الأبوان أولادهما وياسمينا على الركض نحو المنزل حيث السلامة.

بمجرد أن دخلت العائلة إلى المنزل أُجلست ياسمينا على كرسي مريح للغاية. ووضعت الوالدة بطانية شفافة باهظة الثمن على حضنها ورجليها. قدّمت إحدى البنات لبناً بارداً منعشاً، وأحاطت بها نساء العائلة بكل لطف. أبدّين تهديباً شديداً فلم يطرحن كثيراً من الأسئلة فشعرت ياسمينا بالامتنان على ذلك.

استمتعت ياسمينا بتناول كمية صغيرة من الطعام وشربت كوباً

كبيراً من الماء. رافقتها الوالدة إلى جناح غرفة النوم، ودلتها على الحمام وقالت لها إنه يجب عليها أن تغتسل. نظرت إلى ياسمينا وأشارت إلى أنها ضعيفة البنية جداً، بحجم ابنتها الوسطى، وأنها ستجد ملابس مناسبة مطوية على السرير حين تخرج من الحمام.

سرعان ما أقفل الباب وباتت ياسمينا وحدها. وقفت دون حراك، وشعرت أنها لا تزال في خضم كابوس ما لبثت تعيشه منذ أسابيع عدة. سمحت لأفكارها أن تعاود زيارة السجن المقيت. الجحيم التي لا تزال الفتيات الأخريات تعانين فيها. أو ربما المكان الذي تنتشر فيه جثثهن حالياً. جفلت حينما خطرت على بالها الجريمة التي لربما وقعت هناك. ألم تعد العيون الفاقدة للحياة تنتظر الرجال الأشرار الذين سرقوا فرحة شبابها وقادوها إلى حتفها مبكراً؟ بمجرد التفكير بطبيعة لانا الطيبة وتقبلها البطولي لقدرها، أيقنت ياسمينا أن لا بد لها من المخاطرة، والعودة إلى السجن، وفعل ما بوسعها لتحرير لانا والأخريات. ولكن متى وكيف عساها تفعل ذلك؟ لم تكن تدري. لو أمكنها فقط العودة إلى منزل صديقتها الكويتية، لاستطاعت بكل تأكيد إقناع الابنين الشجاعين بحشد مجموعة من المناضلين والهجوم على السجن المقيت وتحرير الشابات المحتجزات هناك.

ولكن عليها أولاً أن ستستجمع قوتها من أجل التحدي الذي ينتظرها.

* * *

الرئيس صدام حسين

أعلن الرئيس العراقي عبر محطة بغداد الإذاعية أن الجنود العراقيين ينسحبون من الكويت وأن كامل عناصر الجيش العراقي ستتم انسحابها نهاية اليوم.

محطة بغداد الإذاعية

26 شباط/فبراير 1991

شهادة شخصية

«سألت أمي وخالاتي فشددتا على أن الجنود العراقيين غادروا في 26 شباط/فبراير عند شروق الشمس تقريباً».

لُجين، شابة كويتية تقدّم إفادتها إلى جين ساسون

شهادة شخصية

«الخامس والعشرون من شباط/فبراير كان يوم احتلال آخر، ولم يعلم أحد ما إذا كان الجيش العراقي سينسحب من الكويت أم لا. جلّ ما عرفناه أن الوضع يوشك على نهايته. بدأ بعض العراقيين ينسحبون من الكويت في الخامس والعشرين من شباط/فبراير في حوالى منتصف الليل، ثم بدأ الباقيون يهربون من البلاد في السادس والعشرين من شباط/فبراير في حوالى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل بتوقيت الكويت. أصبحنا اليوم نحتفل بتحرير الكويت في السادس والعشرين من شباط».

من الكويتي عبد الرحمن،
صديق فارس الكويتي، صديق جين ساسون

* * *

بعد بضع ساعات من استحمام هداها كثيراً، أيقظها صوت هداها من نومها العميق. مرت لحظات حتى تذكرت بأنها نغذت من الكابتن وهي آمنة في منزل عائلة كويتية لطيفة. كان الصوت قوياً جداً فاعتقدت لوهلة أن منزل العائلة الكويتية التي أوتها قصفتها طائرة. انتظرت قدرها، وبالكاد صدقت حظها السيئ. هل نغذت من معتصبها وقاتلها المحتمل لتُسحق وتحترق حتى الموت جراء تحطم طائرة؟ ازداد الصوت صخباً وهي تنتظر موتها. ولكن الموت لم يأت.

نظرت ياسمينا إلى الساعة وأدركت أن الوقت لا يزال مبكراً جداً

أو متأخراً جداً. كانت الساعة الواحدة، ولكنها لم تعرف إذا كانت الواحدة نهاراً أم ليلاً. سمعت مضيغها ينادون أولادها للقدوم بسرعة، فأمسكت بثوب الحمام الحريري المخصّص لها لترتديه وتبعث أصوات الوالدين العالية مهتدية بها. ركضت بقدر ما أسعفتها قدماها الناعمتان وفخذاها اللذان يؤلمانها وهرعت إلى الطابق الثاني من المنزل حيث تتجمّع العائلة في غرفة مخصّصة لمشاهدة التلفاز. لمحّة سريعة عرفت ياسمينا منها أن الأبواب المزدوجة الضخمة تؤدي إلى شرفة.

بعد أن تأكد الوالد أن جميع أفراد عائلته قد تجمعوا، فتح الأبواب بحذر وخرج بكل بطة إلى الشرفة المعتمة، عندها أيقنت ياسمينا أنها أولى ساعات الصباح. ازداد الصخب الذي سمعوه أكثر فأكثر عبر تلك الأبواب المفتوحة. انضمت ياسمينا الراغبة بالاستطلاع إلى الأب اليقظ وابنيه على الرغم من أن بنات العائلة رجونها كي تبقى في الداخل حفاظاً على سلامتها.

تراجعت ياسمينا أمام المشهد الفوضوي في الشوارع تحت الشرفة. مرت لحظات ثم أدركت أن الصوت الصاحب الذي سمعوه ناجم عن مئات الآليات الصاخبة في جميع أرجاء المدينة، والتي تعمل محرّكاتها كلها في آن. كان صخب المحرّكات يصم الأذان فشعرت أن عليها أن تهرع إلى الداخل. ولكن ياسمينا أبت أن تفوّت عليها لحظة من لحظات الرحيل المضطرب للجيش العراقي المصدوم والمذعور. كان آلاف من الرجال المسلحين يهرعون محاولين إيجاد طريق للخروج من الكويت والعودة إلى العراق. أجمل فكرة خطرت على بالها هي فكرة أن كابتنها المغرور ورجاله المتغطرسين هم حالياً في عداد هؤلاء الجنود المذعورين، يختبرون الرعب المشابه للرعب الذي أنزلوه بحق المدنيين الكويتيين. وحين فكّرت بذلك شعرت بابتهاج لم تعرفه من قبل. لقد حكموا نظير ملوك سفاكين للدماء، والآن يدفعون ثمن أفعالهم الفظيعة التي ارتكبوها بحق أمة بكاملها، وبحق شابات بريئات يافعات.

وقفت تحدّق، وقد فغرت فمها ويدها تغطيان أذنيها. العاصمة

الكويتية بأسرها غرقت في حالة هرج ومرج. بعد حوالي سبعة أشهر من الاحتلال، الجيش العراقي ينسحب فعلاً.

بدأت عملية الإخلاء وكأنها دهر. نظير سرطان يُستأصل بالقوة من مصاب لا يرحب به، واصل الجنود العراقيون الانسحاب من المباني والقيلات المحتلة، في وسائل نقل متنوّعة. فعجّت الطرقات بالآليات العسكرية، والسيارات والشاحنات المدنية وكلها مملأ بالجنود.

سمعت باسمينا الهدير المتوقّع والمعروف للدبابات العسكرية. إذ كانت الدبابات الهاربة تندفع في طرقات المدينة بأقصى سرعة لها، وسائقوها العراقيون لا يباليون بزحمة السير الخانقة أمامهم: مئات من الآليات العسكرية التي تمتلئ برفاقهم. وفوق صخب محركات الآليات علت أصوات أخف هي أصوات الرجال المحتضرين الذي يصرخون ألاماً فيما الدبابات تدوسهم وتسحق آلياتهم العالقة وكأنها دمي.

واصلت باسمينا التفرّج غير مصدّقة ما تراه عيناها. الجيش العراقي يفتك بعناصره ويقتلهم. بعد وقت وجيز من التفكير، خلصت باسمينا إلى أن هذه خاتمة مناسبة للاحتلال. شعرت بحقد امرأة تعرضت لاغتصاب وحشي أشهراً عديدة. شعرت بازدياء امرأة شهدت على تعذيب لا يوصف نزل بحق لانا البريئة واليافة. لقد علّمها المغتصبون كيفية الكره، فشعرت بكره عارم ما كانت لتشعر به قبل الثاني من آب/أغسطس 1990.

عاد الوالد الكويتي وابناه من الشرفة وجلسوا مع نسوة العائلة وراحوا يصفون المشاهد غير المعقولة التي رأوها. لكن باسمينا بقيت واقفة وحدها تراقب، منتظرة حتى تغادر آخر آلية ومعها آخر عراقي المدينة. أيقنت أن الكابتن موجود بين عداد الرجال، وأنه خرج أخيراً من حياتها إلى الأبد.

حينما اختفت آخر آلية هدّارة عن النظر، بدأت باسمينا تخطّط للعودة إلى السجن. حدّقت إلى السماء التي لا تزال حالكة الظلمة

فلمحت خيوط الفجر. عند شروق الشمس ستعود إلى مقر الرعب،
وتبحث عن لانا والنسوة الأخريات.

* * *

بدا وكان دهنراً مضى قبل شروق الشمس. ارتدت ثوباً أبيضاً يعود
للابنة الكويتية، بنفسجي اللون، وربطت شعرها المغسول إلى الورا،
وفيما كان مضيغوها يقلونها بسيارتهم إلى بيت صديقتها الكويتية
راحت تحدق من النافذة إلى مجموعات من الكويتيين وهم يحتفلون.

عند وصولها، عرفت من خدم العائلة أن العائلة غادرت البلاد. فبعد
أسبوع من اختفاء ياسمينا عند الحاجز، خشيت العائلة على سلامة
ابنيها لأنها لم تملك فكرة إن كان سيتم تعذيب ياسمينا حتى تعترف
باسميها. لذا استقدموا مرشداً ماهراً ليرافقهم في الصحاري
الكويتية والسعودية وصولاً إلى المملكة العربية السعودية. لكن
العائلة تركت رسالة إلى ياسمينا في حال كانت لا تزال على قيد
الحياة. طلبوا منها في الرسالة أن تعتبر منزلهم منزلاً لها وأن تمكث
فيه، وأن لها حرية استخدام سياراتهم أو أي شيء تحتاجه. وقالوا إنهم
سيعودون بمجرد تحرير الكويت.

لم تكن ياسمينا تعلم بأنها كمتطوعة تساعد المقاومين
المناضلين وأنها أصبحت بطة في عيون أولئك الذين عرفوا بأمر
تضحياتها. اعتقد أغلبهم أنها أهدمت جراء محاولتها إيصال المناشير.
شعرت بالفرح والحزن في آن، فقد منيت بالنعم والمتاعب في
سلة واحدة. الآن بات لديها مكان لتقيم فيه ولكن ليس لديها أصدقاء
في البلد كي يساعدها. رغم مخاوفها، ابتسمت وهي تودع الأب
اللطف الذي أقلها. وعد بأن يجلب عائلته في زيارة، بعد أن يهدأ الوضع
في المدينة.

حين غادر القيل، طلبت فوراً من البستاني السريلانكي ومدبرة
المنزل الفلبينية أن يرافقاها إلى السجن الذي احتجزت فيه. عليها

أن تستعلم عن حال النسوة الأخريات اللواتي كنّ في السجن معها.

* * *

حرب في الخليج

تكلم الكولونيل أبو فهد، قائد القوى الكويتية المناهضة للعراقيين في الكويت، عبر هاتف يعمل عبر الأقمار الاصطناعية مع قناة سي أن أن وأفاد أن العراقيين خلال انسحابهم أخذوا كل الرهائن، وهم آلاف من السجناء، معهم.

صحيفة نيويورك تايمز

27 شباط/فبراير 1991

العاصمة الكويتية

يحتفل الكويتيون بالنصر العظيم! أبواق السيارات تزعق، ويستعرض كثير منهم صور الأمير، فيما يحمل آخرون الأعلام الكويتية. الرجال يرقصون في الشوارع فيما تذرّف النسوة دموع الفرح.

بيان من السفارة الكويتية في العاصمة واشنطن

27 شباط/فبراير 1991

* * *

كان تركيزها منصباً على مصير الفتيات اللواتي خلّفتهن وراءها، فلم تنضم ياسمينا إلى الاحتفالات السعيدة الدائرة في أرجاء المدينة. كان كل حي مرّت فيه يكتظ بالكويتيين المبتهجين. كانوا في قمة سعادتهم. فالיום الذي اعتقدوا أنه لن يحل أبداً قد حل. الرجال يرقصون في الشوارع، فيما النسوة يغنّين والأطفال يلعبون. ليس لفرح الكويتيين أي حدود.

وحدت ياسمينا المنطقة المحيطة بالسجن معتمة وساكنة

سكوناً مخيفاً. هل قام رجال من الجوار باستطلاع وضع السجن؟ هل تم تحرير النساء؟ أم لا يزلن مُحْتَجَزَات في زنازينهن؟ ترجّلت ياسمينا غير الهيّابة من السيارة وهرعت إلى الداخل وهي تنادي: «لانا؟ لانا؟»

لم تلقَ جواباً.

مرت ياسمينا بجوار زنازنتها دون النظر إليها، وهي تهرع من زنزانة إلى أخرى. وجدت كل أبواب الزنازين مفتوحة، وفارغة من سجيناتها. راح قلبها يدق بسرعة وانطلقت نحو زنزانة لانا على أمل أن تجدها على قيد الحياة، لكنها لم تجد إشارة تؤكد لها ذلك. كان حصر النوم الخاص بلانا وبطانيته لا يزالان هناك، إضافة إلى الحبال والسلاسل التي استُعمِلت في تقييدها. ارتعبت ياسمينا جراء الرائحة النتنة للجروح الملتهبة والدماء والقذارة المتراكمة، والتي لا يزال هواء الزنزانة مشبعاً بها.

رأت ياسمينا ثوب لانا الأسود مرمياً إلى جانب حصر لانا القذر. التقطته عن الأرض وراحت تتذكر آخر مرة رأت فيها جسم لانا الضئيل مغطى بثوب النوم هذا. حينما لحظت البقع التي عليه وأدركت أنها قيح وسائل منوي جاف، تركته ينسدل من يدها، وارتجفت أمام ذكريات الأهوال التي تحمّلتها لانا حينما كانت ترتدي هذا الثوب. راحت ترتجف، وأسفت لكونها لمست الثوب، وهي تعلم أن الوحش لمسها آنفاً بأصابعه القذرة.

في تلك اللحظة تذكّرت ياسمينا حقيقة فظيعة. حينما بدأ الوضع يتكشف أمام العراقيين، لم يحضر لها الكابتن الورق والأقلام، ولم تسأل لانا عن المعلومات الشخصية التي كانت قد وعدتها بإعطائها إياها. فبسبب الضرب والاعتصاب المؤلم المتواصل، كانت لانا في حالة مزرية طوال الشهر المنصرم بحيث تحول الوقت الذي تمضيه ياسمينا معها إلى مداواة جروحها والعناية بها. كان هدف ياسمينا الوحيد هو إبقاء صديقتها على قيد الحياة.

كيف عساها تجد عائلة لانا الآن؟ لم تكن تعرف حتى كنيته. ظلت لانا تخشى الإفصاح عن تلك المعلومات أمام أحد، لكنها أرادت أن تملي على ياسمينا كل تلك المعلومات.

مشيت ياسمينا بتردد من داخل السجن المقيت إلى منطقة الإعدام، خشية منها أن تجد هناك جثث كل النساء. ولكن من جديد، لم تجد أي سجينات، أو جريحات أو قتيلات. تفحصت القذارة الموجودة حول عمود الإعدام، وفيما ارتعبت حينما رأت قطرات دم ممتزجة بالتراب، شعرت بأمل بسيط حينما أدركت أن كمية الدم التي تراها لا تكفي للإشارة إلى إعدام أربع عشرة امرأة.

أين الدماء؟ أين النساء؟

هل أضاع رجال الكابتن وقتهم الثمين في دفن النساء؟ هل أخذوا النساء معهم؟ نظراً إلى معرفتها الجيدة بوحش لانا المغتصب، أيقنت أنه ما كان ليمنح لانا حريتها. هل صديقتها المجروحة موجودة في إحدى الآليات المزدحمة؟ وهل تشق طريقها إلى العراق لتمضي حياة من التعاسة مع الوحش؟

عادت ياسمينا المحبطة الآمال من جديد إلى السجن لتتأكد أنها لم تفوت رؤية شيء في عجلتها. بعد التفتيش في كل زنزانة ما عدا زنزانتها، غادرت ياسمينا السجن للمرة الأخيرة، ولم تكن تعلم ذلك.

* * *

لم يكن عذاب ياسمينا قد وصل بعد إلى قمته. فذاك المساء وبعد تناول زبدية صغيرة من اللبن، وبعض الخبز البيتا وقطعة حلوى، شعرت بموجات من الدوار تنتقل من بطنها إلى حلقها. عاد كل الطعام الذي تناولته في وقت لاحق إلى حلقها على شكل عصارة رديئة الطعم. أبعدت شعرها عن وجهها وانحنت فوق كرسي المرحاض، ثم أفاقت على واقع مرعب. تذكّرت أنها لم تشهد الدورة الشهرية منذ شهرين. فوسط محنتها التي كانت غارقة فيها نسيت أمر الدورة الشهرية. في

الحقيقة، لعلها لم تكن تعي جيداً أن السجينة المُغتصبة التي لا تفلح في إخفاء حملها عن مغتصبها تُعدم سريعاً.

قبعت ياسمينا على حافة السرير فاعرة الفم، جاحظة العينين، ويداها تقبضان على معدتها، وتعتريها ثقة لم تشهد لها مثيلاً من قبل، أنها حامل من الرجل الذي كرهته من أعماق قلبها.

راحت تن مثل طفلة، وسقطت بكامل جسمها على السرير وذهنها يقلب الأفكار بسرعة. أين عساها تذهب؟ إلى من عساها تلجأ؟ بمن عساها تثق لتأتمنه على مثل هذا السر الفظيع؟

راحت تتلوّى حزناً، وحركاتها المتشنّجة تذكّرها بثعلب يستحق الشفقة رأته ذات مرة حينما كانت عائلتها تمر بالسيارة وسط إحدى القرى الجميلة في جبل لبنان. صرخت ياسمينا وأخواتها حين رأين الثعلب ممدّداً إلى جانب الطريق، ويده الصغيرة عالقة بين فكيّ فخ فولاذي. كان المسكين قد جرّ نفسه والفخ من الغابة. حدقت ياسمينا إلى وجهه الصغير الذي تغيّرت قساماته نتيجة الألم. رجّت والداها أن يوقف السيارة وأن يساعده بطريقة ما، لكن والداها أبى أن يخاطر بالتعرّض لعصّة ثعلب. بعد ذلك ظلت ياسمينا فترة طويلة عاجزة عن محو صورة الثعلب من ذهنها: الثعلب المسكين يتلوّى من الألم. نظراً لمعرفتها بطبيعة اللبنانيين، خشيت ألا يتدخل أحد لمساعدته. على الأرجح نفق الحيوان المسكين ببطء وألم شديد.

هي الآن حالها كحال الثعلب، تغرق في كرب فظيع وليس هناك من يساعدها.

فجأة اختفت خطة ياسمينا بدفن الوقت المرير الذي قضته في السجن. قبل هذه اللحظة التي تكشّفت عن واقع مرير، تافت جداً إلى الحياة، وأملت بفرصة ثانية، وتحمّست للبدء بحياة طبيعية حتى تترك وراءها حياة الاغتصاب اليومي المرعبة. كانت قد رسمت عملية إعادة دخولها إلى الحياة العادية، واستعدت للقول إنها اعتُقلت وسُجّنت فقط

لأنها شاركت في المقاومة الكويتية. قرّرت عدم الاعتراف بتعرضها للاغتصاب، أما بخصوص الزواج، فلم ترد أن يلمسها أي رجل آخر. سترفض أي عرض للزواج وستكمل حياتها فتاة عزباء، ومع الوقت ستمسي الخالة العانس المفضّلة لأبناء أخواتها وبناتهن.

والآن كيف عساها تخفي حقيقة تعرّضها للاغتصاب في حين أن ابن الكابتن يعيش في داخلها؟ جلست مخدّرة وصامتة كتمثال شاحب من الرخام رأته ذات مرة في أحد متاحف فرنسا الضخمة. وشيئاً فشيئاً تجمّعت استراتيجيّة جديدة في ذهنها مثل سلاح، وكلفّتها قوتها وعزمها.

صرخت ياسميننا: «لن أحمل أبداً بابن وحش!».

الخاتمة قبلاً الأطفال

أخذت ياسمينا تسير جيئةً وذهاباً في غرفتها. فكل ما هنالك من سوء في العالم قد وقع. بعد اكتشاف حملها رجت الله أن تجهضه، أن ينظفَ جسمها بطريقة طبيعية وسلسة، علماً منها أنها لن تقوى أبداً على حب أو رعاية طفل ثمرة اغتصاب، ثمرة وحش. لكن القدير لم يستجب لدعائها. ما خلا الشعور بالغيان، ظلت معافاة وراحت بطنها تكبر يوماً بعد يوم.

كانت تتخيل وجه الطفل، وأيقنت من صميم قلبها أن الطفل ذكر مصغراً عن الوحش الذي زرعه في جسمها. تخيلت جسم الطفل البدين الصغير، نسخة مصغرة عن جسم الكابتن المترهل. شعرت أن أصابعها تتقدم نحو منطقتها الحساسة، وقد دبت في هذه الأصابع حياة خاصة بها، وأنها ستسحب الكابتن الصغير من جسمها وترميه في المرحاض. بمجرد أن تلمست أصابعها منطقتها الحساسة بعناية، وجدت أن الفتحة صغيرة للغاية، فتساءلت باندهاش كيف تسنى للكابتن أن يجامعها في هذه المنطقة.

ولكنها تملك الآن سؤالاً أهم. كيف يمكن لطفل الكابتن أن يخرج من هذه الفتحة الصغيرة؟ كحال أغلب الفتيات العربيات، كانت ساذجة في ما يتعلق بالرجال والنساء والجنس، ولم تفكر كثيراً بالتفاصيل الطبية للتناسل.

اجتمعت ذكرياتها الماضية بواقعها الراهن وخلقاً خوفاً شلها. كان رعبها عميقاً جداً لدرجة أنها لم تملك إلا أن تنتحب وهي تروح وتجيء.

كيف عساها تحل مشكلة الطفل هذه فيما هو يكبر يوماً بعد يوم؟
بانتظار معجزة، لم تفعل أي شيء. ظل الجنين بداخلها إلى أن
فات الأوان على إجهاضه. وذات يوم، وهي تمر بمحاذاة مرآة لمحت
دون قصد المظهر الجانبي لجسمها. فغصت ياسمينا، مدركة لأول مرة
أن بطنها التي كانت مسطحة تماماً أصبحت منتفخة. كيف كبر الجنين
إلى هذه الدرجة وبهذه السرعة؟ ثم ذكّرت نفسها بأن الانتفاخ وراءه
الكابتن! فهو رجل كبير الحجم، وأطفاله سيأتون كبار الحجم. ربّنت
بطنها بخفة ثم فقدت السيطرة على نفسها وراحت تصرخ: «اخرج!».
اخرج!« أخذت تنتحب وترجو: «أرجوك اخرج. اخرج. أرجوك اخرج!».

لكن الطفل لم يخرج، وظل معششاً بهناء داخل جسمها.

اشتاقت للتحدث مع والدتها عبر الهاتف لتخبر عائلتها أنها لا تزال
على قيد الحياة، لكنها لم تستطع ذلك. فقد دمر العراقيون خطوط
الهاتف وسيستغرق إصلاحها وقتاً طويلاً والأهم أنها لا تستطيع
الاعتراف بحملها لعائلتها. وإذا اعترفت بحملها، ستضطر إلى الاعتراف
بأمر الاغتصاب وبكل ما أدى إلى اعتقالها وسجنها. لا يسعها فعل ذلك
بعائلتها. لا يسعها الإساءة لوالديها من خلال الكشف عن مثل هذه
القصة البشعة. لقد اتخذت القرار: لا يسعها التكلّم مع والديها إلى أن
يزول الجنين، بطريقة أو بأخرى.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر IKitab

ظلت أزمة ياسمينا الشخصية تتفاقم. وبمجرد أن تم إصلاح
خطوط الهاتف الكويتية، تلقت اتصالاً دولياً من مضيفها الكويتيين.
أخبروها عن مأساتهم، وعن صدمة اختفائها، والخشية من أن يركل
العراقيون بابهم ويعتقلوهم جميعاً. لم يطبقوا احتمال عدم معرفة ما
سيحصل، فهربوا من المدينة باتجاه الصحراء، ولحسن الحظ لم
يصادفوا أي عراقي. وبعد أن وصلوا إلى السعودية سافروا إلى لندن

حيث مكثوا في شقتهم في تلك المدينة.

كانوا كلهم على قيد الحياة، بفضل الله. ولما كان ولداهما الشابين عضوين فاعلين في المقاومة الكويتية، فقد حالفهم الحظ أكثر من سواهم. فكثير من الشباب الشجعان، ذكوراً وإناثاً، تعرّضوا للاعتقال والتعذيب والإعدام.

شعرت صديقة ياسمينا بالفرح الغامر لأن صديقتها نجت وتنتظرهم في منزلهم. قالت إنها تريد أن تعرف قصة ياسمينا كاملة حين تعود مع عائلتها إلى الكويت. كحال كل الكويتيين الذين نجوا من قبضة الاحتلال لم يصدّقوا أن بلدهم أُعيد إليهم سالماً، على الرغم من أن أغلب البنية التحتية تعرّضت للدمار.

ظلت صديقة ياسمينا تثرثر وقتاً طويلاً بينما اقتصر ردّها على بضع تنهيدات وهمهمات. أخيراً أنهت صديقتها الاتصال، ولكنها وعدت بعودة العائلة بمجرد أن تعمل المرافق ثانية ويصبح كل شيء آمناً، لأنهم سمعوا أن الكويت لا تزال منطقة خطيرة وأن بعض الكويتيين المحتفلين قُتلوا أو جُرحوا بفعل الغام أرضية مزروعة أو قنابل لم تنفجر.

بعد ذلك الاتصال أصبح السرير ملاذ ياسمينا. دامت كآبتها المطولة ثلاثة أيام كاملة. تيقّنت خلالها أنه ينبغي لها إيجاد حل ما للتخلّص من الجنين غير المرغوب فيه. اقترفت أكبر خطأ في حياتها حين توجّهت إلى مستشفى حكومي وأفصحت عن مشكلتها لمرمضة، وطلبت منها استشارة بشأن ما يمكن أن تفعله. حسبت، بكل غباء، أن الممرضة قد تقدم لها النصح حول طريقة آمنة للتخلّص من الجنين. تنبّهت إلى مغبة سرد كل تفاصيل الأشهر المنصرمة، إلا أنها كشفت فقط أمر تعرّضها للاغتصاب من قبل جندي عدو، وابتلائها بالتالي بجنين غير مرغوب فيه يكبر في داخلها.

أمام ذهول ياسمينا وارتباعها، فشلت الممرضة في كتم السر وخرجت من غرفة الفحص لتنادي طبيباً، ثم أخبرته بكل ما أسرت لها

ياسمينا. بدر عن الطبيب ذي الملامح الجدية رد الفعل نفسه الذي يديه كُثر في بيئتها. حدّق إليها باستياء تام وكأنها هي المسؤولة عن تعرّضها للاختطاف والاعتصاب. سألتها: «لِمَ وافقتِ على نقل مواد تابعة للمقاومة؟» نعم، هي السبب في مشكلة الجنين وليس المعتصب. تنحّج ومسدّ لحيته وأعلن أخيراً أنه غير قادر على اتخاذ أي قرار، وأن الحكومة أخذت على عاتقها حل هذه المشكلة، بناءً على قرار يكون فيه مصلحة جميع المعنيين. وإلى أن يُتخذ القرار، تقوم الحكومة بإيواء كل النساء العزباوات اللواتي حملن من جنود العدو. ستنتظر انقضاء مدة حملها في قبلاً تديرها الحكومة، وستتلقى رعاية طبية مجانية. كانت المرة الأولى التي تسمع فيها ياسمينا بأن كل ضحايا الاعتصاب الحوامل سيلقن الرعاية من قبل الحكومة الكويتية. كان هذا خبراً ساراً وسيئاً في الوقت عينه. فبينما ارتضت بإيجاد من يرعاها، شعرت بالحزن لفقدانها السيطرة على مصيرها الخاص.

بعد ذاك الحديث المحزن، تمت مرافقة ياسمينا بفضافة من المستشفى، وكأنها شخص سيئ السمعة خرق القانون، نحو حافلة مخلّعة فيها مقاعد جلدية ممزّقة وقطع سجاد قدرة. أقلتها الحافلة إلى منطقة راقية من المدينة، وتوقفت عند قبلاً ضخمة زهرية اللون. طُلب من ياسمينا الدخول، وهناك التقت ممرضتين هنديتين في منتصف العمر.

بعد الإدلاء باسمها وسنها ومدة حملها التقديرية، تم إرشادها إلى غرفة صغيرة حيث دُعيت إلى التصرّف براحة تامة: أن تستحم وتخلد إلى النوم، وتحصل على قسط من الراحة. ستُقدم لها ثلاث وجبات في اليوم، ويمكنها أن تتناول هذه الوجبات في غرفتها أو في غرفة الطعام العامة.

في الوقت نفسه تم إخبارها أنها واحدة من بين ثلاثين ضحية أخرى في القبلاً. وكما كانت الحال في السجن المقيت، سرعان ما اكتشفت أن الفتيات من جنسيات مختلفة داخل قبلاً الأطفال، وهو

اللقب الذي أطلقته العاملات على الفيلّا التي تأوي الفتيات.

* * *

كانت حياة ياسمينا داخل فيلاً الأطفال هادئة وضبابية. لقد آثرت الانعزال، فكانت تأكل في غرفتها، متقبّلة بكل هدوء الطعام الذي تقدّمه لها العاملات. كان كل الطعام خالياً من الطعم على أي حال. ابتلعت الفيتامينات التي أعطتها لها الممرضات دون اعتراض، واستلقت دون حراك فيما كان الأطباء يفحصونها. كما أصغت بهدوء إلى الممرضات اللواتي رحن يتها مسن بأن الحكومة الكويتية ستدعو قريباً إلى اجتماع للبرلمان لأخذ قرار بشأن السماح بإخضاع الفتيات لعمليات إجهاض متأخرة أم لا، وهو الشيء الذي أعربت كل الفتيات والنساء في فيلاً الأطفال عن رغبتهن فيه.

حينما قيل لها إن حملها مضى عليه حوالي أربعة أشهر، أدركت أنها حامل منذ وقت يفوق ما توقعته، منذ بداية أسرها تقريباً. على نحو مستغرب لم تلاحظ قط أي عوارض وإنما عزت الدوار الذي كانت تشعر به إلى حالة الصدمة التي أصابتها جرّاء كل ما يجري.

كان كل ما يسعها التفكير فيه هو البرلمان الكويتي وموعد انعقاده ليتخذ قراراً بشأن مصائر الفتيات والنساء الحوامل. دعت ربها أن يمنحوهن الحق بإجهاض الحمل. لم يههما كم مضى على حملها، ولم ترد إلا أن يختفي الجنين. كم هو رائع أن يختفي الطفل فجأة، أن يختفي من حياتها، أن يرحل كحال الكابتن إلى الأبد. حين فكّرت أن الكابتن ربما صدّق وعودها، وأنه ينتظرها بفارغ الصبر في البصرة حتى يغتصبها من جديد، راحت ترتجف اشمئزازاً. أملت أن يكون ميتاً، وأن تكون جثته تتعفن تحت أشعة شمس الصحراء الحارقة وأن تأكل الحيوانات القمامة لحمه.

حينما تناقلت الممرضات المتحمسات أخباراً عن مجزرة وقعت على طريق البصرة، وسردن القصة كنوع من المواساة للنساء اللواتي

تعرضن للإساءة، راحت تصغي يامعان. اختبرت ياسمينا مشاعر مختلطة. خطرت لها صورة الأعضاء الذكرية المخيفة وهي تُبتر من أجسام المغتصبين، فمدّتها تلك الرؤية بالفرح. ينبغي ألا يعرف أولئك الرجال من جديد متعة اغتصاب أي امرأة. تمت أن يكون الكابتن، والمغتصب الوحش، وكل المغتصبين في السجن المقيت قد لقوا أشد العذاب وهم يحترقون حتى الموت إثر سقوط تلك القنابل الضخمة فوق القافلة المغادرة.

لكنها خشيت أن تكون لانا والكويتيات الأخريات البرينات قد علقن وسط هذا الحريق. الجميع يعرفون أن آلاًفاً من الكويتيين الأبرياء وغيرهم من مختلف الجنسيات ساقهم العراقيون في قافلتهم المتعجّلة إلى خارج الكويت. ما هو مصير هؤلاء الأشخاص الأبرياء؟

وسط الجو الساكن في قبلاً الأطفال، شعرت ياسمينا بغياب لانا في كل لحظة وكل ساعة وكل يوم. ليت لانا كانت معها في هذه الفيلا، لكانت ياسمينا تقبّلت قدرها على نحو أفضل. لو أن لانا نجت من مغتصبها الوحش، لامتلكت ياسمينا سبباً للفرح.

خلال الأسبوع الأول أجبرت ياسمينا نفسها على لقاء كل الفتيات الحوامل اللواتي تأويهن القبلاً. رغم أسفها على الفتيات اللواتي أيقنت أنهن واجهن المصير عينه، إلا أنها لم تذكرهن ولم تذكر قصصهن لحظة واحدة بعد أن أقفلت أبواب غرفهن وسارت مبتعدة. كانت ياسمينا تبحث عن وجه واحد فقط. لم تفقد الأمل قط بأن صديقتها العزيزة لانا قد نجت.

ولكنها لم تجد لانا في أي مكان.

لم تلتق ياسمينا أي شخص يمكنها أن تفضي إليه بمكنونات قلبها. راح غضبها وخوفها يغليان في داخلها، وأنتجا غمامة سامة أخذت تأكلها من الداخل كحال الأسيد البطيء المفعول الذي تبجّح الجنود العراقيون به. لطالما كانت فتاة مسالمة طوال حياتها، تمقت

الحرب والعنف، ولكن ها هي اليوم تلازمها الوحدة حيث تستلقي الساعات الطوال على سريرها القاسي الصغير. وسط وحدتها راحت تفكر بلانا، وترتعد فرائصها بشأن مصيرها، وتغلي غضباً وخوفاً بسبب طفل لا يعني لها شيئاً، فهو ليس إلا نسخة مصغرة من الكابتن، الرجل الذي اغتصبها وعذبها أشهراً عديدة وطويلة. كان الكابتن لا يزال في داخلها على هيئة طفله، نظير حشرة طفيلية عالقة بأحشائها.

إنها تمقت الكابتن وتمقت هذا الطفل.

* * *

خلال الأسبوع الخامس لياسميننا في قبلاً الأطفال اقتربت منها ممرضة لطيفة للغاية لتكشف لها عن سرّ مشوّق. لقد دعت الحكومة كاتبة أنثى من الولايات المتحدة، كي تحضر إلى الفيلا للقاء النساء وسماع قصصهن. ستكتب المؤلفة عن جرائم الاغتصاب والقتل وفضائح كل ما جرى وتنقل قصصهن إلى العالم. لا سبب يدعو الفتيات للقلق لأن الكاتبة عاشت سنوات عديدة في الشرق الأوسط وتفهم الثقافة العربية والعار الذي يلحق بالاعتداء الجنسي. ولن تفصح عن أسمائهن الحقيقية وحتى أنها ستغير بعض تفاصيل حياتهن التي قد تكشف هوياتهن حتى تبني حاجز حماية حول الفتيات.

وأهمية الكتاب أنه الطريقة الوحيدة التي سيكتشف فيها العالم أمر الجرائم الفظيعة التي ارتُكبت بحق أجسادهن. اعترفت الممرضة لياسميننا أنها تعتقد بأن الحكومة على حق وأن كل الجرائم التي اقترفت بحق الكويتيات يجب أن تُعلن. قيل لهم من قبل الحكومة الكويتية إنه ينبغي تشجيع الفتيات على إيلاء الثقة لهذه الكاتبة والتكلم معها.

لم تقل ياسميننا شيئاً ولكنها فكّرت كثيراً. بعد مغادرة الممرضة فكّرت بالأمر من كل النواحي، وخلصت أخيراً إلى أنه في حال لم تفصح الكاتبة عن اسمها الحقيقي وغيّرت بعض التفاصيل التي قد

تكشف هويتها، فهي ترغب في الكلام، وتريد أن يعلم الجميع ما فعله بالضبط الرجال العرب بالنساء العربيات.

كانت ياسمينا تحترق من الداخل، وقررت أن تكون أولى المتطوعات للقاء الكاتبة الأميركية.

* * *

أت الكاتبة الأميركية في اليوم التالي لتجد ياسمينا تنتظرها بفارغ الصبر. ففي خلال الساعات الأربع وعشرين لم تفكر إلا بهذه المقابلة. ربما، عبر سرد قصة لانا وقصتها، سيتذكر العالم أجمع كل أولئك اللواتي تعرضن للعذاب. ولعلّ الكتاب يكون مقدمة خاصة لذكرى كل فتاة وامرأة تعرّضت للاغتصاب.

قررت ياسمينا أن تفضي بكل شيء، وبكل التفاصيل الموهولة لسجنها واغتصابها، والأفعال الشنيعة التي ارتكبت بحق لانا وبحق النساء الأخريات مهما تكن إعادة عيش الذكريات البشعة صعبة. ينبغي أن يعرف العالم العربي أجمع ما فعله الرجال العرب بالنساء العربيات، وسوف يعرف.

كانت الكاتبة الأميركية في منتهى اللطف، سلسلة في التعامل ورحبة الصدر. أيقنت ياسمينا أن المرأة تتعاطف مع وضعها، وقد ساعد هذا الشعور في التخفيف من هواجسها. كانت مرتاحة.

لم يقلقها سوى مرافقة رجل كويتي لهذه المرأة. بعد أن علمت أن هذا الرجل بقي داخل الكويت وقاوم المحتل، ارتاحت. على الرغم من هذا، انزعجت لأن الرجل سيسمع التفاصيل الدقيقة حول الاعتداء الجنسي الذي تعرّضت له. ولحسن الحظ كان الرجل الكويتي حساساً وبدا أنه لاحظ ضرورة منحها الخصوصية دون أن تحتجّ على وجوده بكلمة واحدة. قال إنها تتكلم الإنكليزية بطلاقة وبالتالي فهي لن تحتاج إلى مترجم. وقال إنه سيجلس في مكان آخر حينما تبدي استعداداً للتكلم صراحة.

جلست ياسمينا أمام طاولة صغيرة مقابل المرأة. وحسبت أن الاعتراف بمجريات أيام اغتصابها سيكون أمراً صعباً، لكنه لم يكن كذلك. كانت هذه المرة الأولى التي تتمكّن فيها من التعبير عن تعاستها وحنقها. حينما بدأت تتكلم لم يسعها التوقف. تكلمت ببطء وإنما بصراحة، حريصة على عدم إغفال أي معلومة. أقرت بكل ما حصل لها وما عرفت أنه حصل للانا منذ أول يوم للاحتلال حتى آخره. لقد بقيت في البلد منذ الثاني من آب/أغسطس 1990 ولم تبارحه، ولديها الكثير لتقوله.

بدا جلياً أن الكاتبة الأميركية تأثرت، لكنها لم تقاطعها لطرح الأسئلة. أخذت بين الفينة والأخرى تدوّن في دفتر ملاحظات، وطلبت ياسمينا مرات عدة أن ترى الملاحظات للتأكد من أنها لا تحتوي أي شيء قد يعرفّ القراء على هويتها. راحت الكاتبة تحديق إلى عينيّ ياسمينا، وفي بعض الأحيان تربّت يديها وتعبّر عن اهتمامها بالقول: «أنا آسفة، أنا آسفة».

لم تشعر ياسمينا بمرور الوقت إطلاقاً، ولم تدرك أنها واصلت التكلّم منذ الصباح الباكر حتى وقت متأخر من الليل، ولم تتوقّف إلا بضع مرات لترتشف قليلاً من عصير التفاح. حينما توقّفت أخيراً عن الكلام، رأت الكاتبة الأميركية تصغي على وجهها وترتسم تعابير الحزن. كانت تقاوم ذرف الدموع.

حينما تمالكت الكاتبة الأميركية أعصابها، عبّرت لياسمينا عن قلقها عليها وسألتها عن موعد اتصالها بعائلتها.

انفجرت ياسمينا بالبكاء لأول مرة وأجابت: «لن أتصل بهم أبداً. أنا ميتة بالنسبة إليهم. لا يسعني تدمير سعادتهم بإخبارهم قصتي. لا أستحقهم. لقد أقدمتُ على عمل مشين للغاية بادعائي أنني أحب مغتصبي. لن تسامحني عائلتي أبداً».

خالفتها الكاتبة الأميركية الرأي بكل هدوء وأصرّت على أن

ياسمينا لم تكن شجاعة فحسب، بل وذكية. فأفعالها هي التي أخرجتها من هذه المحنة حيّة وهذا سيكون الأهم بالنسبة إلى عائلتها. ما أمكن لياسمينا إيقاف الاعتداءات عليها مهما تفعل، ولكنها أفلحت في درء الإعدام عن نفسها. بدت الكاتبة مقتنعة بأن الكابتن كان ليقتلها لو أنها لم تكن ممثلة موهوبة. إنها تستحق جائزة على قدرتها في التمثيل. لو أنها لم تنفع الكابتن أنها مغرمة به لتم إعدامها هي الأخرى كحال كثيرات من الفتيات والنساء الأخريات.

النصر الأعظم هو بقاؤها على قيد الحياة. وها هي الآن تدلي بشهادة مهمة حتى تنال كل النساء قسطاً من العدل من خلال معرفة العالم بمعاناتهن. أي إنجاز كانت ياسمينا لتقدمه لو أنها تخلت عن حياتها؟ لا شيء: مجرد فتاة بريئة أخرى تُردى قتيلة. ذات يوم ستروى القصة، وربما سيعمل شخص نافذ ما في هذا العالم إلى تصنيف مثل هذه الاعتداءات الجنسية كفظائع بالغة جداً ليتلاءم العقاب مع الجريمة أخيراً. ربما، عبر بقائها على قيد الحياة، ساعدت نساء أخريات كثيرات في العالم. كانت ياسمينا بطلة في نظر الكاتبة.

لم تتمكّن ياسمينا سوى القول بصوت أجش خفيض: «لا، لا». لقد اعتبرت نفسها لفترة طويلة فتاة شائنة. وترى أنه لا يمكن لكلمة «بطلة» أن تنطبق أبداً على فتاة لبنانية اسمها ياسمينا.

ضغطت الكاتبة الأميركية أكثر، وتطوّعت أن تلتقي عائلة ياسمينا. فقد سبق للكاتبة أن زارت لبنان مرات عدة ولديها أصدقاء لبنانيون مقربون. لعلها تستطيع التكلم مع عائلة ياسمينا وترشدهم كي يتقبلوا قرار ياسمينا حول قيامها بما توجّب عليها القيام به لتنقذ حياتها.

«لا، لا، لا أقدر على مواجهتهم. لا أستطيع». ياسمينا التي لطالما كانت فتاة ذكية غيرت الموضوع المزعج وقالت: «تكلمي مع النساء الأخريات أيضاً. ثم فكري بما فعله الرجال العرب بالنساء العربيات. اجعليه موضوع كتاباتك: ما فعله الرجال العرب بنسائهم! عار عليهم! عار عليهم! عار عليهم!».

انحنت الكاتبة الأميركية إلى الأمام وعانقت ياسمينا من كل قلبها، فنظرت إليها ياسمينا نظرة عطوفة.

تمّ العناق بفعل إصرار ياسمينا على عدم البوح بما يخطر فعلياً في بالها. فجأة، ومن دون تفكير، نهضت بسرعة على قدميها وأجفلت نفسها والكاتبة ببوحها بسر كبير أثقل على ضميرها طوال الشهر الفائت. بدأت تنتحب من بين دموعها حدّقت مباشرة إلى الكاتبة وصرخت: «لا أريد أن أكون عربية! انظري ما الذي فعله الرجال العرب بي وبغيري من نساء عربيات. كيف يمكن للرجال العرب تعذيب نسائهم؟ كيف يمكنهم ذلك؟ لا أستطيع أن أكون عربية بعد الآن؟».

ترافقت مع كلمات ياسمينا تنهدات الألم: «ولكن ماذا أستطيع أن أكون؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟ إلى أين أذهب؟ أين يمكن لهذه المرأة العربية الذهاب؟». راحت ياسمينا تنتحب بشكل يدمي القلب، جعلها تركع على قدميها: «قولي لي، أين أستطيع الذهاب؟ ماذا يمكن أن أفعل؟».

«اهدأي، أهدأي»، قالت الكاتبة وهي تلف ذراعيها حول كتيفي المرأة الشابة المرتجفتين. نظرت الكاتبة نحو الباب، وهي تتمنى أن لا يكون أحد قد سمع بكاء ياسمينا.

كانت تعرف أن قليلاً من الناس سوف يفهمون كره ياسمينا المؤقت للتراث العربي. معظم من هم في الثيّلا سوف ينقلبون على المرأة الشابة إذا سمعوا تنديدها بالعرب. فقط الذين عرفوا القصة الكاملة لما تحمّلته ياسمينا يمكن أن يفهموا الحال النفسية التي كونتها أشهر من الاغتصاب المتوحش.

رفعت ياسمينا يدي الكاتبة عن جسمها وقفزت على قدميها قبل أن تقع قبالة الطاولة، منتحبة بصوتٍ عالٍ، ما أثار قلق الطاقم الطبي الذي سمع بكاءها أخيراً، فهرع إلى الغرفة ليرى ما الذي يحدث.

طمأنت الكاتبة الفريق الطبي: «إنها بخير. هي منزعجة من إعادة

عيش الذكريات، لا بأس. لا تعلقوا».

من خلال سحابة حزنها اعترفت ياسمينا قائلة: «أعلم أنك
تحميني. شكراً لك».

صارعت الكاتبة دموعها وهي تشاهد ياسمينا تستجمع قواها
وتعود إلى سجنها الانفرادي، وتنتظر ولادة ما آمنت من كل قلبها بأنه
طفلٌ وحشٌ.^{١٦}

أطلقت ياسمينا تنهيدة عالية وهي ترحل، لكنها لم تضيف شيئاً.

ملاحظة من الكاتبة

بعد وصولي إلى الكويت لأعابن شخصياً الأضرار التي لحقت بالبلاد وألتقي بالسكان الذين مكثوا فيها طوال أشهر الاحتلال الطويلة، عرض عليّ ولي العهد الكويتي ووزير الإعلام، بكرم بالغ، بضع قصص قالا إنهما منعاهما عن قصد عن غيري من الكتاب أو الصحفيين. أعتقد أنها طريقتهم لشكري على تأليف كتاب «اغتصاب الكويت»، وهو الكتاب الوحيد الذي كُتب عن معاناة الكويتيين الذين اختبروا الاحتياج.

بعد أسابيع عدة في البلاد، مُنحتُ فرصة لقاء الفتيات والنساء المُغتصبات والحوامل. قيل لي إن لديّ الحرية بسرد قصصهن، ولكن طُلب مني عدم التقاط الصور أو تعريف الضحايا بأسمائهن. وقيل لي أيضاً إنني أستطيع وصف كل التفاصيل المرّوعة التي قاستها النساء كمستعبدات جنسيات.

على الرغم من أن شعوراً غامراً بالحزن غلب عليّ جراء القصص المتتالية التي تدور حول الخسائر والمآسي الكويتية، إلا أنني حينما دخلت إلى القبلاً الزهرية التي تأوي النساء والفتيات الحوامل، رأيت مشهد حزن وتعاسة لا يضاھيه أي مشهد في البلاد.

فيما كان هناك عدد من الممرضات المتجهّات من سريلانكا والهند، وهن نساء يعتنين بكل محبة بضحايا الاغتصاب، تعرّفت إلى عدد من الفتيات والنساء البائسات، اللواتي شكّلت بطونهن المنتفخة مصدر حزن وغمّ واضحين، وليس ترقّباً سعيداً كالذي تشهده النساء الحوامل العاديات. حدقت إلى البؤس المرتسم على تلك الوجوه الشابة، فتنبّهت إلى أنني لم أختبر بعد أقصى درجات الرعب.

آوت الحكومة الكويتية أولئك النسوة في قبلاً فاخرة، وقدّمت لهن رعاية طبية مجانية، إلا أن وجوههن الحزينة ذكّرتني بـصور كنت قد رأيتها لناجيات من معسكرات الاعتقال تم تحريرهن في الحرب العالمية الثانية. على مدى ثلاثة أيام رحّت أتكلّم مع عدد من النساء المكتئبات والقلقات قلقاً بالغاً، ولكن كرب امرأة معينة، تحمل اسم ياسمينا، هو الذي ركّز قلبي وروحي على القصة الأكثر مأساوية التي سمعتها في حياتي.

بعد يوم طويل ومنهك جداً من شهادة انفعالية ومرهقة تطرّقت إلى معاناة وكرب شخصيين، ابتعدت أخيراً عن ياسمينا، وسرت ببطء في الرواق وأخذت أدفع الباب الثقيل. وأنا أهمّ بترك ياسمينا همس لي قلبي: «سوف تذكرين هذه المرأة وكلماتها إلى الأبد». وقد فعلت.

غادرت قبلاً الأطفال وانضمت إلى سعود في سيارته حتى يقلّني لأعود إلى الفندق. وبمجرد أن أصبحت وحدي في الغرفة، جلست ورحت أقرأ ملاحظاتي، وأضفت تعليقات أخرى. وأثناء قراءة الكلمات التي كتبتها، تذكرت أنني لم ألتق في حياتي امرأة شجاعة بقدر ياسمينا في عالم النساء الشجاعات. أيقنت أن خيار بقائها على قيد الحياة استلزم منها شجاعة فائقة، فما عساه يكون أصعب من تحمّل اغتصاب متكرّر ووحشي بابتسامة تعاون؟

لم يكن ثمة داعٍ لتدوين حتى ملاحظة واحدة، لأنني تيقّنت أن قصة ياسمينا الشفوية لن تبارح ذهني وقلبي البتة، حتى دون تذكّار واحد، إلا أنني احتجت إلى ما يشغلني.

حتى وقت متأخر من المساء، ورغم شعوري بالإرهاك، لم أقوَ على النوم. وعضواً عن النوم رحّت أجوب الغرفة، وفيما كنت أسير جيئةً وذهاباً من الباب إلى السرير إلى غرفة الجلوس، انتابني خليط من الانفعالات. نعم، لقد ارتحت لأن الحرب قد حطّت أوزارها. نعم،

فرحت لأن السجون قد أصبحت فارغة. ولكن في ذهني، علمت أن النساء والفتيات اللواتي التقيتهن منذ قليل لا يزلن سجينات، وسيبقين سجينات معاناتهن دوماً. سيربحن بعض الشيء أنهن نجون من حжим لا نظير له. الحياة التي تنتظرهن لا يمكن إلا أن تكون أفضل، فالمرء لا يذهب إلى الجحيم إلا مرة واحدة. أما هؤلاء الفتيات والنسوة، ضحايا السجن المقيت، فقد أصبحت هذه الرحلة وراءهن.

* * *

تفاصيل إضافية حول ياسمينا ولانا

ياسمينا شخصية حقيقية وقصتها حقيقية. لانا شخصية حقيقية وقصتها حقيقية. يؤسفني أنني لم ألتق لانا قط، وإلا لكان هذا يعني أن الشابة قد نجت، ولكن لسوء الحظ، لم أعرفها إلا من خلال ذكريات ياسمينا عن الأيام المأساوية التي عاشتها هي ولانا.

فشلت ياسمينا في إيجاد مكان لانا.

غالباً ما كنت أفكر في مصير لانا. لعلها كانت واحدة من الكويتيات الكثيرات اللواتي أخذهن الجنود العراقيون إلى العراق. لعل لانا كانت واحدة من آلاف العراقيين ورهائنهم الكويتيين الذين علقوا ضمن القوافل الطويلة على الطريق الداخلي السريع الممتد إلى البصرة، أميال وأميال من الآليات المحترقة على طول «طريق الموت».

زرت «طريق الموت» مع سعود المطاوع، المصرفي الكويتي اللطيف الذي تطوَّع لمساعدتي كمترجمٍ وسائق. التزمنا، سعود وأنا، الصمت فيما رحنا نحدق إلى المكان المحترق. رغم سرورنا بتحرير الكويت، إلا أننا لم نفرح قط بطريق الموت ذلك.

يحتمل أن تكون لانا هيكلًا من الهياكل العظمية المحترقة في تلك الآليات. أو لعل مغتصبها الوحش أعدمها قبل فراره من الكويت. هذا هو مصيرها المحتمل، رغم أننا، على الأرجح، لن نتيقن أبداً مما آل إليه

مصيرها.

أما بخصوص المغتصبين، فلطالما سألت نفسي: هل عوقبوا على جرائمهم؟ ربما نعم وربما لا. إن أفلحوا بالوصول سالمين إلى مدنهم وقراهم في العراق، إذاً فلن يعاقبوا أبداً. لعلهم ماتوا بفعل قنابل قوى التحالف. لعل بقاياهم مطروحة في بعض الآليات المدمرة على «طريق الموت» سيئ السمعة.

لن نعرف مصيرهم أبداً إلا إذا عرفوا أنفسهم من خلال صفحات هذا الكتاب واعترفوا بجرائمهم. وهذا أمر لا أتوقع حدوثه، على الرغم من أنني سأسرّ بهذه الاعترافات. أود أن أطرح على الكابتن مغتصب ياسمينا، وهو رجل أنجبته امرأة، ومنتزوج من امرأة، ووالد بنات سؤالاً واحداً: كيف يمكنك الإساءة إلى النساء البريئات؟

التقيت ياسمينا في الكويت عقب الحرب، تماماً كما وصفت في هذا الكتاب. كانت ضحية الاغتصاب الوحيدة التي تآقت جداً إلى مشاطرة أدق التفاصيل الحميمة لتجربة التعرّض للاغتصاب المتوحّش، يوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة. التزمت الضحايا الأخريات الحذر أكثر، وتردّدن في الكشف عن النواحي الخاصة جداً من تجربة التعرّض للاغتصاب، على الرغم من أنهن أبدن استعداداً للاعتراف بأنهن تعرّضن للأسر والاعتصاب على نحوٍ متكرّر.

جلست ورحت أصغي، وسمعت التفاصيل الدقيقة تنساب من بين شفّتي ياسمينا. لم تترك أي تفصيل، حيث وصفت الرجال الذين سجنوهن، والنساء السجينات، وتفصيل الأفعال الجنسية التي ارتكبت بعنف شديد بحق النساء.

سمعت كل شيء، وتواضعت أمام قوة أولئك النساء، ولكن أكثر ما أثار بي هو القوة التي أظهرتها الشابة اليافعة لانا عند مقاومة مغتصبها بكل ما أوتيت من قوة. كما ألهمتني قدرة ياسمينا على التفوّق بالدهاء على مغتصبها، والبقاء على قيد الحياة. لقد تحلّت

بالقوة والذكاء. يجب أن تُكرّم لإنقاذها حياتها، حيث عاشت لتخبر قصة ما كان أحد ليعلم بها لولا قوة إرادتها للبقاء على قيد الحياة.

أنا نادمة لأنني لم أتمكن من كتابة هذه القصة منذ أمد طويل. في البداية، كانت القصة جديدة ومؤلمة للغاية... وخشيت أن يتعرّف أحد من العاملين في القبلاّ التي آوت النساء السيئات الحظ إلى ياسميننا. ماذا لو أعطيت اسمها الحقيقي لوسائل الإعلام المستفسرة؟ إن حصل مثل هذا الأمر، فقد تفلح ياسميننا في القيام بشيء حاولت القيام به مرات عدة من قبل. قد تقدّم ياسميننا على الانتحار. شعرت أن من المهم إعطاء النساء وقتاً للشفاء وللبدء بحياة جديدة.

وثمة سبب آخر أيضاً. فمع أنني امرأة تتمتع بالقوة، ووجدتني عاجزة عن استجماع قوّتي كي أسرد هذه القصة المرّوعة. وجدت الموضوع كله مؤلماً للغاية، فعدت إلى الولايات المتحدة وألّفت كتاب (الأميرة: قصة حقيقية لحياة خلف الحجاب في السعودية). ظللت أناقش موضوع هذا الكتاب مع الأميرة سلطانة منذ منتصف الثمانينيات، أي بعد سنوات عدة من لقائي بها في الرياض، بالسعودية.

ألّفت كتباً أخرى، عشرة كتب بالإجمال. وعلى الرغم من تألّفي تسعة كتب بعد كتاب «اغتصاب الكويت»، لطالما حملت في ذهني صوراً وأفكاراً تتعلق بياسميننا. لم أنس ياسميننا قط، ولا لانا، ولا النساء المُغتصبات الأخريات.

لا أملك أجوبة لكل أسئلتني، ولكنني أعرف هذه الأمور:

أنجبت النساء داخل قبلاّ الأطفال مواليدهن بعد أن أقرّت الحكومة الكويتية قانوناً يمنع النساء المُغتصبات من الإجهاض. أعلم أن ياسميننا أنجبت طفلاً من الكابتن. وعلمت من خلال صديق لي في الحكومة الكويتية أن المولود كان ذكراً. قيل لي إن الطفل نُقل إلى ميتم، كحال

أغلب الأطفال الذي وُلِدوا نتيجة الاغتصاب إبان الحرب.

ولكن ماذا حل بياسميننا عقب إنجاب مولودها؟ هل عادت إلى لبنان، إلى عائلتها المُحِبَّة؟ قيل لي إن ياسميننا غادرت الكويت بعد ثلاثة أسابيع من الإنجاب وأن رحلتها كانت إلى بيروت.

فكّرتُ ملياً بآخر ما قالت له لي ياسميننا، بأنها لم تعد تريد أن تكون عربية؟ هل عنت ياسميننا فعلاً ما قالته؟ أعتقد أن الجواب هو: لا. بدلاً من ذلك، كانت امرأة تتكلم من أعماق جرحها. أعتقد أن ياسميننا أحبّت كونها عربية، وأنها تربّت من قبل عائلتها المحبة لتكون فخورة بكونها امرأة عربية. وأعتقد مع مرور الوقت بأن ياسميننا ستنسى هذه العبارات التي صدرت منها على عجل، والناجحة عن حزن وألم.

ياسميننا امرأة قوية جداً حتى أنني غالباً ما أتساءل إن كانت ستسعى لتحقيق انتقام شخصي من مغتصبها، الكابتن. ففي النهاية ادّعت أنها تعرف اسمه الحقيقي واسم قرينه في العراق. راودتني رؤى بأن ياسميننا القوية تتعقب الكابتن إلى قرينه وتسعى لإنزال انتقام شخصي به جراء أفعاله الفظيعة التي ارتكبها بحق النساء الأخريات. بدءاً من العام 2010، شعرت أن ذكرى ياسميننا ولانا تطاردني أكثر. أبعدت هذه الأفكار جانباً، ظناً مني أنني لن أجد أبداً القوة لإعادة إحياء القصة التي رويت لي.

ذات يوم جلست أمام حاسوب لي لأواصل كتابة قصتي الشخصية عن مغامراتي لإنقاذ الحيوانات من التعذيب وإساءة المعاملة. فدفعني شيء ما لفتح ملف جديد والشروع بالكتابة حول موضوع لم أكن أنوي كتابته قط. فاجأت نفسي حين بدأت ألياً الكتابة عن امرأة لبنانية اسمها ياسميننا. شعرت أنني لم أنس كلمة واحدة مما أخبرتني به ياسميننا يوم التقيتها. راحت أصابعي تتدحرج بسرعة هائلة على لوحة المفاتيح، حيث انسكبت القصة مني، تماماً كما انسابت قصة ياسميننا من فمها ذلك اليوم في العاصمة الكويتية.

أتمنى أن تكون ياسمينا قد عادت إلى لبنان إلى أحضان عائلتها.
أتمنى أن تكون ياسمينا قد وقعت في الحب وتزوجت. أتمنى أن تكون
ياسمينا اليوم أمّاً لأطفال تحبهم. أتمنى أن تكون ياسمينا اليوم تعيش
حياة سعيدة وأن تكون تعلمت التآلف عاطفياً مع الفظائع التي تحملتها
في السجن المقيت في العاصمة الكويتية.

أتمنى أن ترى ياسمينا هذا الكتاب في مكتبة ما في لبنان، وأن
تعرف أن هذه الكاتبة لم تنسها يوماً، ولم ينسها العالم.

جين ساسون

تموز/يوليو 2013

ملحق (أ)

جرائم الاغتصاب إبان الحروب

لم أولف كتاباً عن العراق أو الكويت. بل ألّفت كتاباً عن الرجال والنساء والحرب الاغتصاب. لقد وقعت جرائم اغتصاب بحق نساء أخريات في صراعات أخرى، وفي الواقع تقع جرائم الاغتصاب كحصيلة جانبية أو كوسيلة للقتال بوتيرة متكرّرة تفوق ما يروق لنا الاعتراف به. يعود اغتصاب الإناث إبان الصراعات المسلحة إلى بداية الحضارة. حتى وأنا أكتب هذه الكلمات، تتعرّض كثيرات من الفتيات والنساء حول العالم إلى الاغتصاب والتعذيب وإلى الحمل القسري. على الرغم من أن الصّبية والرجال يتعرّضون هم أيضاً للاغتصاب، إلا أن النساء هم غالباً ضحايا هذه الجرائم. كما أن هناك مشاكل إضافية تقع على كاهل النساء المغتصابات والحوامل.

الاغتصاب مسألة حساسة في كل الدول. إنها أكثر الجرائم حساسية، وتخرق كل ما تعزّه البشرية، بما في ذلك رعاية البنات والزوجات والأمهات والأخوات وحمايتهن. ولكن جريمة الاغتصاب تحديداً هي موضوع دقيق للغاية في العالم الإسلامي، حيث تتم حماية عذرية الإناث من قبل الدين والعادات والثقافة. هناك يحافظ المجتمع كله على عفة إنائه.

وثمة تعقيد ثانٍ خطير تواجهه الضحايا المغتصابات، إذ غالباً ما يُلقى عليهن اللوم جراء التعرّض للاغتصاب. في كثير من الحالات تنجو ضحايا الاغتصاب من حادث الاغتصاب، لكنهن لا ينجون من ردود الفعل العنيفة التي تصدر عن العائلة والمجتمع. فقد تُسجن بعض الضحايا أو

حتى يُقتلن. ويجري هذا تحت ذريعة قاسية وهي جريمة الشرف حينما تعتقد العائلة أنها تعجز عن مواجهة الانتقاد الموجه إليها من المجتمع وأن الأفراد الآخرين في العائلة سيلحق بهم العار إذا سُمح للمرأة المُغتصبة بالبقاء على قيد الحياة.

لهذه الأسباب، فإن أي كاتب يكشف عن قصص ضحايا الاغتصاب يتوجّب عليه اتخاذ تدابير استثنائية لحماية الضحايا.

وحتى لا ننسى، وقع كثير من جرائم الاغتصاب الشنيعة إبان الحروب ونذكر على سبيل المثال: الصين في الحرب العالمية الثانية، وألمانيا عقب الحرب العالمية الثانية، والبوسنة وأفريقيا والعراق. ما لم تتغيّر جذرياً عقلية الإنسان الذكر خلال الحروب، سوف يتعرض كثير من النساء البريئات الأخريات إلى وحشية جرائم الاغتصاب إبان الحروب.

هذه القصة لا تُحدّ بزمان، لأن هناك آلافاً من النساء اللواتي يواجهن حالياً الفظائع نفسها التي عانتها ياسمينا ولانا.
صلّوا لأجلهن.

ملحق (ب)

كلمة من العراقية ميادة العسكري

اسمي ميادة العسكري، واستُعرضت حياتي في الكتاب الذي يحمل عنوان (ميادة ابنة العراق).

أنا عراقية، وُلدت لعائلتين عراقيتين مشهورتين وبارزتين. جدي لأبي هو الجنرال جعفر باشا العسكري، رجل لامع شغل خمس مرات منصب وزير الدفاع العراقي، كما شغل منصب رئيس الوزراء، ومنصب الوزير العراقي الموفد إلى لندن مرتين. كان بغدادياً تلقى علومه في الكلية الحربية التركية في القسطنطينية. حينما كان يعيش في لندن ويشغل منصب الوزير العراقي الموفد إلى لندن، قام بقراءات حول نقابة المحامين الإنكليزية. خلال الحرب العالمية الأولى، فاز جدي بجوائز عديدة على قدراته العسكرية بما فيها الصليب الحديدي الألماني، فضلاً عن وسامَي القديس مايكل والقديس جورج من البريطانيين، وقدمهما إليه مباشرة الجنرال ألنبي الشهير. حارب جدي في البداية إلى جانب الألمان والأتراك إلى أن قُتل كثير من أصدقائه بشكل متوحّش من قبل سلطان الإمبراطورية العثمانية. في ذلك الوقت، اقتنع بالانتقال إلى جانب البريطانيين والقتال لتحرير الدول العربية من قبضة الإمبراطورية العثمانية، التي حكمت الأراضي العربية حكماً همجياً طوال خمسمئة سنة. عند وفاة جدي المأساوية في سن مبكرة عقب اغتياله، قام السير وينستون تشرشل بكتابة نعي جدي.

جدي لأمي هو ساطع الحصري، الذي تمتع بذكاء خارق حتى أنه

كان يدرس كل سنتين في سنة إلى أن تخرج من المدرسة. تخرج من مدرسة شاهاني الملكية في اسطنبول، إحدى المدارس الأكثر حصرية في المنطقة، وحاز درجة البكالوريوس في العلوم السياسية. عند ذلك الوقت كانت شهرته كمفكر عظيم قد وصلت إلى مسامع سلطة الإمبراطورية العثمانية، فتم تعيين جدي، الذي كان شاباً يافعاً في ذلك الوقت، حاكماً على منطقتي باينا وكونيا في يوغسلافيا. كما اختاره السلطان شخصياً لرأس النظام التربوي في الإمبراطورية العثمانية.

حقّق جدي نجاحاً باهراً في أعماله التربوية لدرجة أنه، عقب سقوط السلطان، تم أيضاً تكريمه من قِبَل الرئيس الجديد لتركيا الحديثة، مصطفى كمال أتاتورك، الذي غالباً ما ردّد: «رغبتني الوحيدة هي أن أقود تركيا بالمهارة نفسها التي أدار فيها ساطع الحصري مدارسهم».

مع توالي السنين، أصبح جدي ساطع يُعرف بالقومي العربي رقم واحد، فقد آمن دوماً بوجوب أن تحكم الأراضي العربية نفسها بنفسها لا أن تخضع لحكم محتل أجنبي. كان جدي ساطع كاتباً شهيراً ولا تزال كتاباته تعيش حتى يومنا هذا. نادراً ما زرت بلداً عربياً لم يسمّ شوارع أو مدارس تيمناً باسم جدي الشهير.

في تلك الأيام حينما كان يحكم بلادي السلطان، كان العراقيون البارزون يتلقّون علومهم في تركيا، ولكن قلوبهم تبقى في ديارنا «بلاد ما بين النهرين». إبان هزيمة العثمانيين في الحرب العالمية الأولى، ظهرت الدولة التي تشكّلت حديثاً وسُمّيت العراق على خريطة العالم. فابتهج جدّاي، إذ جل ما أراداه هو الحرية وحكومة مستقلة موثوقة للبلاد. وبالتالي تغانى كلاهما في خدمة الملك فيصل الأول، الذي جرى تعيينه ملكاً على العراق. فيما عُنِيَ جدي جعفر باشا بالشؤون العسكرية والحكومية، انخرط جدي ساطع في كل نواحي النظام التربوي، إلى جانب حماية آثار أرضنا القديمة.

لسوء الحظ، نعرف جميعاً اليوم أن العراق والعراقيين عبروا طريقاً وعرّاً، من تلك اللحظة الساطعة الأولى، من الاغتيالات إلى الثورات الحكومية العنيفة إلى الطواغيت إلى الاحتلال الأجنبي. في الحقيقة، كان جدي جعفر باشا أحد أوائل الذين اغتالهم الضباط العسكريون الأوغاد، فوضعوا البلاد على مسار العنف.

أحب بلادي. أحب مواطني بلادي ومواطناته. ولكنني أعرف أنه تم اقتراف كثير من الأخطاء، وأن كثيراً من الأعمال الوحشية وقعت، ليس بحق بعض جيران العراق فحسب، وإنما هي بأغلبها أعمال وحشية ارتكبتها العراقيون بحق عراقيين آخرين. في ظل حكم صدام حسين، لا يسعني النكران بأنه تم تعذيب كثير من العراقيين الأبرياء وقتلهم. لقد رأيت شخصياً سجناءً عراقياً من الداخل حينما تم اعتقالهم بتهم ملفقة، وشهدت مباشرة على الفظائع التي أنزلها الحراس العراقيون بحق النساء البريئات. لو أن صدام لم يعتز بتعاليم الحكم الذاتي التي قال بها جدي لأمي ساطع الحصري، ولم يستجب إيجاباً لابنة ساطع سلوى، وهي أمي، لهلكت أنا أيضاً في السجن العراقي.

لذا، حينما أعلنت صديقتي جين ساسون أنها تؤلف كتاباً قد يعينني أمره، كتاباً عن النساء اللواتي احتجزهن الجنود العراقيون في الكويت واستعبدهن جنسياً، طلبت إليّ أن أقرأ الكتاب. وإذا وافقتُها الرأي بأن جريمة الاغتصاب إبان الحروب يجب أن تلقى اهتماماً أكبر، بغض النظر عن من يرتكب هذه الجريمة، طلبت إليّ أن أكتب تعليقا. فواقع أنني مواطنة عراقية تحب بلدها سيجعل رأيي بالغ الأهمية، وفقاً لجين.

لأسباب عدّة، لم أتردّد للحظة واحدة. فأنا أكن معرّة كبيرة لجين ساسون فهي أعز صديقة لي في العالم. إنها بمثابة فرد من العائلة بالنسبة إليّ، وما لبثتُ كذلك منذ التقيتها في العام 1998 حينما سافرت إلى العراق لتعاني بنفسها التأثيرات المدمرة للعقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة بحق المواطنين العراقيين. ما لبثتُ صديقة

عزيزة وصديقة منذ سنوات عدة. كما تعجبني قدرات جين كمؤلفة. فهي تتطرق لقصص تدور حول أشخاص غير مشهورين، قلة من المؤلفين يعتبرون هذه القصص مهمة، مع ذلك قالت لي جين إن كل إنسان في الوجود يجب أن يكون له صوت، وأن يكون له الحق في أن تُعرف قصته. إنها مناصرة للإنسان والخير العام، وتهتم لأمر كل البشر، سواء أكانوا ذكوراً أم إناثاً، بالغين أم أطفالاً. لقد شهدت شخصياً على تصرفات جين التعاطفية في مستشفيات العراق حينما زارت بلادي في تموز/يوليو 1998، حيث كان الأطفال الصغار يموتون فقط لأن الأطباء العراقيين لم تتوفر لهم الأدوية بسبب عقوبات الأمم المتحدة.

أعلم أن جين تعباً فعلاً لأمر كل إنسان يعاني وتود لو تقوم كل الأخطاء.

بالفعل، كانت جين محقة من ناحية أن مثل هذه القصة تزعجني، وهي القصة التي تدور حول قيام جنود عراقيين باختطاف نساء واغتصابهن خلال فترة احتلال الكويت. أعتزف أنني خشيت قراءة القصص الحقيقية حول الأعمال المشينة التي نزلت بحق النساء اللواتي أُسرن في الكويت، والتي تمت على أيدي رجال من بلدي الحبيب. ولكنني علمت أن جين ستكتب الحقيقة التي تناهت إليها خلال مكوثها في الكويت ولقائها بالنسوة. كما أنني علمت من خلال فترة احتجازي في السجن إنه إبان الحروب، ثمة رجال يعتبرون الإناث ثمار حرب، وهي حق لهم. هذا يحدث في كل الحروب ومن قبل رجال من كل الدول. ليس ثمة استثناءات. لهذا السبب، أوافق جين الرأي بأنه يجدر سرد هذه القصة، وأن على دول العالم أن تتضافر سوياً للعمل على مجابهة هذا الانتهاك الفاضح بحق النساء.

وعلى الرغم من أن هذه القصة بالتحديد تدور حول كيفية استخدام رجال من بلدي الحبيب لسلطاتهم لإخضاع النساء وإيذائهن، أعتقد أنه ينبغي ألا يكون هناك أي استثناءات وأنه ينبغي معاقبة رجال بلدي، تماماً كما ينبغي معاقبة كل الرجال الذين يقترفون مثل هذه

الجرائم الوحشية، سواء أكانوا عراقيين أو أميركيين أو بريطانيين أو كويتيين أو أي رجل من أي دولة في العالم.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر IKitab

برأبي هذه القصة التي تفتّر القلوب يجب على كل بالغ أن يقرأها بغض النظر عن جنسيته.

أعتقد أن كتاب (خيار ياسمينا: قصة حقيقية تدور حول الحرب والاعتصام والشجاعة والنجاة) هو كتاب مهم ولا يُنسى. وأعتقد بصدق أن كل إنسان متفكّر وحساس سيوافقني الرأي.

ميادة العسكري

تموز/يوليو 2013

ميادة العسكري مراسلة لدى صحيفة «أخبار الخليج» المحترمة جداً في دبي. دار حولها كتاب (ميادة، ابنة العراق)، الذي ركّز على الفترة التي قضتها في سجن سيئ السمعة في العراق. عمدت الأنسة العسكري في الحقبة القريبة إلى تأليف كتاب يدور حول قصة حقيقية بعنوان «في قصر الملك». يسرد هذا الكتاب قصصاً شخصية مؤثرة حول العراق منذ يوم تأسيسه، وعائلة ميادة المتميزة، إلى جانب قصص مشوقة وحقيقية عن العائلة الملكية في العراق.

ملحق (ج)

حول الكويتي سعود المطاوع

أود تعريف قرائي إلى سعود المطاوع. سعود رجل كويتي مبدع جداً، يحصل لقمة عيشه من خلال العمل في النظام المصرفي الكويتي. إنه رجل جذاب وودود كان في الكويت مع زوجته وأطفاله الصغار في الثاني من آب/أغسطس 1990 عند غزو البلاد. ظلوا جميعاً في الكويت طوال فترة الاحتلال. وعندما تم تحرير الكويت في السادس والعشرين من شباط/فبراير 1991 ارتاح سعود وشعر بالسرور لكونه نجا هو وعائلته من غزو عسكري واحتلال خطيرين للغاية. إذ لم يحالف كثير من الكويتيين هذا الحظ.

بعد تحرير الكويت، وصل المسؤولون في الحكومة الكويتية والصحفيون والمؤلفون إلى الكويت على متن رحلة الحرية قادمين من الولايات المتحدة. في تلك المناسبة طُلب من بعض الكويتيين التطوع والإعطاء من وقتهم لاصطحاب الزوار الأجانب إلى الكويت في جولات في أرجاء البلاد المتضررة حتى يعاينوا الدمار بأعينهم ويلتقوا ضحايا الاحتلال. عندها تم تعيين سعود لمرافقتي في أرجاء البلاد. وتم تعيين متطوعة ثانية وهي طالبة شابة اسمها منى لمرافقتنا. حينما التقيت سعود ثم منى لاحقاً شعرت فوراً أنني بين أيدي أمينة. بدا الاثنان على قدر كبير من اللطف وعلى علم ودراية تامين بكل ما جرى داخل الكويت خلال أشهر الاحتلال الطوال.

في الحقيقة، تطوع كثير من الكويتيين باندفاع للمساعدة كمرشدين، رغبة منهم أن يعمد الصحفيون والمؤلفون من جميع أنحاء

العالم إلى رؤية الناجين والسماع منهم ما حل بالكويتيين العاديين خلال هذه المحنة العسية. بدا الكويتيون الذين التقيتهم مغممين بأمل أن حقيقة الاحتلال ستجعل العالم يفهم وحشية الاحتلال العسكري، وربما تساعد في درء حروب مستقبلية.

خلال فترة الأسابيع الثلاثة التي مكثت فيها في الكويت، بذل سعود ومنى جهوداً كبيرة وحرصاً على أن أعلم بالجرائم التي اقترفت بحق الكويت والكويتيين. أخذ سعود تحديداً على عاتقه وحرص على لقائي بكثير من الكويتيين لأعرف كل قصصهم. وبالتالي التقيت كثيراً من الناجين. الأشخاص الذين التقيتهم والقصص التي رويت لي كانت مؤثرة جداً، حتى عقب مرور سنوات عدة ما زلت أذكر جيداً الأشخاص ومحنتهم الشخصية التي تشاركوها معي.

رافقني سعود للقاء أفراد كويتيين تعرّض أبناؤهم للتعذيب والقتل بسبب مشاركتهم في المقاومة ضد المحتل. ربّ لي سعود لقاءات أخرى مع كويتيين تعرّضوا للاختطاف ونُقلوا كي يُسجنوا في العراق. عرّفني سعود إلى أطباء وممرضات ظلوا داخل البلاد طيلة فترة الاحتلال، وقد شهدوا شخصياً على الأضرار الفظيعة التي حلت بالكويتيين، وحدّدوا هويات الموتى والمعدومين. حتى أنه أقرني إلى المقابر حيث توجد صفوف لامتناهية من القبور الجماعية الموجودة أمام مرأى الجميع. انتظرني سعود في صالة شيخان الفارسي في السرة، بالكويت حيث أُعيد ألف سجين حرب إلى بلادهم وشهدنا فرحة لمّ الشمّل وانفطار قلوب العائلات التي ذهب انتظارها سدى¹.

حينما سنحت لنا الفرصة للذهاب بالسيارة إلى جنوبي العراق، تشوّقت للذهاب. توقّعت احتمال أن يرفض سعود، لأنه المسؤول عن سلامتي. ولكنني دُهِشت حينما أبدى حماسة للقيام بتلك الرحلة المغامرة وهي الدخول بشكل غير مشروع إلى جنوب العراق. طلب منا أكثر من مرة الجيش الأميركي مغادرة المنطقة، لأن الوجود خارج العاصمة الكويتية خطر جداً، ولكنني وجدت أن سعود يضاهيني جرأة،

فواصلنا الرحلة إلى أن قبل الجيش الأميركي وجودنا هنا، حتى أنهم عرضوا علينا كوب شاي وزيارة استجمام. وعندها أفلحنا في لقاء عراقيين كانوا يأملون سقوط حكومة صدام لأنهم هم أيضاً عانوا كثيراً في ظل حكم الطاغية.

خلال رحلة العودة من العراق إلى الكويت، توقّفنا على الطريق لقضاء وقت برفقة لاجئين عالقين عند الحدود بين الكويت والعراق. تلقينا أوامر بالترام الحذر من وقوع انفجارات، فهناك كثير من الألغام الأرضية المنتشرة في أرجاء المدن والقرى، ما يجعل أي رحلة خطيرة. في مخيم اللاجئين التقينا أهالي مذعورين وأطفالاً قانطين، حتى أنني أنقذت جرواً متروكاً يعاني من الإهمال. ورغم اعتراض سعود إلا أنني أصرت على أخذ الجرو معنا إلى الكويت. لم ترق لسعود فكرة أن يركب جرو في سيارته. لقد أطلقت على الجرو اسم «كويت»، ورحت أثير قلق سعود بتنهداتي العميقة ومخاوفي بشأن المكان الذي سيمكث فيه الجرو لما كنت أنزل في فندق. بالتأكيد لم يكن سعود على استعداد لإيواء الجرو. ولكن في طريق العودة إلى الكويت وجدنا مخيماً صحراوياً عسكرياً أميركياً فتوقفنا لنعاين أحوال هؤلاء الرجال. اندهش هؤلاء الجنود لكنهم فرحوا لرؤية امرأة أميركية وسط الصحراء بين الكويت والعراق، واعتبطوا بقاء ناجٍ كويتي، إذ لم يُسمح لهم بدخول العاصمة الكويتية. فرح أولئك الجنود الشبان عندما سمعوا بأنني أسميت الجرو «كويت»، وتجمعوا فوراً حول الجرو المسكين، قائلين إنه سيصبح جروهم الجالب للحظ وأنهم سيأخذونه إلى ألمانيا، حيث سيسافرون منها إلى أميركا في الأسبوع المقبل. وهكذا تركنا الجرو «كويت» مع الجنود الأميركيين. فبانت الفرحة بشكل جليّ على وجه سعود لأن أشخاصاً آخرين تحمّلوا مسؤولية الجرو.

مررنا بيوم مشوّق آخر حينما توجهنا إلى الصحراء خارج العاصمة الكويتية والتقينا عناصر من الجيش الأميركي وحتى أننا شاركناهم الطعام، الوجبات الجاهزة التي سمع العالم عنها. بدا سعود، وكذلك

الجنود، مدهولين حينما عبّرت عن حماستي البالغة حيال تلك الوجبات الجاهزة إلى أن اعترفت بين اللقمة والأخرى بأنني لم أكل سوى الكعك المحلى والساكر منذ وصولي إلى البلاد. فالفندق لا يزال يفتقر إلى الكهرباء والماء، وبالتالي لم يفتحوا بعد مطعمهم ولم يكن ثمة مجال لتحضير أي طعام. فظلت أكل وجبات خفيفة كنت قد أحضرتها معي لإعطائها للأطفال الكويتيين. في الحقيقة، ظلت أشعر بالجوع الشديد طوال الأيام العشرة التي أمضيتها في البلاد. اندهش سعود أمام بقائي جائعة وقال إنه سيقوم بترتيبات كي أحصل على الطعام، فأغلب المواطنين الكويتيين ادّخروا الطعام وسيسرّهم أن يشاطروني إياه. هزرت رأسي غير مصدّقة لأنني عمدت، عن قصد، إلى عدم طلب الطعام من أحد في البلاد، لأنني فكّرت أن الكويتيين يفتقرون حتماً إلى المؤمن.

في وقتٍ لاحق، عرّفني سعود إلى مصرفي يعرفه، وهو رجل هادئ وشجاع، كان قد تحمّل بكل شجاعة بتر أصابع يده، إلى أن لم يعد لديه خيار إلا فتح خزانة المصرف.

إحدى اللحظات المؤثرة جداً التي شهدناها هي لقاءنا بالأطفال المعوّقين داخل دار رعاية بُنيت خصيصاً لهم. خلال الاحتلال أُجبر هؤلاء الأطفال إلى جانب الأشخاص الذين يعتنون بهم على إخلاء مركز رعايتهم. وعمد عمال مركز الرعاية إلى حماية الأطفال بشراسة لذا نجوا جميعاً. خلال زيارة دار الرعاية برفقة المسؤول الأساسي للمنظمة، جلنا على كل طوابق المبنى المؤلف من أربع أو خمس طوابق، وعايّنّا الأضرار التي خلفها المحتل. خلال وقوفنا على سطح المبنى سمعنا أصواتاً مريية. خلال أول أيام تحرير الكويت، سمعنا أن من الشائع أن يكون ثمة جنود عراقيون مختبئون في مبانٍ مختلفة، فالبعض منهم فاتتهم رحلة خروج الجيش العراقي من الكويت. بدا سعود ومالك مركز رعاية الأطفال ومديره الكويتي مندهشين وضحكوا لكوني لم أهرب بل عمدت إلى التسلّح بقضيب معدني طويل وهرعت

باتجاه الصوت. لقد شكلنا وحدة جيدة، فسعود هرع على الفور، إلى جانبي واستعد للمواجهة هو أيضاً. لحسن الحظ لم نجد أي جندي عراقي، على الرغم من اعتقادي أننا كنا لنشكل فريقاً مربعاً.

استمتعت خصيصاً بلقائي بعناصر من المقاومة الكويتية، فآنذاك كنت قد التقيت بآباء وإخوان فقدوا أبناءهم وإخوانهم على أيدي جيش الاحتلال. فرحت لحضوري احتفالاتهم وتفاجأت كثيراً عندما رأيتهم يحملون نسخاً من كتابي «اغتصاب الكويت».

في إحدى أكثر الزيارات التي تدمي القلوب قرابة نهاية زيارتي إلى الكويت. قال عضو في الحكومة لسعود إنني الكاتبة الوحيدة التي مُنحت الإذن بدخول إلى دار النساء اللواتي تعرّضن للاغتصاب وحملن من جنود المحتل. أفترض أن هذه مكافأتي على تأليف كتاب «اغتصاب الكويت»، وهو الكتاب الوحيد الذي تطرق إلى قصص الكويتيين وآخرين من الذين هربوا من البلاد بعد الغزو والاحتلال. كانت زيارة مؤلمة لأن أولئك النساء كن الوحيدات في الكويت اللواتي لم يسعهن إيجاد شيء ليفرحن بشأنه. كان حزنهن معدياً فتألمنا جداً، أنا وسعود، بفعل مآسيهن الشخصية. هذه القصص التي ستقرأونها في هذا الكتاب هي قصص حقيقية.

خضت كثيراً من المغامرات الأخرى التي لا تُحصى خلال هذه الأسابيع، ومن بينها جولة محزنة جداً على «طريق الموت» الذي يمتد من الكويت إلى العراق حيث رأينا أدلة على وقوع مجزرة جماعية.

خلال تلك الأسابيع العديدة في الكويت والوقت الذي أمضيته مع سعود، أعتقد أنه تأكد له أنني لم أذهب إلى ذاك البلد لمجرد الحصول على قصة. فطيلة حياتي كنت إنسانة محبة للناس فعلياً وأهتم بصدق لأمر الكويتيين الذين يعانون، والآخرين الذي تأثروا سلباً بالغزو والاحتلال العراقيين.

بعد مغادرتي الكويت بعثت إلى سعود بالبريد نسخاً من الصور

التي التقطتها. رحنا نتواصل أنا وسعود من وقت إلى آخر، وأخبرني بأنه يتفرج على صوري في بعض الأحيان ليعاود عيش تلك الفترة المأساوية وإنما المشوّقة. لم أفقد اهتمامي قط بسعود وعائلته أو الكويتيين الآخرين الذين التقيت بهم. ولكن مع مرور السنوات فقدنا الاتصال أحدنا بالآخر.

في السنة الفائتة اتصلت بسعود ثانية. أردت الاطمئنان إلى حال ذاك الرجل الشجاع، وأحوال عائلته الكبرى. سررت لمعرفة أن الجميع بخير، ولكنني تفاجأت حينما علمت أن سعود وزوجته أصبحا جدّين فخورين. بالنسبة إليّ، سيظل سعود الشجاع شاباً إلى الأبد. طلبت صوراً لعائلة سعود الجميلة وتلقيتها من زوجته وابنته الجميلتين.

قبل فترة ليست ببعيدة، اتصلت بسعود من جديد. هذه المرة كان لدي بضعة أسئلة عن النساء الحوامل اللواتي التقينا بهن في الفيلا. ثمة نقاط عدة لم تكن واضحة لدي، وساعدني سعود في إعادة تنشيط ذاكرتي.

شعرت ضمناً أن سعود يفضل ألا أقارب هذه الموضوع لأسباب عدة: إذ مرت سنوات طويلة وقد مضى أغلب الكويتيين قُدماً نحو إعادة تأهيل بلدهم والشفاء مما حلّ بهم. والأهم أن الاغتصاب موضوع حساس جداً وخصوصاً في البلاد الإسلامية. في حين أعلم أن من المؤلم إعادة عيش أيام الرعب والخسارة تلك، ولكنني أشعر من صميم قلبي أن هذه القصة المهمة لا ينبغي تجاهلها، رغم أنني عجزت عن سرد الوقائع سنوات عدة.

مع ذلك تمنّى لي سعود الخير بكل كرم أخلاق، لأنه يدرك أنني في الوقت الذي احتاجتني فيه الكويت، كنت خير صديقة للكويت والكويتيين. وليس ثمة كويتي التقيت بي في تلك الأيام القاتمة يقول عكس ذلك.

ملحق (د)

الكويت - جدول زمني

القرن السابع عشر: المنطقة التي تُعرف اليوم على مستوى العالم بـ (الكويت)، والتي تشكل القسم الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة العربية، أصبحت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف.

القرن الثامن عشر: مستوطنون من داخل شبه الجزيرة العربية يسافرون إلى موقع العاصمة الكويتية الحالية. تعرّض الاستيطان وإنما تنامي ببطء حتى أمسى بوتقة تجارية نشطة.

1756: عائلة معيّنة، آل الصباح، تسيطر على المنطقة. مع مرور الوقت، أفلح آل الصباح في عقد اتفاق مع حاكم الإمبراطورية العثمانية لبسط حكم شبه ذاتي.

1899: الشيخ مبارك «العظيم» حاكم قوي للغاية ويقاوم لإنهاء علاقة الكويت بالإمبراطورية العثمانية. يدبر اتفاقاً مع بريطانيا العظمى لتصبح منطقتهم محمية تابعة للملكة الصغيرة. بمقابل الحماية البحرية، يُعطى لبريطانيا السيطرة على الشؤون الخارجية للكويت.

1937: يتم اكتشاف احتياطي النفط من قبل شركة نفط كويتية وبريطانية - أميركية. قبل ازدهار صناعة النفط، اندلعت الحرب العالمية الثانية، فأخّرت إنتاج النفط. وحين حطّت الحرب أوزارها، أثمر استخراج النفط ثروات هائلة للدولة الصغيرة.

1951: يحقّ مواطنو الكويت معايير عيش مرتفعة بسبب الثراء

الفاحش الذي أحدثته الصناعة النفطية.

حزيران/يونيو 1961: تعلن الكويت استقلالها وتنتهي اثنتين وستين سنة من الوصاية البريطانية. يصبح الشيخ الصباح الأمير الصباح. في هذا الوقت عينه تنضم الكويت إلى الجامعة العربية.

1961: يُجفّل العراقُ الكويتَ وبريطانيا العظمى حينما يعلن أن الكويت تنتمي إلى العراق عن وجه حق. عندما تدخل الجيش البريطاني، سحبت حكومة العراق ادعاءاتها.

1963: تضع الحكومة الكويتية دستوراً وتجري انتخابات مجلس الأمة.

1976: لا يقدر الأمير الصباح تدخل الجمعية التشريعية. فيحل مجلس الأمة المنتخب.

1980: تندلع الحرب بين العراق وإيران. تقلق الحكومة الكويتية من خطر الأغلبية الشيعية الإيرانية فتمدّ صدام حسين والعراق بدعم مالي ونفسي. يعطي المواطنون الكويتيون كامل الدعم إلى العراق.

1981: يسترد الأمير الصباح مجلس الأمة الكويتي.

1985: تندلع مشاكل أمنية وحالة اضطراب في الكويت بسبب الحرب الإيرانية العراقية الطويلة. تحاول إيران خلق بلبلة لدى الأقلية الشيعية الكويتية. وعندها تأمر الحكومة الكويتية آلاً من المغتربين الإيرانيين بمغادرة الكويت.

1986: يُحل مجلس الأمة الكويتي ثانية.

تموز/يوليو 1990: يستنزف الرئيس العراقي صدام حسين الخزينة العراقية خلال الحرب الإيرانية العراقية ويطالب الكويت بإعفائه من كل ديون الحرب، فترفض الحكومة الكويتية. يقدم صدام شكوى لدى أوبك (منظمة الدول المصدرة للبتروك)، ويتهم الكويت بسرقة بتروك العراق من حقل نطف قرب الحدود العراقية، ويهدّد بتحرك عسكري.

2 آب/أغسطس 1990: يجتاح العراق الكويت. تصل الحكومة الكويتية بالسلامة إلى السعودية حيث بوسعها مواصلة الحكم من الطائف بالسعودية. يُلحِق صدام الكويت بالعراق.

آب/أغسطس، أيلول/ سبتمبر، تشرين الأول/أكتوبر 1990: تسافر جين ساسون إلى لندن والقاهرة والطائف والسعودية للقاء الناجين الكويتيين من الغزو العراقي في الثاني من آب/أغسطس. إنها أحد المؤلفين القلائل الذين قابلوا الأمير وولي العهد الكويتيين.

15 كانون الثاني/يناير 1991: كتاب جين ساسون «اغتصاب الكويت»، الذي يسلط الضوء على تجارب شخصية لأفراد فروا من بلادهم يوم الغزو، يُنشر في الولايات المتحدة. يحقق الكتاب على الفور أعلى المبيعات، ويصل إلى المرتبة الثانية في قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز.

كانون الثاني/يناير 1991: تصدر الأمم المتحدة قراراً بوجوب انسحاب العراق من الكويت، فيرفض صدام حسين. تقود الولايات المتحدة حملة القصف الجوية المدعومة من الأمم المتحدة ضد الجيش العراقي في الكويت والعراق.

شباط/فبراير 1991: يأمر صدام رجاله بإحراق آبار النفط الكويتية. يطيع الجيش الأمر، فيشعل النار في آبار النفط لدى مغادرته البلاد.

26 شباط/فبراير 1991: ينسحب الجنود العراقيون من الكويت. ولدى انسحابهم يقومون باختطاف مواطنين كويتيين ويأخذونهم كرهائن، ويسوقونهم معهم على مسار الانسحاب العسكري. يسود الاعتقاد بأن بعض الكويتيين لقوا حتفهم خلال هجمة طريق الموت التي وقعت على الطريق السريع الممتد من الكويت. سُجن آخرون وإنما عادوا لاحقاً بأمر من الأمم المتحدة. واختفى 605 كويتيين تماماً في سجون صدام.

شباط/فبراير 1991: بعد انسحاب الجيش العراقي، دخلت قوى

التحالف إلى العاصمة الكويتية. انفجرت البلاد كلها في حالة من الاحتفال الجماعي.

13- 16 آذار/مارس 1991: ترعى الحكومة الكويتية «رحلة الحرية» إلى الكويت. المؤلفة حين ساسون ضيفة مدعوة. تمكث حين ساسون في البلاد ثلاثة أسابيع بعد عودة «رحلة الحرية» إلى الولايات المتحدة.

آذار/مارس 1991: يعود الأمير الصباح إلى الكويت، ويفرض ثلاثة أشهر من الحكم العرفي.

21 آذار/مارس 1991: أُعيد حوالى ألف سجين حرب كويتي إلى الكويت. يتجمّع أقارب المفقودين في صالة شيخان الفارسي في السرة لاستقبال الناجين. يرافق سعود المطاوع حين ساسون إلى الصالة، حيث يتكلمان مع العائلات والناجين ويواسيان العائلات التي ذهب انتظارها سدى.

1992: يسمح الأمير الصباح بانتخاب مجلس الأمة. يتفاجأ الجميع حينما يفوز مرشحو المعارضة بكثير من الأصوات.

1993: ترسم الأمم المتحدة حدوداً جديدة بين العراق والكويت. يأمر صدام بشن غارات عراقية على الحدود الكويتية. وترسل الولايات المتحدة جنوداً أميركيين.

1994: تمارس الأمم المتحدة الضغط على العراق للاعتراف رسمياً باستقلال الكويت والحدود الجديدة التي رسمتها الأمم المتحدة.

1999: بعد الانتخابات يندesh مناصرو الحكومة وآل الصباح حينما يسيطر الإسلاميون على مجلس الأمة.

2000: على مر السنوات، تدعو الحكومة الكويتية، إلى جانب لجنة خاصة إلى التحرك بخصوص الـ 605 مفقودين كويتيين الذين يُعتقد أنهم لا يزالون في العراق. تنكر الحكومة العراقية هذا الأمر، ولكن العائلات توقن أن أفراد عائلاتها إما في السجون العراقية وإما قتلهم

النظام العراقي. أحد المفقودين هو فائق عبد الجليل (المعروف بفائق العياضي) وهو شاعر عربي مشهور ومعروف على مستوى العالم الإسلامي وما عداه. لم يبأس فارس العياضي، من قضية والده، وظل يبحث إلى أن وجد بقايا والده في مقبرة جماعية في صحاري العراق. يعمل فارس على تأليف كتاب عن حياة والده، وهو رجل وهب حياته لأجل بلده².

2000: صدر حكم بالإعدام بحق رئيس الحكومة الكويتية المؤقتة الموالية للعراق في أيام الغزو والاحتلال عام 1990.

2001: تخفّف المحاكم الكويتية حكم الإعدام إلى حكم بالسجن المؤبد بحق رئيس الحكومة الكويتية المؤقتة الموالية للعراق، ما أذهل كثيراً من المواطنين الكويتيين.

آذار/مارس 2002: يتجمع آلاف الجنود على الحدود الكويتية العراقية لشن حملة عسكرية بقيادة أميركية لإطاحة الرئيس العراقي صدام حسين.

2003: يعين الأمير الصباح الشيخ صباح الأحمد الصباح رئيساً للوزراء. (لم يحدث هذا من قبل، ما يشير إلى وجود انقسام في السلطات).

كانون الثاني/يناير 2005: يندلع العنف بين المقاتلين الإسلاميين والشرطة، ما يرفع منسوب الحذر في أرجاء البلاد.

أيار/مايو 2005: يقر البرلمان قانوناً يسمح للنساء الكويتيات بالتصويت والترشح للبرلمان.

حزيران/يونيو 2005: تُعيّن مسومة المبارك أول وزيرة أنثى.

كانون الثاني/يناير 2006: وفاة الأمير الشيخ جابر. يخلفه ولي العرش الشيخ سعد ولكن تدهور حالته الصحية يسبب أزمة حكومية ويُجبر على الاستقالة. يصبح الشيخ صباح الأحمد الأمير الجديد.

نيسان/أبريل 2006: تدلي النساء بأصواتهن للمرة الأولى في الانتخابات، ولكنهن يفشلن لاحقاً في الفوز بأي مقعد في الانتخابات النيابية.

2006: يتم اكتشاف قبور جماعية في العراق. يُكتشف أن كثيراً من القتلى هم كويتيون مفقودون (من خلال الحمض النووي).

تموز/يوليو 2007: يُصدم الكويتيون حينما يُطلب منهم الاقتصاد في استخدام الكهرباء. فمولداتهم تكافح لتلبية احتياجات النمو الاقتصادي التي تولدها صادرات النفط القياسية.

آذار/مارس 2008: يقع خلاف داخل الحكومة. يحل الأمير البرلمان الذي تهيمن عليه المعارضة. ويدعو إلى انتخابات في أيار/مايو بعد استقالة مجلس الوزراء.

أيار/ مايو 2008: يدعو الأمير إلى انتخابات بعد استقالة وزارته. وأيضاً لا تُنتخب أي امرأة على الرغم من أن الإسلاميين فازوا بأكثر من نصف المقاعد (خمسين مقعداً).

كانون الثاني/يناير 2009: يشكل رئيس الوزراء الشيخ ناصر محمد الأحمد الصباح حكومة جديدة بعد أن دبت الفوضى في البرلمان لدى زيارة رجل دين شيعي.

شباط/فبراير 2009: يتفاجأ المواطنون الكويتيون عندما يزور وزير الخارجية الكويتي بغداد في زيارة عالية المستوى. ويُعقد أول اجتماع رسمي بين الحكومتين منذ اجتاح العراق الكويت عام 1990.

أيار/مايو 2009: تصنع النساء الكويتيات التاريخ حينما تفوز ثلاث نساء منهن بمقاعد في البرلمان.

تشرين الأول/أكتوبر 2009: تحتفل النساء الكويتيات حينما تصدر الحكومة الدستورية حكماً يسمح للنساء الكويتيات بالحصول على جوازات سفر من دون موافقة أزواجهن. يفيد قانون آخر بأن النساء

الأعضاء في مجلس الأمة غير ملزمات بوضع غطاء الرأس عند العمل.
يضع هذا الحكم الكويت في طليعة المؤيدين لحقوق النساء في
المنطقة.

كانون الأول/ديسمبر 2009: ينجو رئيس الوزراء من محاولة عزله
من قِبَل المعارضة من خلال ادعاءات بفساده.

آذار/مارس 2011: بتشجيع من المحتجين في أرجاء العالم
العربي، يتظاهر كثير من الشباب في الكويت مطالبين بالإصلاح.

كانون الأول/ديسمبر 2011: خرجت احتجاجات في وجه فساد
الحكومة. الأمير يحل البرلمان.

22 كانون الثاني/يناير 2012: توفي الشيخ سعود الصباح بعد
معركة طويلة مع مرض السرطان عن عمر ثمانية وستين عاماً، وفق ما
أعلنه الديوان الأميري. كان الشيخ عضواً من العائلة الملكية الكويتية،
وشغل منصب سفير الكويت في الولايات المتحدة بكل نشاط، وكان
هو الصوت الأساسي المطالب بالمساعدة الدولية بعد غزو العراق
للكويت واحتلاله. دُفن جثمانه في الكويت.

شباط/فبراير 2012: تسيطر المعارضة بقيادة الإسلاميين على
البرلمان الكويتي بسبب موجة من الغضب الشعبي على جمود الحياة
السياسية. يطلب الأمير من رئيس الوزراء المستقيل تشكيل حكومة
جديدة.

أيار/مايو 2012: يرفض الأمير عرضاً من قِبَل أعضاء البرلمان يرمي
إلى جعل كل التشريعات متوافقة مع القانون الإسلامي.

حزيران/يونيو 2012: يعلق الأمير البرلمان. تبطل أعلى محكمة في
الكويت نتائج الانتخابات، وتعيد تنصيب البرلمان السابق.

تشرين الأول/أكتوبر 2012: يعاود الأمير من جديد حل البرلمان للمرة
الخامسة خلال ست سنوات. يحتشد آلاف ضد التغييرات المُحتملة

لقانون الانتخابات. يُصدم الكويتيون حينما تحرق شخصية بارزة من المعارضة أحد المحرمات وتنتقد الأمير مباشرة. يأمر الأمير بإجراء تغييرات على قوانين الانتخابات، ويقلص عدد الأصوات للمواطن الواحد في الانتخابات البرلمانية من أربعة أصوات إلى صوت واحد. تنادي المعارضة بمقاطعة الانتخابات، ويتظاهر عشرات الآلاف من الأشخاص ضد قوانين الانتخابات. يتم تفريق الحشود بواسطة القنابل المسيلة للدموع والقنابل الصوتية.

تشرين الثاني/ نوفمبر 2012: يتظاهر آلاف من المحتجين أمام السجن حيث يُحتجز المعارض الذي أهان الأمير. تفرق الشرطة الحشود بواسطة القنابل المسيلة للدموع. يثبت الأمير على موقفه.

كانون الأول/ديسمبر 2012: يصوت الكويتيون في انتخابات برلمانية في ظل قوانين الانتخابات الجديدة. تأتي نتيجة التصويت متدنية.

حزيران/يونيو 2013: تبطل المحكمة الدستورية الكويتية الانتخابات البرلمانية التي حصلت في كانون الأول/ ديسمبر 2012، ولكنها توافق على قانون الانتخابات الذي وضعه الأمير والذي نجمت عنه المقاطعة. تدعو المحكمة إلى انتخابات جديدة لتغيير البرلمان الحالي.

على الرغم من الاضطرابات السياسية الأخيرة، يتفق أغلب المراقبين على أن الكويت لديها أحد أنشط البرلمانات وإحدى أوسع الحريات الإعلامية في الشرق الأوسط.

ملحق (٥-)

العراق - تسلسل زمني

1534-1918: المنطقة التي تُعرف اليوم بالعراق كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية.

1920: يصادق مؤتمر السلام «سان ريمو» الذي عُقدَ بين قوى التحالف على الانتداب الفرنسي والبريطاني للشرق الأوسط.

1921: تتويج الملك فيصل ملكاً على العراق.

1927: يكتشف البريطانيون النفط في كركوك.

1932: يُمنح العراق استقلالاً رسمياً.

1933: يُتوفى الملك فيصل الأول لأسباب طبيعية. ويُتوّج ابنه غازي ملكاً.

1936: اغتيال جعفر باشا العسكري، وزير الدفاع، خلال الانقلاب العسكري الأول في العراق. تعتبر وفاته خسارة فادحة تلحق بالدولة الحديثة العهد.

1938: يصبح زوج أخت جعفر باشا العسكري وصديقه المفضل، نوري باشا السعيد رئيس وزراء العراق.

1939: يُتوفى الملك غازي الأول في حادث سير. ويخلفه ابنه فيصل الثاني البالغ أربع سنوات من العمر. يتم تعيين الأمير عبد الله وصياً على العرش.

1941: يحدث انقلاب عسكري ويُجبر ملك العراق ورئيس الوزراء على الفرار مؤقتاً.

1958: انقلاب عسكري آخر يُخلف تبعات أكثر مأساوية. يتم اغتيال رئيس الوزراء وأفراد العائلة الملكية ومن ضمنهم الملك.

1959: يحدث انقلاب آخر أيضاً. يضطر صدام حسين إلى الفرار إلى مصر.

1968: يعود البعثيون إلى السلطة ويصبح صدام حسين الثاني في القيادة.

1979: يصبح صدام حسين رئيساً. أحد أعماله الأولى في سدة الرئاسة هو تطهير حزب البعث من الأعضاء غير المرغوب فيهم.

1980: تندلع الحرب بين العراق وإيران.

1981: تقصف إسرائيل مفاعل أوزيراك النووي العراقي قرب بغداد.

1987: يستخدم صدام حسين السلاح الكيميائي ضد القرى الكردية، فيقتل الآلاف. يتجاهل العالم هذا الفعل اللاإنساني.

شباط/فبراير 1988: وقف إطلاق نار رسمي في الحرب العراقية الإيرانية.

آب/أغسطس 1990: يجتاح العراق الكويت. يدعو قرار الأمم المتحدة رقم 660 صدام حسين إلى سحب قواته. يضم العراق الكويت إليه على اعتبار أنها المحافظة التاسعة عشرة.

17 كانون الثاني/يناير 1991: بدء عملية عاصفة الصحراء.

شباط/فبراير 1991: إصابة الجنود العراقيين بهزيمة نكراء.

28 شباط/فبراير 1991: حدوث إقرار إطلاق نار.

منتصف آذار/مارس - بداية نيسان/أبريل 1991: يتحمس شيعة

الجنوب وأكراد الشمال بفعل هزيمة العراق، ويثورون ضد صدام، فينخذ بحقهم إجراءات وحشية جداً.

3 نيسان/أبريل 1991: يحدد القرار رقم 687 الصادر من مجلس الأمن في الأمم المتحدة معايير السلام. ينسحب كل الجنود العراقيين من الكويت.

نيسان/أبريل 1991: تشكيل «منطقة آمنة» بموافقة الأمم المتحدة في شمال العراق لحماية الأكراد. يأمر العراق بإنهاء كل الأعمال العسكرية في المنطقة.

آب/أغسطس 1992: إقامة منطقة حظر جوي في جنوب العراق. تُمنع الطائرات العسكرية العراقية من الدخول.

حزيران 1998: الكاتبة الأميركية جين ساسون (التي ألّفت كتاب اغتصاب العراق) تراسل صدم حسين طالبة الإذن لدخول العراق وتأشيرة زيارة. تصدر دعوة رسمية من مكتب صدام حسين.

تموز/يوليو - آب/أغسطس 1998: تستحصل جين ساسون على تأشيرة دخول العراق من بعثة الأمم المتحدة في نيويورك. تسافر إلى الأردن ومن هناك تقلّها سيارة إلى بغداد، وتمكث في البلاد في رحلة بحثية مدتها ثلاثة أسابيع.

تشرين الثاني/نوفمبر 1998: انسحاب كل مفتشي الأمم المتحدة من العراق.

أيلول/سبتمبر 2002: يدعو الرئيس جورج بوش إلى القيام بتحرك ضد العراق. يوافق العراق على السماح لمفتشي الأسلحة الدوليين بالعودة إلى العراق دون شروط.

تشرين الثاني/نوفمبر 2002: يعود مفتشو الأسلحة التابعون للأمم المتحدة إلى العراق بناء على قرار الأمم المتحدة الذي يهدد بتحمل العراق عواقب وخيمة إذا تبين أنه «خرق» أحد شروطه.

آذار/مارس 2003: يفيد سفير المملكة المتحدة إلى الأمم المتحدة بأن العملية الدبلوماسية حول العراق قد انتهت. يخلي مفتشو الأسلحة العراق. يعطي الرئيس الأميركي جورج بوش صدام حسين وابنيه مدة ثمان وأربعين ساعة لمغادرة العراق أو يواجهون حرباً. يتجاهل صدام وابناه هذا الأمر.

19 آذار/مارس 2003: يؤدي الغزو الذي قاده أميركا إلى وضع حد لحكومة صدام حسين، مما يؤثّر إلى بداية سنوات من الصراع العنيف بين مختلف الجماعات المتنافسة على السلطة.

تموز/يوليو 2003: يلتئم المجلس الحاكم الذي عينته أميركا للمرة الأولى. يفيد قائد القوات الأميركية إن قواته تواجه حرب عصابات خفيفة الوتيرة. يُقتل ابنا صدام، قصي وعدي، إلى جانب ابن قصي الصغير، في معركة بالأسلحة النارية في الموصل.

آب/أغسطس 2003: تدمر شاحنة مفخخة يقودها انتحاري مقر الأمم المتحدة في بغداد. يُقتل موفد الأمم المتحدة الشهير سيرجيو فييرا دي ميلو في الهجوم.

14 كانون الأول/ديسمبر 2003: القبض على صدام حسين في تكريت.

نيسان/أبريل - أيار/مايو 2004: بدأت الميليشيات الشيعية الموالية لرجل الدين المتطرّف مقتدى الصدر بقتال قوى التحالف. رد الجيش الأميركي وأُفيد عن مقتل المئات في القتال خلال الحصار العسكري الأميركي لمدينة المسلمين السنّة «الفلوجة» الذي طال لمدة شهر.

شباط/فبراير 2005: يدلي ثمانية ملايين عراقي بأصواتهم بكل حرية ضمن انتخابات مجلس الحكم الانتقالي.

نيسان/أبريل 2005: وسط العنف المتفاقم، يختار البرلمان القائد الكردي جلال طالباني رئيساً للجمهورية. والشيعي إبراهيم الجعفري

رئيساً للوزراء.

حزيران/يونيو 2005: يُنصّب مسعود البرزاني رئيساً قظرياً
لكردستان العراق.

آب/أغسطس 2005: يتبنّى المفاوضون الشيعة والأكراد مسوودة
دستور عراقية. يرفض الممثلون السنة الوثيقة.

تشرين الأول/أكتوبر 2005: يوافق الناخبون العراقيون على دستور
جديد، يهدف إلى تأسيس ديمقراطية فيدرالية إسلامية.

كانون الأول/ديسمبر 2005: يصوّت العراقيون على أول حكومة
وبرلمان بولاية كاملة منذ وقوع الغزو بقيادة أميركية.

أيار/مايو - حزيران/يونيو 2006: يحصد العنف الطائفي أرواح أكثر
من 100 مدني عراقي في اليوم، وفقاً للأمم المتحدة.

7 حزيران/يونيو 2006: يُقتل زعيم القاعدة في العراق، أبو مصعب
الزرقاوي، في هجمة جوية.

تشرين الثاني/نوفمبر 2006: يستعيد العراق وسوريا العلاقات
الدبلوماسية بعد قطيعة دامت حوالي ربع قرن. خلال هذه المدة
الزمنية نفسها، توفي أكثر من 200 شخص بسبب سيارات مفخخة في
مدينة الصدر ذات الأغلبية الشيعية في بغداد، في أسوأ هجوم على
العاصمة منذ الغزو بقيادة أميركية سنة 2003.

كانون الأول/ديسمبر 2006: تقديم تقرير مجموعة دراسية حول
السياسة المستقبلية في العراق للرئيس بوش. يصف تقريرهم
الوضع في العراق بأنه خطر ومتدهور.

كانون الأول/ديسمبر 2006: إعدام صدام حسين بتهمة اقترافه
جرائم ضد الإنسانية.

أيلول/سبتمبر 2008: تسلم الولايات المتحدة سلطتها على

محافظة الأنبار الغربية. إنها أول محافظة سنية تُعاد إلى الحكومة العراقية ذات القيادة الشيعية.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر IKitab

تشرين الثاني/نوفمبر 2008: يتفق البرلمان العراقي مع الولايات المتحدة على ميثاق أمني ينص على مغادرة كل القوات الأميركية البلاد قبل نهاية العام 2011.

كانون الثاني/يناير 2009: تتسلم الحكومة العراقية الأمن في المنطقة الخضراء المحصنة في بغداد، فتتولى سلطات أكبر من القوات الأجنبية التي تتخذ مراكز لها في البلاد.

آذار/مارس 2009: يعلن الرئيس باراك أوباما انسحاب أغلب القوات الأميركية بنهاية العام 2010. ستغادر قوة استشارية بنهاية العام 2011.

حزيران/يونيو 2009: بعد ست سنوات على الغزو، تنسحب الولايات المتحدة من البلدات والمدن العراقية، وتسلم مسؤوليات الأمن إلى القوى العراقية الجديدة.

كانون الثاني/يناير 2010: إعدام علي حسن المجيد (علي الكيماوي)، وهو شخصية بارزة في حكومة صدام حسين.

آب/أغسطس 2010: بعد سبع سنوات على الغزو، تغادر آخر فرقة قتال أميركية العراق.

تشرين الأول/أكتوبر 2010: يصادر مقاتلون كنيسة في بغداد. يقتلون اثنين وخمسين مسيحياً في ما وُصف بأفظع كارثة تضرب مسيحيي العراق في العصر الحديث.

آب/أغسطس 2011: تزايد العنف. يحصل أكثر من أربعين هجمة منسقة على امتداد الدولة في يوم واحد.

كانون الأول/ديسمبر 2011: يتمّ الجيش الأميركي سحب قواته.

2012: تُستهدف مناطق الشيعة في أرجاء البلاد، ما يشعل خوفاً من حصول صراع طائفي جديد. الأرقام مخيفة: قُتل 200 شخص في شهر كانون الثاني/يناير؛ و 160 شخصاً في حزيران/يونيو؛ و 113 شخصاً في تموز/يوليو؛ و 70 شخصاً في آب/أغسطس؛ و 62 شخصاً في أيلول/سبتمبر؛ و 35 شخصاً في تشرين الثاني/نوفمبر.

كانون الأول/ديسمبر 2012: يعاني الرئيس جلال طالباني من أزمة قلبية لكنه يتعافى ببطء.

2013: تواصل اندلاع الهجمات الطائفية في أرجاء البلاد.

ملحق (و)

تاريخ ادعاء العراق امتلاكه للكويت

ما هي الخلفية التاريخية لادعاءات الحكومة العراقية الماضية بأن الكويت يجب أن تكون جزءاً من العراق؟

في نهاية الحرب العالمية الأولى، حصل اتفاق سري بين إنكلترا وفرنسا قسّم بلدان العالم العربي إلى مناطق نفوذ. سُمي الاتفاق السري باتفاقية سايكس-بيكو، التي جعلت أغلب الشرق الأوسط مستعمرات لدولتين.

بجرّة قلم طائشة، خلق ممثل بريطانيا العظمى في المنطقة، السير بيرسي كوكس، العراق الحديث. تضمّنت خريطته محافظات بغداد والبصرة والمناطق الكردية في الشمال، على الرغم من واقع أن معاهدة سيفر بين العثمانيين والحلفاء وعدت الأكراد بدولة خاصة. في الوقت عينه، «خلق» السير بيرسي كوكس السعودية والكويت. اعتقد سكان العراق أن حدودهم يجب أن تمتد إلى الخليج (ممر شط العرب المائي) الذي يتضمن الكويت.

بمجرد أن حقّق العراق استقلاله عن إنكلترا، بذلت الحكومة مجهوداً لإعادة الكويت إلى العراق. لكن الحكومة العراقية لم تحقّق أي نجاح.

بعد استقلال الكويت عام 1961، جدّد الرئيس العراقي عبد الكريم قاسم مطالبته بالكويت. فردّ البريطانيون على هذه المطالبة بإرسال الجنود واستخدام نصرّة الجامعة العربية. في وقت لاحق أنهى العراق

مقاطعته للجامعة العربية واعترف رسمياً باستقلال الكويت بعد سنتين، أي في العام 1963.

على الرغم من أن العراق ادّعى ملكيته للكويت وأنها جزء من أمته منذ أول أيام العراق الحديث، إلا أن صدام حسين كان الرئيس العراقي الوحيد الذي احتل جيشه رسمياً الدولة الصغيرة.

ويتواصل الخلاف. سمعت مرات عدة عراقيين بارزين يشكون سراً بأن الكويت يجب أن تكون جزءاً من أمتهم. يقولون إن الحدود بين الكويت والعراق رُسمت في زمن الاستعمار، من قبل قوى استعمارية، وأن القرار القاضي بوجوب بأن تكون الكويت دولة مستقلة يجب ألا يكون قائماً.

ملحق (ز)

رحلة الحرية، رحلة العودة إلى الكويت

بعد حرب الخليج الأولى

حين كنت جالسة داخل طائرة تحلق فوق الغيوم، وحدثني أنقل ثانية للقاء الكويتيين. ولكن في ذلك اليوم السعيد، وفي تلك الساعة البهيجة، سيطرت الذكريات على أفكاري، وأخذتني إلى وقت سابق محزن أكثر، وهو أيلول/سبتمبر وتشرين الأول/أكتوبر من العام 1990. لقد مضى أكثر من سبعة أشهر منذ هجم الجيش العراقي على الكويتيين، فاحتل دولة الكويت الصغيرة خلال ساعات وضمها إليه.

لقد مضى ستة أشهر على سفري إلى لندن والقاهرة والرياض والطائف حتى أقابل كثيراً من الأشخاص الذين علقوا في الكويت في ذلك اليوم البغيض، اليوم الذي حوّل اتجاه المنطقة بأكملها.

إن أغلب الكويتيين الذين تسنّت لي معرفتهم من خلال أبحاثي عندما كنت أؤلف كتاباً عن الغزو العراقي للكويت كانوا قد هربوا من الاحتلال ودخلوا إلى السعودية. من هناك، واصل كثير منهم رحلتهم ليكملوا أيام تهجيرهم في مصر أو لندن.

على الرغم من أن الأشخاص الذين قابلتهم قد نفذوا شخصياً من الموت، إلا أن تعاستهم بدت حقيقية، حيث ينتحب بعض اللاجئين على خسارة بعض أفراد العائلة، وكلهم يندبون خسارة دولتهم.

أصبحت هذه القصة الشخصية المأساوية جزءاً من كتاب صغير بعنوان «اغتصاب الكويت». حينما نُشر في كانون الثاني/يناير 1991، حقق الكتاب فوراً أعلى المبيعات، فوصل إلى المرتبة الثانية ضمن قائمة أكثر الكتب مبيعاً في صحيفة نيويورك تايمز. في حين أن كتاب «اغتصاب الكويت» كشف قصص الكويتيين الذين نجوا من الاجتياح، تلفت اليوم اهتمامي معرفة ما حل بهؤلاء الكويتيين الذي ظلوا في الكويت خلال الاحتلال الذي دام سبعة أشهر. ما لبثت أفكر فيهم منذ وقت طويل، وقرأت كل مقالات الصحف التي تطرقت إلى الاحتلال ووجدت إليها سبيلاً، كما شاهدت برامج تلفزيونية لا تُعد ولا تُحصى حول الأحداث في العراق والكويت.

يعطيني كثير من التقارير الإعلامية التي تتطرق إلى السطو والاغتصاب والقتل سبباً للاعتقاد بأن الكويتيين الذي بقوا في الأرض المحتلة جابهوا تحديات لا حصر لها هددت حياتهم. غالباً ما أسأل نفسي: أي قصص مؤلمة يملكها الكويتيون، وهم مستعدون لمشاطرتها مع العالم؟ سأعلم قريباً لأن خطتي تنحصر في البقاء داخل الدولة التي أنهكتها الحرب بعد أن يعود أغلب ركاب رحلة الحرية إلى الولايات المتحدة. حزمت حقائبي لأمكث مدة أربعة أسابيع، رغم أنني قد أمكث لمدة أقصر أو أطول، استناداً إلى الوضع على الأرض.

بعد أن أفلحت قوى التحالف في تحرير دولة الكويت الصغيرة من قبضة الجيش العراقي الضخم، عمدت سفارة دولة الكويت إلى تنظيم رحلة الحرية. وهي أول رحلة رسمية إلى دولة الكويت. أثق أن الحكومة الكويتية رتبت لهذه الرحلة لأسباب عديدة. حسب ما قيل لي، كانت الدولة في حالة مدمّرة، وتريد الحكومة إعادة بناء البنية التحتية المدمّرة بأسرع وقت ممكن. ولكن هناك سبباً ثانياً، ويوازي الأول أهمية، للقيام بهذه الرحلة. يريد شعب وحكومة الكويت أن يظهرها للعالم تحديداً انتهاكات حقوق الإنسان التي ارتكبت في أشهر الاحتلال الطوال.

ومن يسعه لومهم؟ يستحق الشعب والحكومة العدالة.

ما لبثت استشف شخصياً كل المواضيع التي لها علاقة بالكويتيين والعراقيين منذ الأشهر السبعة الماضية، لذا سرّني أن شملتني الرحلة. بعد أن استقرت في مقعدي، رحّت أسير في أرجاء الطائرة بحثاً عن وجوه مألوفة. كنت أعلم أن الطائرة تضم مائة وستة وأربعين راكباً إلى جانب طاقم الطيران لأنني عدت المضيفين والضيوف الذين أدرجت أسماؤهم على قائمة الضيوف الرسمية.

في حين أنني التقيت مرتين السفير الكويتي في الولايات المتحدة، سعادة الشيخ سعود ناصر الصباح، إلا أنني لم أتعرف إلا إلى قلة من الركاب الذين رأيتهم، من ضمنهم روبرت موسباتشر، وزير التجارة وزوجته جورجيت، إلى جانب ثلاثة عشر عضواً في الكونغرس من أوهايو، وكاليفورنيا وأوكلاهوما وبنسلفانيا ورود آيلاند ونيويورك وتكساس. وسرعان ما شاهدت الجنرال ألكساندر هيغ، الرجل ذا الوجه المشرق، وهو يتنسم لأشخاص لا أعرفهم ويحدثهم. أذكر أنني رأيت اسمي مورتيمر زوكرمان وأندرو يونغ. وهناك مجموعة من الضيوف الآخرين، من ضمنهم أسماء بارزة في مجال الإعلام، إضافة إلى مجموعة كبيرة من المديرين التنفيذيين الذين يمثلون كبرى المؤسسات الأميركية.

رأيت السفير الصباح يتحدث مع بعض ضيوفه على متن الطائرة. هو أيضاً يتنسم وبدا جلياً أنه مسرور جداً لتحرير بلاده، فشعرت بالسرور لأجله. لا شك بأن الأشهر السبعة الماضية كانت الأشهر الأكثر تحدياً في حياته. وبالتأكيد، ليس ثمة دبلوماسي عمل بجهد أكبر لأجل بلاده.

* * *

أذكر الأحداث التي أدت إلى لقائي الأول بالسفير. لقد قمت بالبحث على عقد هذا اللقاء حينما راسلته شخصياً معبرة عن حزني

تجاه الغزو، وذكرت له أنني أعيش في السعودية وأريد مقابلة أشخاص نجوا في أول أيام الحرب وغادروا البلاد سعياً للجوء في الأراضي المجاورة.

خطر لي فكرة مقابلة الناجين لسببين: الاهتمام والفضول. فأنا أسكن في المنطقة منذ أمد طويل وأتمتع بعدد من الصداقات مع أشخاص عرب، لذا يعنيني جداً ما يجري لعامة الشعب في الكويت. بعد اثنتي عشرة سنة من العيش في السعودية والسفر في أرجاء المنطقة، كنت قادرة على التجوال في المنطقة وحدي لمقابلة الأشخاص الأكثر تضرراً من الحرب.

ولكنني أيقنت أنني سأواجه مشاكل في الاستحصال على المعلومات من دون وثيقة خاصة تصدرها الحكومة الكويتية. فمعرفتي الشخصية بالعرب جعلتني أوقن أن قليلاً من العرب مستعدون للإفصاح عن مسائل شخصية أو مهمة لأشخاص من الغرب لا يعرفونهم. على الأقل لن يفعلوا ذلك دون أن يُقال لهم إن ما سيكشفونه من قصصهم الشخصية لن يزعج حكومتهم. معرفتي بهذا الواقع دفعتني إلى الاتصال بالسفير حتى أستحصل منه على هذه الرسالة التعريفية المهمة.

بعد أيام من إرسال رسالتي، تفاجأت باتصال هاتفي من السفير. اتصل بي إلى منزلي في أتلانتا، بجورجيا، وخلال الاتصال دعاني للقدوم إلى واشنطن. قبلت الدعوة وتوجهت إلى المدينة بعد بضعة أيام.

أبدى السفير لباقة وضيافة بالغتين، وقدم لي رسالة رسمية تنص على أن أي كويتي يشعر برغبة في إطلاعي على تجاربه، له كامل الحرية للقيام بذلك. لم يذكر أي تعليمات للكويتيين بشأن ما يمكن لهم أو لا يمكن لهم الإفصاح عنه.

بعد العيش في منطقة الشرق الأوسط حيث تصر الحكومات

على التحكم في كل ناحية من نواحي الحياة، ومن ضمنها كل ما يصدر في الإعلام، سررت وارتحت حينما اكتشفت أن الحكام الكويتيين كانوا مختلفين. من الرسالة التي أعطيت لي، بدا جلياً أنه لن يحدث أي تدخل رسمي. سيكون للكويتيين الذين سألتقي بهم وأقابلهم مطلق الحرية بإخباري بكل ما لا يكدر عليهم صفوهم الشخصي.

على الرغم من أن السفير أبدى نبلاً إلا أنه كان معنياً جداً بالناحية العملية، لذا تفاجأت حينما أفصح لي بشكل يشوبه القلق عن مسألة شخصية. قال لي أن زوجته وبعض أولاده عادوا إلى الكويت قبل بضعة أيام من الغزو. وخشية منهم على حياتهم، عاشوا في البلد تحت أسماء مستعارة. كان يأمل إخراجهم من البلد بسرعة. شعرت بالأسى الشديد على وضعه. فهو ليس قلقاً فقط على سلامة بلده، وإنما لديه سبب وجيه يدعو للقلق على سلامة عائلته.

لم يذكر لي السفير أنه متزوج من ابنة الأمير. في وقت لاحق حينما علمت أنه متزوج من ابنة الأمير، فهمت أكثر أن ظروفهم قد تستحيل مريعة بكل سهولة. كان السفير يعمل بعزم صارم لحماية بلده وينتقد كثيراً الرئيس صدام حسين وهجومه على الكويت واحتلاله له. لقد ظهر في برامج تلفزيونية أميركية وعبر عن غضبه واشمئزازه من محتلي بلاده. إذا اكتشف المسؤولون العراقيون أن زوجة السفير الصريح وأولاده موجودون في الكويت، وأنه تربطهم صلة قرابة وطيدة بالأمير، فهناك خطورة بالغة بأن يُساق أفراد عائلة السفير إلى العراق ويُسجنوا أو حتى يُعدموا.

بعد تلقي رسالتي التعريفية، تمنيت للسفير وعائلته السلامة وهممتُ برحلتني إلى الشرق الأوسط.

من الجدير ذكره أن السفير الكويتي لم يتدخل بمسألة تحديد المواعيد، أو التحكم بمقابلاتي، أو دفع أي تكاليف تكبّدها أنا، وكذلك لم يفعل ذلك أي مسؤول رسمي. لم تعرض الحكومة الكويتية دفع أي تكاليف، وأنا لم أطلب منها ذلك. في الواقع، لم يخطر على بالي مثل

هذا الأمر، وأثق أن الأمر عينه ينطبق على السفير. ولكن كان هناك كويتيون التقيتهم في رحلتي عرضوا شخصياً عليّ مساعدتي للتواصل مع كويتيين معينين يملكون قصصاً ملفتة حول فرارهم. قبلت مساعدتهم في تعريفني إلى هؤلاء الأشخاص، وهو إجراء شائع لدى أي مؤلف أو صحفي.

لاقت رحلة البحث والمقابلات النجاح فقط لأن الكويتيين أبدوا توقاً لسرد قصصهم المروعة. بعد مقابلة الكويتيين في لندن سافرت إلى مصر، حيث التقيت زوجي السابق بيتر ساسون وزوجته الجديدة جولي. دام زواجي أنا وبيتر عشر سنوات، وبعد طلاقنا ظللنا صديقين مقربين. توافقت أنا وجولي من اللقاء الأول وشعرت بأنني مقربة منها. بيتر، الذي كان مصوراً مشهوراً، وافق على مرافقتي عند الحاجة من أجل التقاط الصور، فأنا لا أتمتع بأي مهارات في هذا المجال، وبالتالي شكّلنا فريقاً متناعماً. بعد أن أتممنا عملنا في القاهرة، سافرنا نحن الثلاثة إلى الرياض.

عملت من داخل فيلاً بيتر وجولي خلال فترة وجودي في الرياض، على الرغم من أنني أمضيت معظم أيامي في السفارة الكويتية نظراً لصعوبة التواصل مع الكويتيين الذي كانوا منتشرين في جميع أنحاء السعودية. الرياض مدينة شاسعة، والكويتيون كانوا يقيمون في مساكن مختلفة وفي مناطق مختلفة. لحسن حظي، كثيراً ما كان معظم الكويتيين يزورون مسؤولي السفارة ليستكشفوا ما الذي يجري في بلادهم.

أمضيت ساعات عدة من الليل والنهار مع الكويتيين المشردين، أواسيهم وهم يندبون خساراتهم. بعد فترة وحيزة رحت أسافر في الأرجاء برفقة لاجئات كويتيات شابات وأستكشف المساكن التي أمّنتها الحكومة السعودية. كما زرت المدارس التي تم تأمينها سريعاً لأجل الأطفال الكويتيين.

كانت السعودية خير مضيف. أثق أن العائلة الملكية لم تنسَ قط

أنه قبل مئة سنة، وقرّ الأمير الكويتي الحاكم الملاذ لملك السعودية الأول عبد العزيز قبل أن يصبح ملكاً. كان عبد العزيز شاباً منغياً إلى الكويت ومعه والده في بداية القرن العشرين، قبل أن يقاتل الرشيديين ويهزمهم، مستعيداً السعودية لعائلته. كان أبناؤه لا يزالون يحكمون السعودية، ومن خلال ضيافتهم أظهروا أنهم لم ينسوا أن آل الصباح هم الذين قدموا المساعدة لوالدهم كي يستعيد السيطرة على السعودية.

كان ثمة مشكلة واحدة فقط. كل الكويتيات اللواتي التقيت بهن يمقتن العيش في السعودية. فأغلب النساء الكويتيات مثقفات ومعتادات على الحرية الشخصية. في الكويت يقدن سياراتهن الخاصة إلى المدرسة أو العمل أو للتسوق. هن يعشن حياة أكثر حرية من تلك التي تعيشها أخواتهن السعوديات اللواتي يحرسهن عموماً نسيب ذكر ويتمتعن بحريات محدودة خارج المنزل. وأكثر ما ضايق صديقاتي الكويتيات هم المطاوعون الجوالون. فقد نشط جداً هؤلاء الرجال أصحاب الوجوه الصارمة في الوقت الذي عجت فيه المملكة بنساء عربيات معتادات على الحرية.

لقد استمتعوا للغاية في مضايقة النسوة، فراحوا يتفحصون لباسهن ويصرخون ويهينون اللواتي لا يرتدين العباءة ولا يضعن غطاء الرأس.

بعد العيش سنوات عدة في واحدة من المدن الأكثر تحفظاً في البلاد، تعودت على اتخاذ الحيطة من أولئك الرجال أصحاب العيون الحادة، المهووسين جداً بالحرص على التزام النساء باللباس المحتشم وبآداب التصرف. صحيح أن النساء الكويتيات محتشمات في الملابس وإنما كثيرات منهن غير محجبات. أصر هؤلاء المطاوعون السعوديون على قولبة الكويتيات على هواهم.

نظراً للون بشرتي الفاتح وشعري الأشقر اللذين ميّزاني وعرفّا الآخرين بأنني أجنبية من أوروبا أو أمريكا، عمدت السلطات السعودية

إلى تجاهلي بشكل عام. راق لي مرات عدة قيام الكويتيات بالاختباء خلفي لدى اقتراب المطاوعين السعوديين منهن. وعندها تعمد تلك النسوة المسكينات إلى الهمس في أذني: «واصلي السير»، أو «ساعديني. خبيني يا حين».

وبعدها يتعرّفن نتيجة التوتر ويقلن إنهن مستعدات للتوجّه ومقاتلة الجيش العراقي بأنفسهن إن كان هذا ما يلزم لإخراجهن من السعودية. لقد وجدن صعوبة في تصديق أنني عشت بسعادة وهناء في مدينة الرياض المتحفّظة، وغالباً ما مازحني بسؤالهن عن سلامة عقلي.

كان ثمة فرق شاسع بين الحياة الكويتية والحياة السعودية، والعلاقات بين الشعبين غالباً ما كانت تشوبها التوترات.

خلال وجودي في الرياض، اتّصلت بالحكومة المنفية التي تمكث في الطائف، وهو منتج جبلي شهير يؤثّره الذين يودون الهرب من حرارة المدن الصحراوية. تفاجأت وسررتُ بتسلمي دعوة لمقابلة ولي العهد الكويتي، والأمير الكويتي.

المرة الثانية التقيت فيها السفير كانت عقب عودتي من رحلتي وبعد تأليفي للكتاب. كان الكتاب تقريراً إخبارياً بشكل أساسي، لم تستغرق كتابته سوى ستة أسابيع، على الرغم من أن التوقيت تخلّته أشهر عدة من السفر والمقابلات. كان تأليفه سريعاً، ولكنه كان سجلاً مهماً عن اليوم الأول من الغزو.

كان الكتاب قد خرج لتوّه من المطابع، وابتهجت لدى تقديم نسخة للسفير الذي رسم ابتسامة عريضة على وجهه وهو يقبّل صفحات الكتاب. سألني بسذاجة إذا كنت قد اتّصلت هاتفياً بالرئيس جورج بوش لأخبره عن الكتاب. فابتسمت من سؤاله هذا، وقلت له إنني لم ألتق الرئيس يوماً وما كانوا ليحوّلوا اتصالي له في البيت الأبيض. بدا السفير مذهولاً، كحال كثير من العرب الذين لا يدركون أن كل

الأميركيين لا تجمعهم صداقات شخصية مع رئيسهم.

في الشرق الأوسط، يمكن لأفقر مواطن أن يطلب لقاءً مع الملك، الذي كثيراً ما يوجد في اجتماعات خيم الصحراء حينما يجوب البلاد بغرض لقاء المواطنين. وهناك يصغي الملك إلى مشاكل الناس ويحيل الملتئم للقاء أحد وزرائه كي يدبر له الحلول لمشاكل معينة.

خلال حديثنا ذكرت أنني شاهدت برنامجاً إخبارياً تتم فيه مقابلة جنود أميركيين. وانزعجت لسماعي أحد جنودنا يقول إنه، لا هو ولا زملاؤه الجنود، يفهمون سبب وجودهم في السعودية واستعداداتهم لقتال العراقيين. قلت للسفير: «حين سمعت ذلك الجندي، أسفت لعدم تمكني من إيصال نسخة من هذا الكتاب إليه. أتمنى أن يحصل كل جندي على نسخة. عندها سيدركون سبب وجودهم هنا، وسبب استقدامهم».

صمت السفير ولكني أيقنت أنه يفكر بالكلام الذي قلته، ثم بدأت عيناه تلمعان. أجاب: «أنت محقة يا حين. إن الذين يُرسلون للقتال يجب أن يعرفوا بالضبط سبب وجودهم هناك. ينبغي أن يقرأوا القصص الشخصية، وعندها سيدركون سبب إرسالهم لتحرير الكويت». ازداد الحديث زخماً، فطلب السفير تفاصيل عن ناشري، وأراد بعض معلومات للاتصال به. وجدت سريعاً رقم هاتف ناشري، فأجرى السفير اتصالاً هاتفياً وتحدث مع مالك دار النشر، وسأله إن كان بإمكانه السفر إلى واشنطن للقائه.

بطبيعة الحال ذهلت أمام سرعة التحرك وصرامته.

في اليوم التالي وصل الناشر إلى السفارة الكويتية للقاء السفير، قبل أن يتسنى لي الوقت للتفكير بشأن ما قد يحدث، أمر السفير بتحضير 200 ألف نسخة من كتاب «اغتصاب الكويت» وتسليمها إلى السفارة الكويتية في واشنطن. كلفت السفارة عمالاً بتحميل نسخ كتابي على متن الطائرة لنقلها إلى السعودية. وعرفت لاحقاً أن

نسخة من الكتاب تم تسليمها لكل جندي يهتم بقراءة القصص الشخصية للاجئين الكويتيين.

أعجبني كثيراً إصرار السفير على الحرص بأن يعرف الجنود الذين يوشكون على خوض معركة لأجل بلده سبب قتالهم.

لا يسعني ادعاء وجود صداقة بيني وبين السفير الصباح، إلا أنني وجدت أسباباً عدة تدعوني إلى الإعجاب به واحترامه. فهو رجل نبيل، ومهذب في حديثه، ويعمل مع حكومات عدة حتى يتسنى له إنقاذ بلده من الاحتلال الأجنبي. على الرغم من تعرضه لهجوم قاس من جهات كثيرة في الإعلام الأميركي جرّاء جهوده، فلطالما تساءلت عما تريد هذه الجهات منه أن يفعل. وحب على كل من ينتقدون أفعال السفير التفكير في ما يمكن لهم فعله إذا اقتحم أحد منازلهم، وسرق ممتلكاتهم، وقتل أولادهم، واغتصب نساءهم، وأجبر الجميع أن يكونوا تابعين للدولة الغازية. كان السفير رجلاً يدافع دبلوماسياً عن بلده، ويبدل أقصى جهوده لإخراج الغزاة من بلده. وبرأيي ينبغي تكريمه لا انتقاده. (ولم يتغير رأيي).

* * *

العودة إلى رحلة الحرية:

بعد التجوّل قليلاً، جلست من جديد في مقعدي ورحت أقرأ إلى أن سمعت بأننا نقترب من المنامة، بالبحرين. سنمضي الليلة في البحرين ثم ننتقل إلى الكويت في اليوم التالي. خلال وجودنا على متن الطائرة أُخبرنا أن الخطة تغيرت، وأنا لن نبيت الليلة التالية في الكويت، لأن في ذلك خطراً بالغاً. هناك كثير من القنابل التي لم تنفجر والموجودة في أماكن غير متوقّعة، وهناك بعض الجنود العراقيين الذين فاتتهم رحلة العودة إلى العراق مع زملائهم الجنود قد خرجوا من مخابئهم لتهديد الكويتيين.

أقلقتني هذه المعلومة غير المتوقّعة وغير المريحة. فقرّرت

النزول في الفندق في الكويت بعد مغادرة الضيوف الآخرين. لا أريد أن تقلني رحلة العودة إلى الولايات المتحدة مع باقي ضيوف رحلة الحرية. أريد استكشاف البلد بنفسني. وأريد السعي وراء الكويتيين وغيرهم من ذوي الجنسيات الأخرى الذين مكثوا في البلد خلال فترة الاحتلال.

حين وصلنا أخيراً إلى الكويت، لم أقلق على أمتعتي لأن الأمتعة لم تُنزل عن متن الطائرة. ثمة حافلات بالانتظار لتقلنا في جولة حول العاصمة الكويتية.

بمجرد أن وصلنا إلى العاصمة الكويت التقينا سمو الأمير الشيخ سعود العبد الله السالم الصباح، ولي العهد ورئيس الوزراء. لا يزال ولي العهد يذكرني منذ ستة أشهر حين قابلته في الطائف. بدا مبتهجاً لرؤية وجه مألوف، وأخبرني سريعاً أنه مغتبط لحصوله على نسخة من الكتاب الذي ألّفته. وفجأة قال ولي العهد إنه يرغب بتقديم هدية لي. يود تقديم فيلاً لي في العاصمة الكويتية، حتى أتردد دائماً لزيارة أصدقائي الكويتيين. صُغت تماماً لدرجة أنني لم أجد كلاماً لأرد عليه. كان السفير واقفاً إلى جانب ولي العهد، فابتسم ولكنه لم يعلّق.

رسمت ابتسامة على شفّتي بالقوة فيما رحّت أفتش عن طريقة لطيفة لرفض هذا العرض السخي. كل أفراد العائلة المالكة الذين التقيتهم تعودوا تقديم هدايا ثمينة إلى من يروق لهم، إلا أن القاعدة الوحيدة التي فرضتها على نفسي، والتي لطالما اتبعتها خلال سنوات إقامتي في الشرق الأوسط، ومعرفتي بأفراد العائلة الملكية السعودية، هي عدم قبولي أي هدايا على الإطلاق إن كنت أعجز عن رد ما يوازيها. كنت أقبل علبة شوكولا أو باقة زهور، لكنني كنت أرفض رفضاً حاسماً قبول الهدايا الثمينة³.

واصلت الابتسام أمله في الحصول على المساعدة من السفير، الذي يعرف أن المؤلفين الغربيين لا يقبلون أي دفعات مالية أو هدايا لقاء تأليف كتاب. لكن السفير بقي صامناً وظل يبتسم تاركاً القرار لي

وحدي.

أخيراً هزرت برأسي وقلت لولي العهد: «هذا لطف بالغ من قبلكم، ولكن لا يسعني قبول مثل هذه الهدية الثمينة. أشكرك من أعماق قلبي».

لعلّ ولي العهد أيقن أن هذا سيكون ردي إذ بدا أنه لم يعتبر الأمر إهانة. أزعجت أفراد الطبقة الحاكمة مرات عديدة برفضى الهدايا، ولكنه، لحسن الحظ، لم ينزعج مني وظل يرسم على وجهه ابتسامة عريضة. قال لي إنه يتمنى رؤيتي مجدداً ذات يوم. ولكنها كانت المرة الأخيرة التي أقابل فيها ولي العهد الكويتي.

بعد هذا اللقاء المقتضب مع ولي العهد، أمضى ضيوف الحكومة الكويتية يوماً كئيباً طويلاً وهم يتفرّجون على المباني المهدمّة، والقصور والمنازل المدمرة، والأقبية والزنازين التي لا تزال تحوي أدوات التعذيب. كانت المناظر والروائح منقّرة، وإن كان ثمة شكوك، فمن الجلي أن الكويتيين عانوا الأمرين وأن الدولة الصغيرة تعرّضت للتدمير بالكامل على أيدي الغزاة.

أحدثت آبار النفط المشتعلة أكبر قدر من الجلبة والتعاطف في أوساط الحشود. حيث أخذ بعض الأشخاص يشهقون وراح آخرون يتكلمون بصوت عالٍ وبسرعة، فيما التزم آخرون الصمت وهم يتفحصون الدمار.

رأيت زوجة السفير وابنته تكيان وهما تتعلقان إحداهما بالأخرى، وقام السفير بمواساتهما قدر استطاعته. أتفهّم سبب شعورهما بهذا الحزن العميق. فالسماء الكويتية حالكة وعمود الدخان الأسود يدور صعوداً صوب أعالي السماء ويحجب الشمس. هواء الكويت أصبح ثقيلاً نتيجة آبار النفط المحترقة. وبدا كل شيء بارداً.

ذكّرني المشهد بما يمكن أن يبدو عليه الشتاء النووي. وأحزنني تحديداً منظر الطيور والمخلوقات الأخرى التي تموت من حولنا. كلها

مغطاة بنفط أسود زلق. وعاجزة عن التحليق وحتى عن المشي.
فترأها قابعة بتعاسة تنتظر حتفها.

كل المخلوقات الحية في الكويت عانت ولا تزال تعاني.

يا لها من مأساة أمكن تفاديها!

في نهاية اليوم، عاد الضيوف الحزاني إلى الطائرة. وطوال النهار
رحت أفكر بمشكلتي، ثم وضعت خطة. بمجرد أن وصلنا إلى المطار،
هرعت للتكلم مع طاقم الرحلة وشرحت لهم وضعي. قلت لهم إن عليّ
البقاء في الكويت، ولكنني سأحتاج إلى أمتعتي. أبدوا تعاوناً فائقاً،
فهرعوا لمساعدتي، وراحوا يبحثون بين الحقائب لإيجاد حقائبي السبع
الضخمة. أغلب ركاب الطائرة لم يأتوا سوى بحقيبة محمولة صغيرة،
لذا سهّل إيجاد حقائبي الضخمة الثقيلة فأُنزلت عن الطائرة بسرعة.

كان يوجد أربعة أشخاص كويتيين هناك ليحرصوا على إقلاع
الطائرة. خلال وقوفي للتلوّيح بيدي وتوديع الركاب العائدين إلى
الولايات المتحدة، سألت إن كان بإمكانهم أن يقلوني معهم إلى
المدينة، فرحبوا بمساعدتي، على الرغم من عدد حقائبي ووزنها
الثقيل. كانت السيارة مزدحمة، لكن الجميع أبدوا روحاً مرحة لأن
الكويت تحرّرت.

خلال ابتعاد الطائرة الضخمة لمحت السفير الصباح ينظر إليّ من
نافذة مقعده. بدا متفاجئاً جداً لرؤيتي على الطريق الإسفلتية لدرجة
أنني خشيت أن يطلب إيقاف الطائرة، ظناً منه أنهم نسوني. لعلّ
ابتسامتي المرحة وتلويحي الودود أكدا له أنني أقوم بما أريد القيام به
بالضبط. لم يفعل شيئاً، فارتحت لذلك.

* * *

حين بدأت أبحث عن مكان لأقيم فيه في العاصمة الكويتية، مرت
عليّ لحظات رغبت فيها بتلك القبلا التي عرضها علي ولي العهد بكرم

بالغ. فإيجاد غرفة في فندق في المدينة يكاد يكون مستحيلًا. قال لي مدير أحد الفنادق إن هناك صحفيين يفترشون أرصفة الطرقات، وراح يشير بيده إلى الخارج، ظناً منه أنني قد أفكر في القيام بالأمر عينه. أقنعت مدير الفندق أنه من الخطر جداً لامرأة أن تنام على أرصفة الطرقات. لذا كنت من بين قلة من الكتّاب المحظوظين الذين تسنى لهم الحصول على غرفة في فندق. وهذه قصة سأتركها ليوم آخر، وكتاب آخر.

حالفني الحظ لوجود سائق ومترجم معي، وهو شاب كويتي يعمل في مصرف ويدعى سعود المطاوع، وتطوَّع لمرافقة كاتب أو صحفي ليجول به في أرجاء الكويت. شعرت بأنني الأوفر حظاً بين كل الكتّاب لأن سعود ودود وجريء وواسع الحيلة. وهو متزوج من امرأة أميركية رائعة ورب عائلة متفان. كل ما في سعود مثير للإعجاب. أبدى استعداداً للموافقة على القيام بأي مغامرة وهذا مفيد، إذ تبين أن الأسابيع التالية في الكويت عبارة عن مغامرة كبيرة.

كنا نعمل كل يوم وطوال اليوم، فكان علينا زيارة كثير من الأماكن واللقاء بكثير من الأشخاص. كل ما رأيناه وكل مكان استكشفتناه كان مشوقاً، ويروي عن كثير من التجارب التي تكاد تكون خطيرة. هناك كثير من القصص التي يعجز المرء عن سردها كلها، من لقاء الضحايا، إلى اللعب مع الأطفال في المياتم، إلى مشاهدة وصول سجناء الحرب الكويتيين العائدين من العراق في صالة شيخان الفارسي في السرة، إلى السير وسط البقايا المتفحمة لمئات الآليات المحترقة على طريق الموت إلى البصرة، إلى الدخول بشكل غير شرعي إلى جنوب العراق للقاء العراقيين الساخطين الذين يعبرون عن رغبتهم بألا يحكم صدام ثانية منطقتهم، إلى زيارة الجنود الأميركيين في الصحراء.

عشنا أوقاتاً مرحة، على الرغم من أن شبخ الحرب الحزين لا يزال يخيم على البلد. ولكن أكثر ما استمتعت به هو حضور حفلة أقامها رجال المقاومة، رغم حزنهم على الأصدقاء الذين ارتحلوا عن هذه

الحياة. فكثير من المقاومين الشجعان تعرّضوا للاعتقال والتعذيب قبل إعدامهم، إلا أن الجميع كانوا مسرورين لوجود المقاومين في الحفلة، فهم قاتلوا ضد جيش همجي مدجج بالسلاح، وظلوا على قيد الحياة ليحكوا قصصهم.

هذا الكتاب الإلكتروني متاح لكم عبر IKitab

رحت أبتسم وأنا أشاهد الرجال يرقصون بعضهم مع بعض، وأغلبهم يحملون نسخاً من كتابي «اغتصاب الكويت» إلى جانب صور للرئيس جورج بوش. لم أشهد قط مثل هذا القدر من الراحة والفرح الغامر.

بعد أن رفضت قبول الفيلاً هدية، قيل لي إن الحكومة الكويتية أصدرت أمراً بمنحي مقابلات حصرية وإطلاعي على قصص مُنعت عن غيري من الكتاب، قيل لي إن هذا الإذن يعود إلى أنني كنت الكاتبة الوحيدة التي ألّفت كتاباً عن ضحايا في الكويت. لم أرفض هذه «الهدية».

وبالتالي فهمت أنه طلب من سعود أخذي لمقابلة النساء اللواتي تعرضن للاغتصاب وحملن. كانت الحكومة تعني بأولئك الفتيات المُعتدى عليهن وتوفر لهن الرعاية الطبية.

ذكر سعود ما كنت أعرفه أصلاً، أن الموضوع حساس للغاية ولكن سيُسمح لي بمقابلة الفتيات، والكتابة عنهن وعن تجاربهن، شرط أن أُغيّر أسماءهن وألا ألتقط صوراً.

وافقت بسرعة لأنني أعرف تمام المعرفة أن الاغتصاب هو الموضوع الأكثر حساسية في ثقافة الشرق الأوسط. لن أفعل أي شيء يؤدي الفتيات والنسوة.

ليس ثمة مقابلة أثرت بي بقدر تلك المقابلات.

كانت المقابلة الأولى الأكثر إبلاماً.

ياسمينا، امرأة لبنانية جميلة تنتظر وصولي إلى الغيلا، وهي تتوق جداً لتخبرني بكل الأهوال التي نزلت بها. لم أكن متحصّرة للتفاصيل الدقيقة التي تبدي ياسمينا استعداداً بل تشوّقاً لتطلعي عليها. فوصفها للاغتصابات التي تحملتها شخصياً، والاعتصابات التي ارتكبت بحق صديقتها الكويتية لانا، تتخطّى في فطاعتها كل القصص التي قرأتها أو سمعت عنها.

عزمت على كتابة قصة ياسمينا حين أعود إلى الولايات المتحدة، إلا أنني وحدثني عاجزة عن ذلك. فقد ألمتني تفاصيل ما جرى درجة بالغة، فوضعت مشروع الكتاب جانباً، ظناً مني أنني سأتمكن قريباً من كتابة القصة. ولكنني كنت أفشل في كل محاولة لكتابتها، مختلقة الأعذار دائماً، وأقول في نفسي: «سأكتب هذه القصة في يوم لاحق».

أتى هذا «اليوم اللاحق» أخيراً في الخامس والعشرين من أيار/ مايو 2012، وشعرت بتجدد عزمي على إخبار العالم عن امرأة التقيت بها، المرأة التي ستعرفونها باسم ياسمينا. أخيراً نضحت مني القصص التي أخبرتني بها وتفاعت حينما بدأت أكتب بأنه لا يسعني التوقف، فرحت أكتب بالطريقة الانسيابية، الطريقة نفسها التي أخبرتني بها ياسمينا قصصها التي قرأتموها.

كوني مؤلفة هذا الكتاب، أشكر كل قرائني على اهتمامهم بياسمينا ولانا وكل البطلات الأخريات اللواتي أحيتهن في الكتب التي ألفتها.

جين ساسون

20 تموز/ يوليو 2013

ملحق (ح)

مقتطفات من كتاب «اغتصاب الكويت»

فيما يلي أولى كتاباتي من أولى مسودّات مخطوطتي التي كتبتها خلال الأشهر تشرين الأول/أكتوبر وتشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر من العام 1990. تحوّلت مخطوطتي لاحقاً إلى الكتاب الأكثر مبيعاً الذي يحمل عنوان (اغتصاب الكويت: القصة الحقيقية للفظائع العراقية بحق السكان المدنيين).

ولأن الكتاب لم يعد متوفّراً بنسخته المطبوعة، فغالباً ما أتلقّى أسئلة بشأنه. إلى المهتمين، إليكم معلومات حول تأليف «اغتصاب الكويت».

ملاحظات حول المقدمة:

طوال اثنتي عشرة سنة اتخذت الشرق الأوسط موطناً لي. خلال هذه المدة تسنّى لي التعرّف إلى سكان المنطقة وأعجبت بهم. لهذا السبب، لطالما آلمني العنف الذي لا ينفكّ يندلع هناك، لأنني أعرف جيداً الشعب العالق وسط الآلام المتفجرة الناجمة عن المرض الذي يفتك بالمنطقة.

عقدت صداقات مع كثير من العرب. لقد عرفتهم كبشر. ونشأ أصدقاؤني العرب تماماً كما نشأنا كلنا، مفعمين بالأمل ويخطّطون لمستقبل واعد ويفكرون بالزواج وتكوين أسرة. وهم يعانون حينما

تطرق الأحزان أبوابهم، ويموتون. لكن كثيراً من العرب ماتوا لأنهم وُلدوا في المنطقة الأكثر اضطراباً على وجه الأرض.

بعد أن شهد العرب عدداً لا يُحصى من الاضطرابات على مدى العقد الماضي، خلصتُ إلى استنتاج بأن العرب ينتظروهم مزيد من الحروب. فهناك كثير من الطغاة المعاندين، والملوك المحبين للترف، وكثير من المطاعم التي لم تتحقق، كما يتوقّر في المنطقة وسائل فتك عديدة تمنع عنها السلام. المنطقة بأكملها تعج بالجيوش والدبابات والصواريخ والأدوات العسكرية، بيعت أغلبها لدول الشرق الأوسط من قبل أميركا وروسيا ومختلف الدول الأوروبية. لكل هذه الأسباب، ساورني شعور مؤكد بأن التوترات في الشرق الأوسط ستزيد وتؤدي إلى مزيد من الحروب.

خلال صيف العام 1990، رحّت أراقب بخشية بالغة صدام حسين، الرئيس العراقي، وهو يوجّه إهانات بحق آل الصباح، حكام الكويت. انزعج صدام جداً لأنه اقترض مبلغاً هائلاً من المال من الكويت والسعودية، لتمويل الحرب ضد عدوهم المشترك، إيران، والتي دامت ثماني سنوات. لم تحقق هذه الحرب أهداف صدام، حيث انتهت دون انتصار أي من العدوين. واستشاط صدام القابح في بغداد غضباً وهو يرى أن جيشه أصبح يعد مليون جندي، واقتصاده يتهاوى، وطموحه لم يتحقّق.

كان قد طلب من السعوديين والكويتيين أن يعفوه من دينه، ويمدوه بمزيد من الأموال لإصلاح بلده المدمّر، فرفضوا، عندها غضب صدام جداً، إذ شعر أنه ضيّع ثروة العراق النفطية وخسر أرواح آلاف من الجنود العراقيين الشبان، وراح كل هذا هباءً منثوراً.

بعد قراءة كل ما نُشر عنه، خشيتُ على الكويتيين والسعوديين لأن صدام قوي من الناحية النفسية وعصته مؤذية بقدر نباحه. اتصلت بأصدقاء لي يعيشون في الكويت ودبي والإمارات العربية المتحدة، أشخاص هربوا من الحرب الأهلية اللبنانية، ونصحتهم بأن من الأفضل

أن يعودوا إلى بيروت ليواجهوا المشاكل في ذلك البلد الذي هشمته الحرب. ضحك أصدقائي وطلبوا مني ألا أقلق، ظانين أن صدام يهذي. كم أملت لو كانوا على حق وكنت أنا على خطأ.

ليلة الأول من آب/أغسطس 1990، جلست لمشاهدة أحد البرامج المفضلة لديّ، «نايتلاين» الذي يقدمه تيد كوبل. كان الفارق الزمني بين أتلانتا والكويت سبع ساعات، لذا كان التوقيت فجراً في الكويت. هالني إذ ذاك سماع السيد كوبل يعلن خبراً عاجلاً مفاده أن الجيش العراقي غزا المنطقة قبل ساعات عدة وهو يسارع الآن باتجاه العاصمة الكويتية، وفقاً لمراسلين متحمسين.

صُغْتُ، ولكني لم أعرف أن حياتي تغيّرت إلى الأبد في تلك اللحظة، تماماً كما تغيّرت حياة العراقيين والكويتيين.

في الأيام التالية، استحوذت علي تماماً المأساة التي تتكشف في الكويت حتى أنني وجدت نفسي عاجزة عن التركيز على مخطوطة نصف منتهية حول الشرق الأوسط. رحّت أصغي بامعان إلى المؤتمرات الصحفية التي يقيمها الشيخ سعود ناصر الصباح، السفير الكويتي في الولايات المتحدة. شعرت بالأسى الشديد عندما سمعته يناشد كل الشعوب والحكومات كي يساعدوا بلده المحاصر. أثّرت بي تضرعاته لاستخدام مساعدة من أي جهة، ولفتتني دماثة أسلوبه.

شعرت أن عليّ القيام بعمل ما للتعبير عن دعمي، فقرّرت مراسلة السفير. كتبت رسالة صادرة من القلب، أقول له فيها إنني أصلي لأجل خروج بلده من المحنة ولأجل سلامة شعبه. قدّمت له تفاصيل عن نفسي، وأنني عشت في المنطقة، وأولف حالياً كتاباً عنها، وأنني ربما سأقابل اللاجئين وأسرد قصصهم.

بعد إرسال الرسالة إلى السفير، لم أعد أفكر فيها كثيراً، على الرغم من أنني واصلت تحليل الخطابات السياسية التي يدلي بها

قادة العالم بعناية. رحلت أشاهد بحزن هائل اللاجئين وهم يتقاطرون إلى خارج الكويت ليرووا قصص الرعب التي عاشوها. قلقت على الأشخاص الذين لا يزالون عالقين داخل الدولة الصغيرة. ماذا يجري لهم؟ أملت ألا يقف العالم مكتوف الأيدي كما فعل خلال مجازر الإبادة الجماعية التي وقعت في كمبوديا، والتي أثرت بي عميقاً إبان مرحلة شبابي.

اتصلت بكل أصدقائي في الشرق الأوسط. لأنني شعرت أن عليّ القيام بشيء ما للمساعدة ولو بطريقة محدودة. لعل بوسعي جمع مؤن وإرسالها إلى مصر. ثم ذكرت نفسي بأن حكومة الكويت ثرية جداً. وستلبي احتياجات مواطنيها الأساسية. وعادت بي أفكارى إلى قصة قرأتها في مجلة أو كتاب. ما يحتاج إليه الكويتيون هو دعم العالم لهم. ليس ثمة أقوى من قصص الحرب. عندها حسمت قراري بوجوب العودة إلى المنطقة وإيجاد اللاجئين، ومقابلتهم ورواية قصصهم. لقد اتخذت قراري، رغم يقيني أنني سأواجه كثيراً من العقبات.

كان الشرق الأوسط أشبه بموطني الثاني. فأنا ملمة بثقافته. لقد عشت وعملت في الرياض بالسعودية سنوات عدة، وأيقنت أن كل شيء يسير بوتيرة أبطأ في الشرق الأوسط. علمت أنني سأحتاج إلى المساعدة للقاء اللاجئين. وعلى الرغم من وجود أصدقاء كثيرين يتباؤون مناصب عليا في مختلف الحكومات العربية، لم يبدُ أيّ منهم «مناسباً» لتقديم المساعدة في هذا المشروع.

فيما كنت أفكر في المهمة الهائلة التي تنتظرني، رن جرس الهاتف. كان سفير الكويت على الخط، وكان يجب على رسالتي. قلت له إنني تفاجأت أمام إعطائي قليلاً من وقته للاتصال بي، فأجاب: «كيف يمكن لأحد ألا يرد عليك؟» بعد قليل من مناقشة الوضع، تطرقت إلى عزمي المستجد على تأليف كتاب يستند إلى مقابلات مع اللاجئين الكويتيين. شرحت له أنه سيكون من المفيد أن نحضر رسالة نريخ بها الكويتيين، ونقول فيها بأن لهم الحرية في إخباري قصصهم

الشخصية. لم أناقش واقع أن أغلب العرب الذين أعرفهم يترددون لدى الإفصاح عن حياتهم الخاصة. فتقافتهم تتوقع منهم إظهار الحشمة والرزانة. كما أن أغلب العرب لا يرغبون بإزعاج حكوماتهم. أبدى السفير اهتماماً بخطتي التي ستلقت عناية العالم إلى الوضع الراهن في بلاده. لدى انتهاء اتصالنا، تم تحضير ترتيبات كي أسافر إلى واشنطن في الأسبوع المقبل لمقابلة السفير وطاقم عمله.

عدا عن رؤيتي له في مختلف البرامج الإخبارية التلفزيونية، لم أكن أعرف شيئاً عن السفير الصباح. بدا فعلاً واسع الاطلاع، ومهذباً ومتواضعاً. سرد السفير بكل هدوء الوقائع، ثم أثبت وجهة نظره، فيما عمد السفير العراقي محمد صادق المشاط إلى إهانة ذكائنا بإعلانه أن الشعب الكويتي يريد من العراق أن يحكمه، وأنه طلب التدخل من الرئيس العراقي كي يغزو أراضيه ويطيح آل الصباح الحاكمين.

سافرت إلى واشنطن حسبما رتبنا واستحصلت على الرسالة التي تعرّفني كشخص يود سماع حقيقة ما اختبره اللاجئين⁴.

سافرت من واشنطن إلى لندن حيث التقيت الدكتورة سعاد الصباح، زوجة عبد الله المبارك الصباح، الابن الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة لمبارك الكبير. في الكويت، كانت الدكتورة الصباح تحتل مركزاً مرموقاً لأسباب تتعلق بزواجها، بالإضافة إلى أنها شاعرة وكاتبة كويتية بارزة. صودف أن الدكتورة الصباح وأولادها موجودون في لندن صبيحة يوم الغزو، وظلوا هناك إلى ما بعد الغزو والاحتلال. كانت الدكتورة الصباح تعمل لمساعدة أشخاص مثلي للحصول على قصص عن اللاجئين الكويتيين. حين علمت أنني أود تكريس كتابي لكل الكويتيين الذين قُتلوا أثناء الغزو، وسأخص بالذكر أخا الأمير، الشيخ فهد الصباح، الذي كان أول ضحية من ضحايا العائلة الحاكمة. قدّمت الدكتورة الصباح اقتراحاً. أبدت لطفاً بالغاً بحيث عرّفتني إلى الشبيخة فضيلة الصباح، أرملة الشيخ.

كانت ليلة لقائي بالشبيخة فضيلة والدكتورة الصباح ليلة حزينة

لن أنساها أبداً. فالشيخة كانت منفعلة جداً لأنها تحب زوجها كثيراً وقد صُدمت لموته. ولم تكن تعرف شيئاً عن مصير أبنائها الثلاثة، ما زاد خوفها وحزنها.

سافرت من لندن إلى القاهرة للقاء أشخاص هربوا في الآونة الأخيرة من الكويت عبر صحارى الأردن والعراق والسعودية. كان الذهاب إلى القاهرة سهلاً، إذ إن مصر مألوفة عندي، فقد أمضيت وقتاً طويلاً في القاهرة مع زوجي السابق بيتر ساسون الذي وُلِد ونشأ في الإسكندرية. كان والد بيتر أوروبياً يملك كثيراً من مزارع القطن في الإسكندرية. وكانت والدة بيتر يوغسلافية التقت والد بيتر في شمال إيطاليا عقب الحرب العالمية الثانية.

التقت بيتر وزوجته الجديدة جولي في القاهرة. وكان بيتر قد وافق على التقاط صور للكتاب الذي أوّلفه.

وجدت عدداً كبيراً من اللاجئين في القاهرة، وكلّ منهم عاش قصة مأساوية يرغب في الحديث عنها. لقد هوجمت الكويت على حين غرّة، ولم يكن أحد مستعداً لكل ما جرى. انفصلت أمهات عن أبنائهن، وضاع بعض الأطفال داخل المستشفيات، وتاه الأزواج والزوجات بعضهم عن بعض. لقد لاقى عملي في القاهرة نجاحاً.

انتقلت من القاهرة إلى الرياض بالسعودية، المدينة التي كانت موطني لمدة اثنتي عشرة سنة، من العام 1987 حتى العام 1990.

خلال وجودي في السعودية زرت مكاتب السفارة ومباني المدارس المؤقتة، والمستشفيات، حيث سمعت قصص المعاناة والأسى وقلّة الحيلة. وفي الرياض طلبت من السفير الكويتي هناك أن يعطيني رقم هاتف الحكومة الكويتية في المنفى. كان أفراد العائلة المالكة الكويتية قد تجمعوا في الطائف فاتصلت بهم هناك، وتفاجأت حينما رد وزير الإعلام على الهاتف. حينما قلت له إنني أود السفر إلى الطائف ومقابلة ولي العهد والأمير، ضحك وقال: «بالطبع. سنرسل

طائرة خاصة إلى الرياض»، وكان جاداً في كلامه. ضحكت أمام سهولة كل ما يجري، ولكنني قلت له إن هذا ليس ضرورياً، وإنما سأحجز رحلة من الرياض إلى الطائف. في اليوم التالي وصلت إلى الطائف حيث استقبلني في المطار أحد شبان العائلة المالكة. قال إن اسمه سالم الصباح ويريد أن يرد اسمه في الكتاب الذي أولفه. كان شاباً وسيماً وفاتناً، ولكنني كنت في طريقي لرؤية الأمير وولي العهد فكان وقتي محدوداً. بدا جلياً أن ظنه قد خاب، ولكنه كان طيباً جداً فضحك أمام فشله في أن يرد اسمه في الكتاب.

(ملاحظة: بعد حوالي خمسة عشر سنة حينما مررت على السفارة الكويتية في واشنطن، طلبت مقابلة السفير. كنت أعرف اسم السفير ولكنني لم ألتقه قط، حسبما كنت أعتقد. تمت مرافقتي بكل تهذيب إلى مكتب السفير. ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وسألني: «هل تذكريني؟»، ولسوء الحظ لم أذكره. ثم قال: «كنت سائقك حينما أتيت إلى الطائف. أتيت إلى هناك لمقابلة ولي العهد والأمير». لم أصدّق ذلك السائق الشاب الذي كان صريحاً ولطيفاً للغاية أصبح اليوم سفيراً. صاحب السعادة سالم عبد الله الجابر الصباح تم تعيينه في أهم سفارة للكويت وكان كفواً جداً في مركزه. كان متواضعاً جداً بقدر ما كان عليه حينما التقيته لأول مرة، وراح يحدثني ويريني بكل فخر صور العائلة. قال إن زوجته امرأة لبنانية جميلة التقاها حينما كان يدرس في بيروت، ولديه أبناء. وقال إنه يحاول إقناع زوجته بالموافقة على شراء كلب من نوع بَكْسَر. في الواقع كانت تراوده أحلام في الليل بشأن اقتناء كلب بَكْسَر، حسبما قال. شعرت بالإحراج لأنني لم أذكره ومرّت علي لحظات ندم لأنني لم أصغ إلى قصته في ذلك اليوم من عام 1990 ولم أكتب شيئاً عنه في كتابي «اغتصاب الكويت». في الحياة لحظات ندم. ولكن لا يسعنا تغيير الماضي، لذا نمضي قُدماً).

مكثت في الطائف مدة أربع وعشرين ساعة. وبدا واضحاً أن

الحكومة الكويتية تتوق لتأليف كتاب عن الغزو وانتهاكات حقوق الإنسان. مع ذلك، لم يسألني أحد عن كيفية سير العمل في الكتاب، ومن هي الشخصيات التي يضمها، أو إن كنت قد كتبت أي فصول. تعجبت من الفرق بين الكويتيين والسعوديين. الكويتيون يستسيغون ترك الأمور تسير على سجيّتها. سأؤلف كتاباً وفق ما أكتشفه في مقابلاتي. لو كان الوضع معكوساً وكنت أكتب عن السعوديين، لطلبوا الإشراف على مقابلاتي، وأصروا على وجود مترجم، وحدّوا من أسئلتي، وأوقفوا مجريات العمل إن مسّ أي طرف من العائلة الملكية. وبمرور الوقت أثار إعجابي أكثر انفتاح الكويتيين وعائلتهم المالكة.

مُنحت كما وُعدت مقابلة مطوّلة مع ولي العهد ومقابلة أقصر بكثير مع الأمير. بدا ولي العهد رجلاً سعيداً جداً، بالرغم من الوضع الراهن. راح يرسم على وجهه ابتسامات عريضة وهو يتكلم، راوياً كل ما حدث معه منذ الغزو.

أما الأمير فبدا أقل انفتاحاً، وشعرت أنه يفضّل الاجتماع بوزرائه بشأن المسائل الطارئة على أن يتكلم مع كاتبة، مع أنه أبدى دماثة بالغة.

دعاني وزير الإعلام بكل تهذيب إلى البقاء في الطائف بضعة أيام، كي أتألف أكثر مع العائلة المالكة والمهمات الطارئة لكن وقتي كان محدوداً. أردت العودة إلى لندن ثم أتلنتا حتى أبدأ بتأليف الكتاب. بالتالي التزمت مواعيدي وغادرت إلى الرياض وفق برنامجي.

عقب الانتهاء من آخر مقابلاتي في الرياض، عدت إلى لندن حيث التقيت من جديد الدكتورة سعاد الصباح. دُعيت إلى منزلها، وهي شقة فاخرة قرب متاجر هارودز، حيث التقيت أولادها المثيرين جداً للاهتمام. كان جلياً أن أولاد الدكتورة الصباح يمثلون فرحتها الكبرى. خلال أحد أحاديثنا، أخبرتني الدكتورة عن أكبر حزن في حياتها، وهو خسارتها أحد أبنائها. كان قد عانى من الربو طوال حياته. وقبل حوالي سنة، كانت العائلة تهم بمغادرة الكويت على متن طائرة خاصة حينما بدأ

ابنها يواجه صعوبة في التنفّس. كان الفتى المسكين يكافح لالتقاط كل نفس. صُعق الجميع، وراحوا يتوسّلون ربان الطائرة كي يحط بالطائرة بأسرع وقت ممكن. ولكن حينما وصلوا إلى الأرض، كان الفتى الصباح الجميل والمحجوب جداً قد لفظ آخر أنفاسه.

أحسست بحزنها العميق وشعرت بالأسى الشديد على خسارتها، لعلمي من تجربة والديّ كم هي مؤلمة خسارة الابن.

بعد العودة إلى أتلانتا، بدأت عملية الكتابة. وبسبب ضيق الوقت بدا الكتاب مثل تقرير إخباري، ولكن طُلب مني أن أطمئن لأن هذا هو نوع الكتب التي يريدونها القراء. وبالتالي هكذا كان.



د. نعمة الله إبراهيم

- النسر الشعبي العربية (قصص قصيرة)
- فروخ ناز ألف يوم ويوم (قصة)

د. أحمد حاطوم

- في مدار اللغة واللسان
- قواعد فانت التُّحاة
- كتاب الإعراب
- المساجلات
- نقوش

د. شكري نصرالله

- الثالث (رواية)
- قالوا... وفعلا: وقتع من تاريخ العرب وتراثهم (جكم وأشعار)
- كنوز العرب (جكم وأقوال مأثورة)

منشورات المجلس القطري
للثقافة والفنون والتراث

- تاريخ اللغات ومستقبلها (دراسة) - هارالد هارمان
- فلسطين في الشعر الإسباني المعاصر (شعر) - د. محمد الجعدي
- هل كنا مثل أي عاشقين؟ (رواية) - ناقتح سارنا

جين ساسون

- بنات سمو الأميرة (قصة)
- حلقة الأميرة سلطانة (قصة)

الروائي باولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة (رواية)
- ألف (رواية)
- أوراق محارب الضوء (عبارات وعبر)
- بريدا (رواية)
- الجاسوسة (رواية)
- الجبل الخامس (رواية)
- حاج كوميستيلا (رواية)
- الخيميائي (رواية)
- الريح بيثي وحيداً (رواية)
- الزانية (رواية)
- الزَّهير (رواية)
- ساحرة بورتوبيللو (رواية)
- الشيطان والأنتة بريم (رواية)
- على غير بيدرا هناك جلست فيكيت (رواية)
- فيرونيكا تقرر أن تموت (رواية)
- مخطوطة وُجدت في عكرا (رواية)
- مكنوب (عبارات وعبر)

إيلس عسيران

- الاستراحة
- حسر الحجر
- الحوار الأخرس
- خط الأفق
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً
- المدينة الفارغة



- مختارات من الشعراء الرواد في لبنان (شعر)

سردار أوزكان

- حين نستحيل الحياة نوراً (رواية)
- المردة الضائعة (رواية)

د. عبد السلام فزازي

- الزمن المستعار... (رواية)
- وبسألونك عن الذاكرة (رواية)

د. محمد طغان

- رحلة بهمان (رواية)
- صيف الجزاح (رواية)

ملك محمد جودة

- أنا... والعبون الزجاجية (رواية)
- رواية ١٩٥٣ (رواية)

نوال السعداوي

- إنه الدم (رواية)
- نوال السعداوي وعابدة الجوهري في حوار حول الأثوثة والذكورة والدين والإبداع (دراسة) - د. نوال السعداوي ود. عابدة الجوهري

سليم اللوزي

- خلف العتمة (رواية)
- ذبائح ملونة (رواية)

- خيار باسبينا (قصة)

- سمو الأميرة (قصة)

- لأنك ولدي (قصة)

- مغامرة حب في بلاد ممزقة (قصة)

- ميادة ابنة العراق (قصة)

منى دايج

- إيزيس في القدس (رواية)

- بوح أثوي (شعر)

- طلاق الحاكم (رواية)

- غزّل العلوج (رواية)

راوي حاج

- الصرصار (رواية)

- كرنفال (رواية)

- لعبة دي نيرو (رواية)

روحي طعمة

- امرأة للشقاء المقبل (قصص قصيرة)

- لا أحد يفهم ما يدور الآن (شعر)

طلال حيدر

- آن الألوان (شعر)

- سرّ الزمان (شعر)

عصام محفوظ

- عشرون روائياً عالمياً يتحدثون عن تجاربهم (دراسة)



سلسلة الأدب

- الظلُّ فجر داكن - مهدي منصور
- كما يقع النضاح - هادي مراد
- ما يفعله الغرب في الليل - عماد دياب
- مثل السَّكَّتْ - سوسن مرتضى
- ميتينغ meeting - جوليان حكيم
- هو وهي في السعودية - هتان بن محمد طاسجي
- وراء الأفق - إبراهيم أبو زيد
- وصية شاعرة - ناهد عيد
- يساورني ظنُّ أمهم ماتوا عطاشى - غسان علم الدين

مهدي منصور

- أخاف الله والحب والوطن
- الأرض حذاء مُسْتَعْمَل
- الظلُّ فجر داكن
- فهرس الانتظار

سليم حيدر

- آفاق
- أشواق
- إشراق
- ألوان
- ألحان
- أشجان
- لبنان
- يا نافخ النورة البيضاء
- ألسنة الرمان
- مهرجان العدالة

شاكِر نوري

- جحيمُ الزَّاهِب (رواية)
- مجانبين بوكا (رواية)

رجاء نعمة

- شيطان في نيو قرطاج (رواية)
- مذكرات امرأة شيعية (رواية)

عماد بزي

- خلف أسوار بيروت (قصص قصيرة)
- فوق أرض لبنان (قصص قصيرة)

بالاشتراك مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

- أصل الغواية (قصص قصيرة) - منتهى العرة
- باب للخروج (رواية) - طارق فزّاج
- حبيبي الحقيقة (شعر) - أحمد طلقش
- الخامدون (قصص قصيرة) - ربي عنتاوي
- نسرين ستموت الليلة (رواية) - خديجة نمري

شعر

- أثواب الحزن - هدى السراري
- أنظر إليك - مراد المصري
- خريف من ذهب - جوزيف طوبيا
- خطوات أثنى - ردينة مصطفى القبلاي
- خفيئًا كزيت يُضيء - بلال المصري
- ضوع الياسمين (شعر - حكايات - خواطر)
- - أ.د. محمد توفيق أبو عبي



روايات

- ◉ أرملة مهندس - صالح ابن عايض
- ◉ إحصار بالتيجور - حسين عبد الرسول سيدي
- ◉ امرأة... وظلّان - خلود عبد الله الخميس
- ◉ ابن الحزب - فيصل فرحات
- ◉ بانع الفستق - سمير عطا الله
- ◉ حقية حذر - عاطف البلوي
- ◉ رقص تحت أشجار الكستناء - عباس جعفر الحسيني
- ◉ سأعطيك الحلوى شرط أن تموت - وائل رقاد
- ◉ سورتيو جسر الكولا - ياسين رفاعية
- ◉ صورة على هاتف جوال - إمام منصور
- ◉ العطر والفقر وما بينهما (قصص قصيرة) - اسماعيل الأمين
- ◉ عشاق أمي (قصص قصيرة) - هاجر عبد السلام
- ◉ الغشوة - راضي شحادة
- ◉ في حديقة الملك - ميّادة العسكري
- ◉ قصة مشرية - قصة يوطوبيا - حسن فتحي
- ◉ محاولات اغتيال علي (قصص قصيرة) - محمد بركات
- ◉ مولود وثلاثة آباء - نائل ماجد مجذوب
- ◉ نهاية جيل - محمد سعيد طالب
- ◉ هل يفرقنا الدين؟ - حسن السيد أسعد فضل الله
- ◉ ١٨ يوماً في ميدان التحرير - قصة زامي حبيب ورسم أحمد سليم

دراسات

- ◉ أبعد من الريف: شعراء خالدون في عيون الألف الثالث - لامع آخر
- ◉ أثر الفكر الديني في روايات باولو كويلو - بكادي محمد
- ◉ أحمد فؤاد نجم: تشخيص أوجاع الأمة المصرية - د. كمال عبد الملك
- ◉ أخذتُ كيش: أدم نص أدبي في العالم - ألبير نقاش وحسن زينة
- ◉ إميل بجاني كاتب في الغربال - تأليف عدد من الكتاب
- ◉ جدلية الحب والموت: في مؤلفات جبران خليل جبران العربية - د. بطرس حبيب
- ◉ الحب والتصوّف عند العرب - د. عادل كامل الألويسي
- ◉ الحريم اللغوي - بسري مُقدم
- ◉ الدوائر المتحددة المركز: دراسة نقدية في شعر نزيه أبو عفش - نادين باخص
- ◉ الرومنطيقية في الشعر العربي المعاصر - د. فيكتور غريب
- ◉ سنوات ضائعة من حياة المتنبي - هادي محيي الخفاجي
- ◉ صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية - د. محمد توفيق أبو علي
- ◉ طه حسين (من الشاطئ الآخر) - عبد الرشيد عمودي
- ◉ علم الإبداع - د. مروان فارس
- ◉ مها قلت... لا تنقل - تبيل سليمان
- ◉ موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية - منير عبود



سلسلة الأدب

- فناة من بلغراد - لويس دو بيرنيير
- اللعنة على نهر الوقت - بير بيترسون
- ما تحبته لنا النجوم - جون غرين
- متتالية فرنسية - إيرين نيمروفسكي
- مدينة بوهاين - كيشن ياري
- مرض الموت - مارغريت دوراس
- موعظة عن سقوط روما - جيروم فيراري
- الناس والآخرون - قدرتي قلعي

مكتبة نوبل

- حبّ عمّرم - يوكيو ميشيما (الذي نحلّى عن جائزة نوبل مرّتين)
- الديار - توني موريسون
- رحمة - توني موريسون
- المتورّ - جوزيه ساراماجو

روايات عالمية

غيربرند باكر

- التوأم
- المنعطف

○ «الأصولي» المتردّد - محسن حامد

○ ألف عام من الصلاة (قصص قصيرة) - بيون لي

○ اعترافات غايشا - آرثر غولدن

○ بساط من الزهر الأحمر: البحث عن أفغاني - نيلوفر بازير

○ بومبي - روبرت هاريس

○ بيل كانتو - الرهينة - آن باتشيتا

○ التوأم - غيربرند باكر

○ حكاية الشتاء - پول أوستر

○ حياة - دافيد فاغتر

○ الخجل والكرامة - داغ سولستاد

○ دماء الأزهار - أنيتا أميرسفاني

○ الطربوش - روبرت سوليه

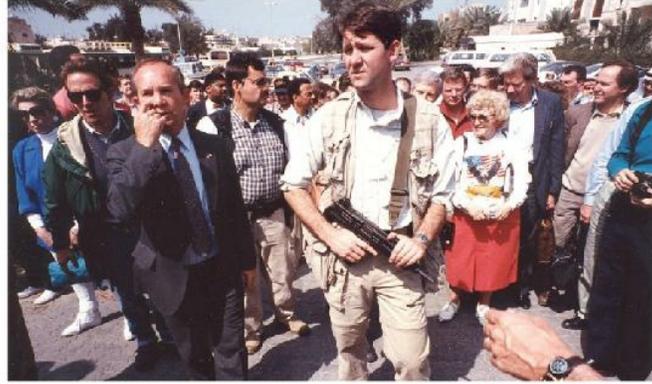
○ عند تلاشي الضوء - أويغن روغه



جين ساسون تحمل طفلاً كويتياً في الرياض، بالسعودية.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويُمنع نسخها أو إعادة طباعتها من دون إذن.



15 آذار/مارس 1991: صورة لجين ساسون وآخرين مدعوّين للمشاركة في «رحلة الحرية» من العاصمة واشنطن إلى الكويت.

نتظر دخول دار التعذيب.

قدّم هذه الصورة إلى جين ساسون في حزيران/يونيو 1991 السفير الكويتي

سعود الناصر الصباح، وحثّها على عرضها في أي كتاب تؤلّفه حول اجتياح

الكويت واحتلالها.



سمو الأمير الشيخ سعد العبد الله السالم الصباح، ولي العهد
ورئيس الوزراء يحيي جين
ساسون، الكاتبة التي أجرت معه مقابلة تحضيراً لكتابها الذي
حقق أعلى المبيعات.
«اغتصاب الكويت».

قدّم هذه الصورة إلى جين ساسون في حزيران/يونيو 1991
السفير الكويتي سعود الناصر الصباح،
وحثّها على عرضها في أي كتاب تؤلفه حول اجتياح الكويت
واحتلالها.



السفير سعود الناصر الصباح مستغرق في التفكير خلال زيارته
لقصره المدمّر في مدينة
الكويت.

قدّم هذه الصورة إلى جين ساسون في حزيران/يونيو 1991
السفير الكويتي سعود الناصر الصباح، وحثها على عرضها في أي
كتاب تؤلّفه حول اجتياح الكويت واحتلالها.



امثالاً لأوامر صدام حسين، أضرم الجيش العراقي النار في آبار
النفط الكويتية

عند إخلائه البلاد.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويمنع نسخها أو
إعادة طباعتها من دون إذن.



حين ساسون مع الكويتي سعود المطاوع، الذي كان يعمل
موظفاً في مصرف

وتطوَّع للعمل مترجماً وسائفاً للكاتبه.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويُمنع نسخها أو
إعادة طباعتها من دون إذن.



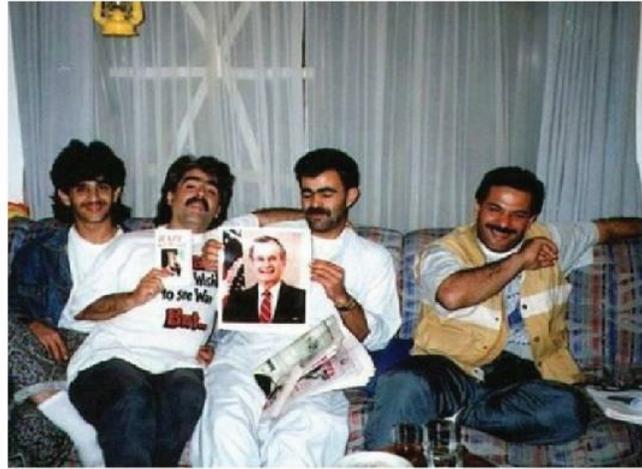
رأي الكويتيين الحقيقي بصدام حسين. صورة الديكتاتور وقد
خرّمها الرصاص.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويُمنع نسخها أو

إعادة طباعتها من دون إذن.

طبيبان عايشا الغزو
والاحتلال
العراقيين. يسردان على
الكاتبه
الهول والعنف اللذين
شهدا
عليهما شخصياً.
© مؤسسة ساسون
هذه الصورة مُلك
شخصي لمؤسسة
ساسون ويمنع نسخها
أو إعادة
طباعتها من دون إذن.



حضرت المؤلفة احتفالاً كويتياً أقامه الأشخاص الذين قاوموا
الاحتلال
ونجوا منه. يحتفلون وهم يستمتعون بكتاب «اغتصاب الكويت»
ويحملون صورة للرئيس جورج بوش.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويُمنع نسخها أو إعادة طباعتها من دون إذن.



منطقة السرة، صالة شيخان الفارسي في 24 آذار/مارس 1991:
كويتيون مغمومون بالأمل

يتجمعون بانتظار الحافلات التي تعيد بعض السجناء الكويتيين من العراق إلى عائلاتهم.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويُمنع نسخها أو إعادة طباعتها من دون إذن.

نساء ينتظرن
أحباءهن. كانت هذه الشابة
تنتظر زوجها الذي اختطف
من شوارع الكويت في آخر
يوم للاحتلال. تعرض العديد
من الكويتيين للاختطاف
من الشوارع وساقهم



الجيش العراقي الفار
رهائن.

© مؤسسة ساسون

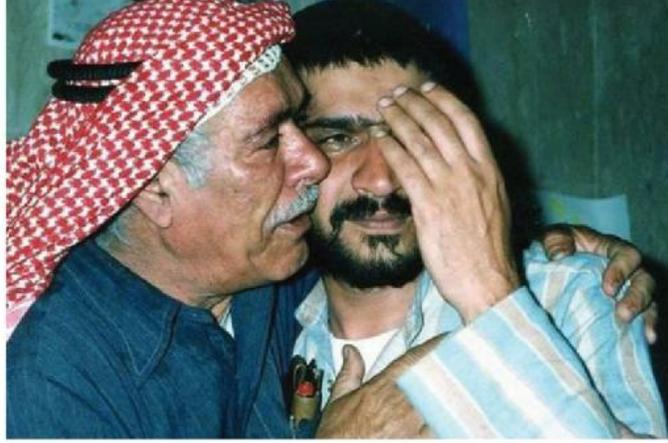
هذه الصورة مُلك
شخصي لمؤسسة
ساسون ويمنع نسخها أو
إعادة طباعتها من دون إذن.

أم تنتظر ابنها الذي أخذ
إلى العراق. لم يعد الابن وهو
على الأرجح من بين
الكويتيين المفقودين البالغ
عددهم 605 الذين لم يعودوا
من العراق.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك
شخصي لمؤسسة ساسون
ويمنع نسخها أو إعادة
طباعتها من دون إذن.





صورة مؤثرة تُظهر ابناً أُعيد إلى والده بعد أن تعرض للتجويع والتعذيب في السجون العراقية.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويُمنع نسخها أو إعادة طباعتها من دون إذن.



هؤلاء بطلات حقيقيات، ممرضات لم يعبان بسلامتهن الخاصة وأنقذن داراً للمعوقين مليئة بالأطفال.

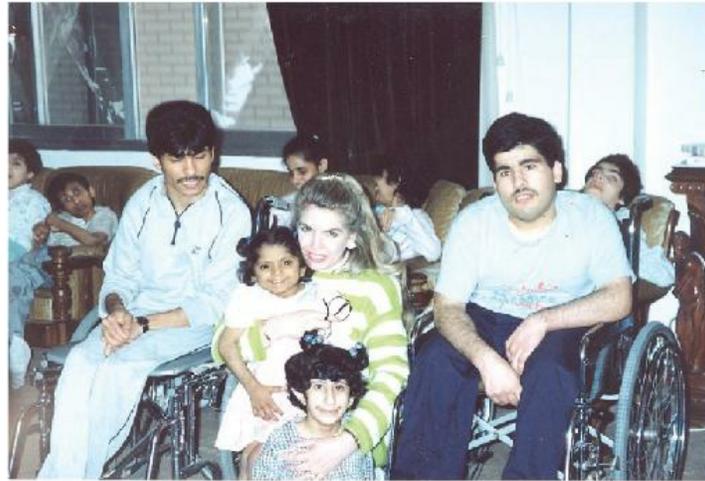
© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويُمنع نسخها أو إعادة طباعتها من دون إذن.



حين ساسون برفقة شاب فرح نجا من الاحتلال. كانت هذه الدار تضم الكثير من الأطفال المعوقين ولكن الممرضات صاحبات العزم أنقذن حياة الأطفال بعد أن استولى الجيش العراقي على الدار ورمى الأطفال والممرضات في الشارع.
© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويُمنع نسخها أو إعادة طباعتها من دون إذن.



حين ساسون برفقة مجموعة من الأطفال الذين نجوا من

الاحتلال.

© مؤسسة ساسون

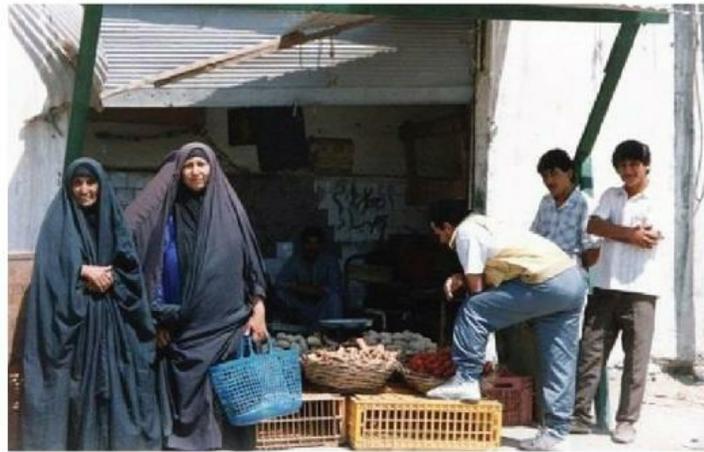
هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويُمنع نسخها أو إعادة طباعتها من دون إذن.



جنوب العراق حيث تسلل كل من جين ساسون وسعود المطاوع إلى العراق من الكويت.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويُمنع نسخها أو إعادة طباعتها من دون إذن.



جين ساسون وسعود المطاوع استكشفا جنوب العراق وتحديثا مع الشعب العراقي. المثير

للمفاجأة، أن أي توتر لم يحدث بين الكويتي سعود المطاوع
والعراقيين الذي حيوا
المؤلفة وسعود.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويُمنع نسخها أو
إعادة طباعتها من دون إذن.

تتساءل المؤلفة: «فيم
كانت هذه المرأة العراقية تفكر
حينما التُقطت لها هذه
الصورة؟». جالت المؤلفة في
جنوب العراق بعدما تسللت
إلى العراق من الكويت.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك
شخصي لمؤسسة ساسون
ويُمنع نسخها أو إعادة طباعتها
من دون إذن.



كلب مشرد اسمه (كويت)
ياويه الجنود الأمريكيون.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك
شخصي لمؤسسة ساسون
ويُمنع نسخها أو إعادة طباعتها

من دون إذن.



حين ساسون في زيارة للجنود الأمريكيين الذين تمرکزوا في صحاري الكويت.

© مؤسسة ساسون

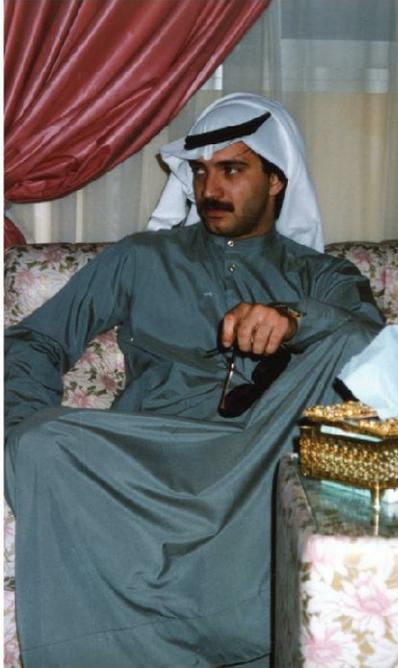
هذه الصورة ملك شخصي لمؤسسة ساسون ويمنع نسخها أو إعادة طباعتها من دون إذن.



أب ثكلان قُتل ابنه على أيدي العراقيين. كان ابنه مناضلاً مقاوماً.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويُمنع نسخها أو إعادة طباعتها من دون إذن.



**الكويتيون العاديون،
حتى أولئك المعتادون على
حياة الرفاهية والراحة،
أصبحوا مناضلين ومقاومين
وشرسين إبان غزو الجيش
العراقي. هذا الشاب هو أحد
هؤلاء الأبطال.**

© مؤسسة ساسون

**هذه الصورة مُلك
شخصي لمؤسسة ساسون
ويُمنع نسخها أو إعادة
طباعتها من دون إذن.**

مناضل شاب تم القبض
عليه وقتله على أيدي
العراقيين.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك
شخصي لمؤسسة ساسون
ويُمنع نسخها أو إعادة طباعتها
من دون إذن.

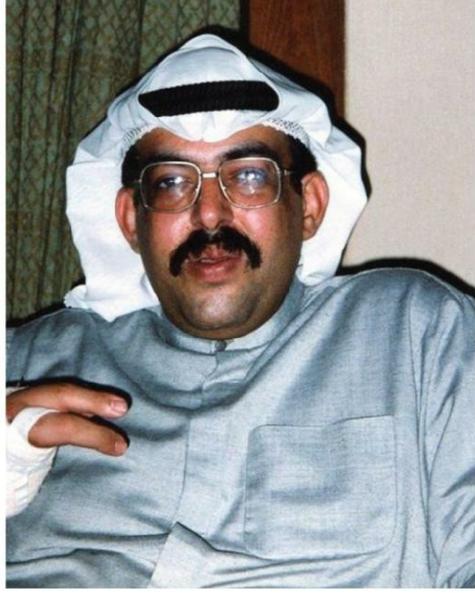


هاتان اثنتان من أسعد النساء اللواتي التقيت بهن. كلتاها نجتا
من أسر مربع في أحد

سجون العراق سيئة السمعة. تم إعادتهما من العراق حين
انتهت الحرب.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويُمنع نسخها أو
إعادة طباعتها من دون إذن.



واحد فقط من بين
عدد كبير من الكويتيين
الذين تم تشويههم إثر
التعذيب. وقف هذا
المصرفي ثابتاً في مكانه
حينما حاول الجنود
العراقيون إجباره على
فتح خزنة المصرف. حينما
أبى، بدأوا يبترون
أصابعه، واحد تلو الآخر.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك
شخصي لمؤسسة
ساسون ويمنع نسخها أو
إعادة طباعتها من دون
إذن.

لعل جثة لانا مدفونة
في قبر غير معلم من بين
قبور كثيرة حُفرت لدفن
جماعي للكويتيين المقتولين
على أيدي الجنود العراقيين.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك
شخصي لمؤسسة ساسون
ويمنع نسخها أو إعادة
طباعتها من دون إذن.





مكثت الكاتبة جين ساسون في الكويت طوال 3 أسابيع بعد عودة طائرة «رحلة الحرية» إلى العاصمة واشنطن. في اليوم الذي افترض بها مغادرة الكويت متوجهة إلى الرياض، السعودية، أعاق حرائق آبار النفط حركة الطيران فأوقفتها. قرر بضعة طيارين بريطانيين شجعان المغادرة ونقلوا الخبر إلى الكاتبة قائلين: «تعالى سنأخذك إلى الرياض». انتهزت جين الفرصة والتحقت بالرحلة. أدركت لاحقاً أنه لو تحطمت الطائرة (نظراً إلى اسوداد السماء) لما عرف أحد بأنها كانت على متن الطائرة.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة ملك شخصي لمؤسسة ساسون ويمنع نسخها أو إعادة طباعتها من دون إذن.



تستعد الكاتبة لمغادرة الكويت على متن طائرة في رحلة ممنوعة.

© مؤسسة ساسون

هذه الصورة مُلك شخصي لمؤسسة ساسون ويُمنع نسخها أو إعادة طباعتها من دون إذن.

Notes

[1 ←]

ملاحظة: علينا ألا ننسى أن ستمئة وخمسة كويتيين، أُخذوا بشكل غير شرعي سجناء حرب في اليوم الأخير للاحتلال، ولم يعودوا قط إلى عائلاتهم .

[2 ←]

كان والد فارس أحد أنشط الرجال الذين قاتلوا لأجل الكويت وتم القبض عليه قبل انسحاب الجيش العراقي.

[3 ←]

المرّة الوحيدة التي عجزت فيها عن التزام العهد الذي قطعته على نفسي كانت حين دسّت أميرة كويتية ساعة ثمينة في جيب معطفي المعلق في خزانة معاطفها . اكتشفت وجود الساعة بعد أشهر حينما أرسلت المعطف إلى المصبغة لتنظيفه . آنذاك كنت قد فقدت الاتصال بتلك الأميرة ولم أجد سبيلاً إلى إعادتها .

[4 ←]

في ملاحظاتي أسرد تفاصيل عن لقاء السفير، ولأنني تطرّقت إلى هذه الذكريات في مقدمة «رحلة الحرية» التي تسبق هذا الملحق، لذا لم أسردها مرة أخرى .



Table of Contents

خيار ياسمينا	
خيار ياسمينا	
المحتويات	
المؤلفة تتذكّر	
تحذير للقراء	
مقدمة	
الفصل الأول ياسمينا	
الفصل الثاني الأسر	
الفصل الثالث مستعبدة جنسياً	
الفصل الرابع لانا	
الفصل الخامس الرجل الذئب	
الفصل السادس الكابتن	
الفصل السابع الانتحار	
الفصل الثامن لانا والوحش	
الفصل التاسع خيار ياسمينا	
الفصل العاشر السير على خيط رفيع	
الفصل الحادي عشر النجاة	
الفصل الثاني عشر لن تعودى إلى ديارك ثانية	
الفصل الثالث عشر الوقت يمر: من منتصف الليل إلى الفجر	
الفصل الرابع عشر نلتقي في البصرة!	
الفصل الخامس عشر الكابتن الابن!	
الخاتمة فيلاً الأطفال	
ملاحظة من الكاتبة	
ملحق (أ) جرائم الاغتصاب إبان الحروب	
ملحق (ب) كلمة من العراقية ميادة العسكري	
ملحق (ج) حول الكويتي سعود المطاوع	
ملحق (د) الكويت - جدول زمني	
ملحق (هـ) العراق - تسلسل زمني	
ملحق (و) تاريخ ادعاء العراق امتلاكه للكويت	
ملحق (ز) رحلة الحرية، رحلة العودة إلى الكويت بعد حرب الخليج الأولى	
ملحق (ح) مقتطفات من كتاب «اغتصاب الكويت»	
Notes	